ابحاث في اليهودية والصهيونية



د . احمد سوسة



دار الأمل

أبحاث في اليهودية والصهيونية

د. أحمد سوسة

دار الأمل للنشر والتوزيع
اربد - الاردن
٢٠٠٣م

د. أحمد سوسة

أبحاث في اليهودية والصهيونية

2003

الناشر

دار الأمل للنشر والتوزيع

اربد - الاردن

تلفاكس 00962-2-7276174 ص. ب. 469

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٣/٤/٦٢٠)

٣٢٠,٥٣٣

أبح أبحاث اليهودية والصهيونية/تأليف أحمد سوسة: تحرير محمود السبع. عمان: المحرر، ٢٠٠٣

( ) ص.

ر. أ. : ٢٠٠٣/٤/٦٢٠

الواصفات : /الصهيونية// إسرائيل// اليهود/

تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال وتصدير

بقلم: محمود توفيق/ مدير دار الأمل

منذ ما يزيد على الثلاثين عاماً قرأت للدكتور المرحوم أحمد سوسة ما هو علمًا يناقش العقل والفكر ليس كلامًا مجردًا أو خطابًا سفسطائيًا، بشأن أهم وأخطر قضايا أمتنا ومصيرها "قضية فلسطين ومحنتها" والصهيونية واليهودية.

وكان اللافت للنظر في كل كتاباته حول فلسطين والصهيونية واليهودية انه يقدم علمًا ملتزمًا، واعيًا لأبعاد وخطورة هذا الموضوع الذي كتب فيه مذ ثلاثينات القرن الماضي، فكان عالمًا حقاً، مستندًا في كل ذلك إلى مخزونه العلمي وقراءاته الدقيقة وليس على اساطير أو خزعبلات وعواطف، فأكد بذلك ان فلسطين، وشعبها وامتنا العربية بحاجة إلى صدق الموقف ودقة الوعي والعمل العلمي في كل الميادين. . . وهذا ما نحن بحاجة إليه الآن اكثر من أي وقت مضى.

وقد سنحت لي الفرصة ان تشرفت بمعرفة أسرته، خاصة كريمته الدكتورة عالية والتقيت بها في بيته العامر في بغداد العروبة، وتحاورنا كثيراً فوجدت بها إنسانة عالمة كيف لا وهي كريمة (أحمد سوسة)، فاتحتها برغبتي طباعة شيء للمرحوم الدكتور العلامة والدها، خاصة وان دار الأمل للنشر والتوزيع اعتادت منذ تأسيسها على الالتزام بمقولة "أشعل شمعة بدل ان تلعن الظلام" وهي السابحة دومًا عكس التيار السائد الاستهلاكي في كل شيء والتي تفخر وبكل تواضع أن تقدم للقارئ العربي ما هو طيب وخير، فرحبت

الدكتورة بالفكرة وسارعت بتقديم هذه الأبحاث لنقوم بطباعتها ونشرها وهي من مكتبة المرحوم.

وإذ تتشرف دار الأمل بطباعة ونشر هذه الأبحاث منسجمة مع خطها الملتزم بالنشر، لترجو من الله ان تكون قد قدمت لأمتنا شيئًا هامًا ولو يسيراً علّه يسهم في نهضة امتنا لتأخذ دورها على هذا الكوكب الذي نشهد فيه تغوّل قوى الظلام والظلم والاستعباد ضد الإنسانية جمعاء.

والله الموفق

اربد- الاردن

١/١/ ٢٠٠٣

الفصل الأول

صفة التلمود والزوهر في الديانة اليهودية

يعد كتاب التلمود عند اليهود جزءًا من أحكام الديانة اليهودية، والتلمود معناه التعاليم أو الشرح أو التفسير، وهو مجموعة الشرائع اليهودية التي نقلها الأحبار اليهود شرحا وتفسيرا للتوراة واستنباطا عن أصولها، واصل كلمة تلمود من العبرية "لاماد" أي (يعلم). ويقسم التلمود إلى قسمين، "المشنة" وهي النص أو المتن و "الجمارا" وهي التفسير أو الشرح، والتلمود هو الاسم الجامع للمشنة والجمارا معًا. والمشنة عبارة عن مجموعة من تقاليد اليهود المختلفة في شتى نواحي الحياة اليهودية مع بعض الآيات من كتاب التوراة. أما الجمارا فهي مجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التي وضعت في المدارس العالية بعد الانتهاء من وضع المشنة. ويزعم اليهود بأن هذه التقاليد والتعاليم شفاهية ألقاها النبي موسى عليه (ع) على شعبه أعطيت حين كان على الجبل ثم تداولها هرون واليعازر ويشوع وسلموها للأنبياء، ثم انتقلت عن الانبياء إلى أعضاء المجمع العلمي الأعلى (سنهدرين)[١] وخلفائهم حتى القرن الثاني بعد المسيح (ع). ويعتبر اكثر اليهود التلمود كتابا منزلا ويضعونه في منزلة التوراة ويرون ان الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاها[٢].

وهناك تلمودان يعرف اولهما بالتلمود الفلسطيني ويسميه اليهود الاورشليمي[٣]، ويعرف الثاني بالتلمود البابلي[٤]. ولكل من هذين التلمودين طابعه الخاص وهو طابع البلد الذي وضع فيه، ولغتا التلمودين مختلفتان تمثلان لهجتين اراميتين، التلمود الفلسطيني بالأرامية الغربية، أما التلمود البابلي فلهجته أرامية شرقية اقرب إلى المتدائية (العراقية) وقد احتوى

على بعض مصطلحات يونانية ولاتينية، وحجم التلمود البابلي أوسع من التلمود الفلسطيني بأربعة أضعاف ويقع في ٥٨٩٤ صفحة ويطبع عادة بأثني عشر جزءاً.

وقد دون التلمود الفلسطيني في فلسطين حين كان قد نشأ في فلسطين طبقة من العلماء يعرفون بـ "التنائيم" فأخذ هؤلاء يشرحون أحكام التوراة ويدونون قوانينها وتبويب شرائعها في مجموعة صارت تعرف بـ "المشنة"، وقد استغرق وضعها حوالي مائتي سنة (من سنة ١٠ ميلادية إلى سنة ٢٢٠ ميلادية) حيث تم جمعها بعناية الحبر الكبير يهوذا بن شمعون الملقب بالربن الاقدس (١٣٥-٢٢٠م) سنة ٢٠٠م، وهو الرباني الاكبر يهوذا بن الربن غمليال سابع رؤساء المجمع العلمي اليهودي الأعلى (سنهدرين)، جامع المشنة التي أصبحت فيما بعد أساسا للتلمود(٥). و "التنائيم" كلمة آرامية جمع "تناء" أي (معلم).

ثم نشأت في فلسطين أيضا طبقة ثانية من الربانيين يعرفون بـ "الاموراثيم"، أي الاساتذة المحدثون، فأخذ هؤلاء يدرسون المشنة ويعلقون عليها التعليقات الإضافية ويشرحون متونها شرحًا وافيًا يتناول شرائع اليهود وتقاليدهم وطقوسهم وتاريخهم، وقد جمعت هذه التعليقات والشروح في مجموعة صارت تعرف بالتلمود الاورشليمي وكان الفراغ منه في أواخر القرن الثالث للميلاد وقد فقد قسم كبير منه. و "الامورائيم" كلمة عبرية جمع "امورا" أي مكلم أو شارح.

ولما اشتد ضغط الرومان على اليهود في فلسطين، لم يعد باستطاعة الربانيين الاستمرار على الدرس والبحث بحرية وأمان فاضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى العراق حيث أنشأوا مدارس كبرى للامورائيم وفي هذا المحيط الذي كان يسوده الامان والحرية الدينية المطلقة استطاع الامورائيم ان يشرحوا المشنة شرحا اكثر تفصيلا وأعم موضوعا مما اضطلع به علماء فلسطين فصارت مجموعة الشروح العراقية تعرف بالتلمود البابلي الذي تم وضعه سنة ٤٩٠م، وبها انتهى دور الأمورائيم.

وقد تأسست في العراق أربعة مراكز رئيسة للدراسات الدينية تحت اشراف الربانيين وهذه تعاونت ما بينها لوضع التلمود البابلي، كان ثلاثة منها على نهر الفرات أعلاها "نهر دعه" في منطقة الفرات الأوسط بجوار عانة، وتليها جنوبا بلدة "فومبديثة" في جوار مدينة الأنبار [٦] و "سورا" في منطقة بابل، ثم "ماحوزة" على نهر دجلة بجوار طيسفون. هذا مع العلم ان "نهر دعة" كانت من مدن التلمود المهمة وكان موقعها في الفرات الأوسط، والظاهر ان اسمها كان يطلق على هذا الإقليم بأجمعه ومن ضمنه الانبار، [٧] وقد تعرضت "نهر درعة" إلى هجوم أذينية الثاني ملك تدمر، فبعد انتصاره على ملك شابور الأول سنة ٢٦٢م هاجم المدينة وهدمها بما فيها مدرستها الدينية اليهودية. وعلى اثر ذلك انتقلت المدرسة إلى "محاوزة"، ثم أصبحت "سورا" مركزا رئيسيًا للدراسات الدينية في بابل فأسس فيها ابا اريخا المسمى بالراب سنة ٢١٩م، مدرسة دينية كبرى ونشأت معها "فومبديثة" بجوار مدينة الانبار التي أسست فيها إحدى كبريات المدارس التلمودية. ولفظة "فومبديثة" تعني "فم البداة" والبداة ذكرها ياقوت ووصفها هي والجبة انهماطسوجان من سواد الكوفة[٨]. وقد ذكر بنيامين التطيلي الذي زار العراق في القرن الثاني عشر الميلادي ان الانبار هي "فومبديثة" في "نهر دعة"، يقيم فيها نحو الفي يهودي بينهم العلماء والفقهاء، منهم الربيون حين وموسى والياقيم، وبها من القبور قبر الربيين يهوذا وصموئيل، وبها أيضا كنيس ر. بستناي راس الجالوت[٩] والربيين "ناثان ونحمن بن بابه"[١٠]. أما "سورا" فكانت تقع بجار الحلة على شط النيل المتفرع من الفرات وكان يعرف قديما بـ "نهر سورا" ويسميه ابن سرابيون بالصراة الكبرى وقد أعاد حفره الحجاج بن يوسف، وكان عند سورا جسر شهير يعرف بقنطرة القاميغان. وكان راس الجالوت في سورا حيث تأسست فيها سنة ٢١٩م مدرسة كبرى كما تقدم بيانه. وقد استمرت هذه المدرسة تقوم بمهمتها ثمانية قرون حتى أغلقت ومعها المدارس الأخرى في خلافة القادر بامر الله (٩٩١-١٠٣١م) ومن ثم انتقل مركز اليهود العلمي إلى الأندلس.

وقد نشأت في العراق بعد انتهاء دور "الاموراثيم" طبقة من العلماء يعرفون بـ "السبورائيم" . وهي كلمة عبرية معناها الاساتذة الشارحون كانت تطلق على طبقة من العلماء اليهود استمر نشاطهم العلمي في بابل من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٨٨م وكانت أهم أعمالهم التعليق على التلمود وتنظيم أبوابه وفصوله بالشكل المعروف إلى يومنا هذا . وأخيرا تولى "الغاؤونيم" مسئولية تعليم التلمود وإصدار الفتاوي الدينية ليهود الشرق والغرب وقد استمر عمل الغاؤونيم حوالي ٤٥٠ سنة بين سنة ٥٨٩ وسنة ١٠٣٠ م و "الغاؤونيم" كلمة عبرية جمع "غاؤون" كانت تطلق على الربانيين رؤساء المدرستين الدينتين اليهوديتين في بابل (في فومبديثة وسورا) .

وفيما يلي أدوار الربانيين الذين تعاونوا على وضع التلمود البابلي وتعليمه :

"التنائيم" في فلسطين من ١٠ إلى ٢١٩م .

"الاوارئيم" في فلسطين وفي العراق من ٢١٩ إلى ٥٠٠م .

"السبورائيم" في العراق من ٥٠٠ إلى ٥٨٨م .

"الغاؤونيم" في العراق من ٥٨٩ إلى ١٠٣٠م .

وفي التلمود تأكيداً لمبدأ الاستعلاء والتفوق العنصري اليهودي على بقية شعوب الأرض جعل الناس عبيدا لليهود على اعتبار انهم الشعب المختار وان الله اصطفاهم دون سواهم من شعوب الأرض، كما تتجسم فيه انعزالية الشعب اليهودي وحقه في جميع خيرات الأرض التي وهبها له الهه الخاص دون الآخرين من الناس . فكان التلموديون يصورون اليهود "انهم من طينة ارفع من طينة باقي العالم وان بقية نوع الإنسان الذين لم يعتنقوا الديانة اليهودية خدم لهم كغيرهم من الحيوانات غير العاقلة"[١١] . وتحت عنوان "عصر الإيمان" يقول العلامة ديورانت في كتابه "قصة الحضارة" ان الربانيين والحاخاميين اخذوا يفسرون التوراة حسب أهوائهم بالشكل الذي يرضي غرائزهم الشريرة ونزوعهم على بقية أجناس البشر .

" وينص التلمود على انه يجب على كل يهودي ان يبذل جهده لمنع تسلط باقي الامم في الأرض، لتصير السلطة لليهود وحدهم، فإذا لم تكن لهم السلطة عدوا كأنهم في حياة النفي والأسر، ويعيش اليهود في حرب مع باقي الشعوب حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع وحينئذ يدخل الناس أفواجا في دين اليهود "(١٢) .

أما نظرة التلموديين إلى المسيحية فقد جاء في التلمود الكثير من عبارات الطعن والسب للمسيحية والمسيح (ع) ما لا يستسيغه المستوى الأخلاقي الإنساني واننا نحجم عن نقل هذه العبارات لعدم لياقة ذكرها(١٣) . ويجيز التلمود استعمال النفاق مع غير اليهود(١٤) .

" ويقول التلمود بالتناسخ، وهو فكر تسرب لبابل من الهند، وأخذه حاخامات بابل من المجتمع البابلي "(١٥) .

وقد ظهرت فرقة يهودية يدعى منتسبوها " القراؤون " أسسها قحان بن داوود، وهو من علماء يهود العراق تناهض التلمود وتدعو للاكتفاء بالتوراة وهذه ظهرت في بغداد العباسية وفي فارس اشتهرت بالتزمت حول الطقوس والسبت، ولا تزال بقية هذه الشيعة موجودة في القرم ومنهم في الجزء المحتل من فلسطين. ومن الجماعات اليهودية التي اعتنقت هذا المبدأ يهود الجزيرة العربية الذين كانوا بعيدين عن محيط التلمود وعن واضعيه من الربانيين الفلسطينيين "(١٦) .

وأساس المباحث في التلمود قائم على ستة أبواب هي :

١ - الفلاحة ٢ - الأعياد والمواسم ٣- النساء وما يتعلق بهن من زواج وطلاق وحضانة ونذور وارث ووصية ٤- النواهي والعقوبات ٥- الذبائح وما يتعلق بالتقدمات والقرابين ومراسيم الهيكل في ذلك. ٦- الطهارة.

وكان اليهود حريصين ان لا يطلع على التلمود غيرهم إلا من يأمنون جانبه من غير اليهود ممن يؤيد نزعاتهم وميولهم خوفا من ثورة العالم المسيحي

ضدهم. وقد أخفوه أربعة عشر قرناً منذ أن وضعه حاخاوهم، ففي سنة ١٢٤٣م أمرت الحكومة الفرنسية في باريس بإحراق التلمود علناً بعد ان كشف ما يحتوي عليه من عبارات الطعن والإهانة ضد الاغيار من الناس وضد المسيحية بوجه خاص. وقد تم حرقه عدة مرات في مختلف الأزمان والأقطار.

وأقدم نسخة مخطوطة للمشنة موجودة في "بارما" يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وفي كل من كمبريج ونيويورك نسخة تعود إلى القرنين العاشر والحادي عشر بعد الميلاد. وقد ظهرت أول طبعة للمشنة مع شروح في بيبلس بإيطاليا سنة ١٤٩٢، أما الطبعات الحالية فهي من القرن الخامس عشر والسابع عشر للميلاد، وأهم ترجمة إنكليزية للمشنة البابلية هي ترجمة "كانون دنبي سنة ١٩٣٥".

ولما كانت العربية هي لسان اليهود في التخاطب في شؤون الحياة العملية في البلاد العربية فقد وضع موسى بن ميمون الفيلسوف اليهودي القرطبي الاندلسي (١١٣٩-١٢٠٥م) بعد انتقاله إلى مصر تفسيراً وشرحًا مفصلاً بالعربية لكتاب المشنة سماه "السراج" وكتبه لفظاً وتعبيرا باللغة العربية الدارجة في مصر وجعل الكتابة بالحرف العبري، وقد أتم الكتاب سنة ١١٦٨م. وقد ألف أيضا مصنفا آخر بالعبرية يبحث في الفقه اليهودي استمده من التلمود وشروحه وهوامشه وأطلق عليه اسم "تثنية التوراة" وقد اعتمد في ذلك على التلمود البابلي مع الاستعانة بالتلمود الاورشليمي كلما دعت الحاجة إليه. كما وضع ابن ميمون كتابا آخر بعنوان "دليل الحائرين" حاول فيه أن يدعم المعتقدات اليهودية بأدلة عقلية منطقية لا نقلية. وقد جرى في كتابه هذا على النحو الذي سلكه في كتابه "السراج" فهو بالعربية كتب بحروف عبرية، وقد نسخ الكتاب بحروف عربية كما ترجم إلى العبرية. ويلاحظ أن موسى بن ميمون كغيره من الكتاب اليهود في القرون الوسطى لم يعن عناية كافية بقواعد الأعراب على النحو الصحيح في اللغة العربية(١٧).

وكانت أول طبعة كاملة للتلمودين الفلسطين والعراقي بعد ظهور وسائل النسخ والمسخ تلك التي طبعت خلال سني ١٥٢٠-١٥٢٤م في البندقية، وقد احرق في ايطالية سنة ١٥٥٣م [١٨]. ويبلغ التلمود في اللغة الإنكليزية بأصوله ومتونه وشروحه وتعليقاته ٣٦ مجلدا [١٩]. وقد نقل الجزء الاول إلى العربية سنة ١٩٠٩ وهو يذكر أهل الرجال في كل جيل من أجيل علماء التلمود. والعثور على نسخ كاملة من التلمود صعب للغاية نظرا لما حذفه المتأخرون من العبارات [٢٠].

القبالة والزوهر

وقد ظهر بعد إنجاز كتابة التلمود عدد من الأحبار اليهود، وهؤلاء تأثروا بالآراء الشرقية ودين الفرس وزرادشت، فخرجوا بمجموعة باطنية من الحكم تتعلق بأسرار الكون وبالاله والكائنات كانت في مراحلها الأولى تدعى "الحكمة المستورة"، وصارت تعرف عند اليهو دبـ "القبالة" بمعنى القبول أو تلقي الرواية الشفوية. ويذهب هؤلاء الاحبار إلى ان هذه الأحكام نزلت على القديسين منذ اقدم الأزمة واحتفظ بها بعض الاحبار. "ورغم ما أخذت القبالة من الزرادشتية من جموح وخيال وتطوح مما أعطاها صيغة ميثولوجية فقد بقيت في جوهرها موسوية يهودية" [٢١]. وهذا الوحي الذي يتناول القوى الباطنية للسماء والأرض كان الخوض فيه مقصورا على نخبة مختارة، هم الفاهمون والعقلاء، وقد انصرفوا للبحث عن السر الالهي فيما يتعلق بمصير الإنسان، وكانوا فوق كل شيء يبحثون عن معرفة العلائم التي تنبئ بظهور المسيح اليهودي الذي ينقذ الشعب المختار من الآلام التي يعانيها، وهذه هي عقيدة "المسيح المنتظر" التي انبثقت من عقيدة السيادة والامتياز للشعب اليهودي.

" ويدعي القباليون ان كتاب التكوين عندهم مستمد من موسى، وموسى استمده من إبراهيم، إذا لم يكن من آدم، أو ممن هو أعلى من آدم

واقدم[٢٢] . أما المنابع الرئيسية التي استقت القبالة منها مادتها، فيقول الحاخام بوكس في كتاب "تراث إسرائيل" (ص٣٢٨): "ان المنابع التي استقت القبالة منها مادتها هي الروايات الباطنية التلمودية ومذهب التصوف الذي راود "الغاؤونيم" والفلسفة العربية الأفلاطونية. وكانت هذه الدراسات في خلال القرن الثالث عشر وفيما بعده مقتصرة على فئات محدودة ثم انتشرت انتشارا واسعا مما أدى إلى ظهور مجموعة أدبية كتبت بلهجة خاصة من اللغة الآرامية. وهذه كلها جمعت في كتاب مقدس جديد، هو "الزوهر" . ومعنى الزوهر بالعبرية "النور" أو "الضياء" ، وتسميته هذه مأخذوة من التوراة" (والفاهمون يضيئون كضياء الجلد)[٢٣] . أما واضعه فهو موسى الليوني (١٢٥٠-١٣٠٥م) وقد دونه بالآرامية في إسبانيا، غير ان المعروف ان ما احتواه الزوهر من الشعائر الصوفية وما إليها من حكم ترجع إلى زمن الحاخام سمعان بن يوشاي في القرن الثاني للميلاد الذي قيل انه بقي ١٣ سنة مخفياً في مغارة من مغاور فلسطين فكشفت له أسرار السماء والأرض هناك. وتتصل أسرار الزوهر بالتوراة وكل كلمة أو حرف من حروفها يحمل باعتقاد القبالين معنى باطني. وفي أسطورة من أساطير الزوهر ان الاثني والعشرين حرفا من الأبجدية العبرية نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلا ونقشت بنار ملتهبة[٢٤] . والحياة في عرف "الزوهر" صراع بين الخير والشر، وكلاهما يخدمان غاية مقدسة، وكل عمل خير وكل صلاة حارة تبعث قوة روحية تؤدي إلى انتصار الخير على الشر، ذلك الانتصار الذي سوف يظهر بكل جلاء وبهاء مع ظهور المسيح المنتظر[٢٥] . ومن القبالين المشهورين نخمان وموسى بن ميمون وكلاهما ظهر في الأندلس وقد سبقت الإشارة إلى بعض مؤلفات الأخير[٢٦] .

عقيدة "المسيح المنتظر" :

يتضح مما تقدم ان القبالة لعبت دوراً مهما في تطور العقل اليهودي، وقد كانت كل هذه التوغلات الصوفية الأسطورية الباطنية تدور حول شيء واحد هو التطلع إلى ظهور المسيح اليهودي المنتظر الذي ينقذ اليهود (شعب الله المختار) من آلامه ويملكه على العالم. ويقول الأستاذ قاسم الشواف في ذلك: ويؤخذ من مجمل التفسيرات التلمودية التي تعود لنصوص التوراة ان المسيح المنتظر هو أما من نسل داود أو من نسل يوسف وعرضت له أسماء متعددة حسب النصوص المعتمدة. ولما كان مجيء المسيح اليهودي يعتبر تجديداً للعالم فلا بد ان يسبق مجيئه عودة للفوضى، وكانت كل الآلام والمصاعب التي تحملها اليهود عبر تاريخهم تفسر وتقبل على أنها الآلام (آلام المخاض)، وبعد مجيء المسيح وانقضاء فترة (المخاض) فان العالم الجديد المقبل ليس كالعالم الحالي: يعم السلام في العالم الجديد، البكاء والأنين يختفيان من العالم ولن يكون بعد ذلك أي شكوى أو احتجاج أو حزن، تبارك إسرائيل بمجيء المسيح اليهودي وينتهي عنها الضغط وتتبوأ إسرائيل مركزها العالمي الذي أعده لها الرب. ويتبدل مصير إسرائيل، لدرجة ان كثيرا من الغرباء يحاولون الانضمام إلى الطائفة، ولكنه يتوجب رفضهم لان رغبتهم ينقصها الإخلاص (لا مهتدي يقبل في أيام المسيح). واغرب ما تضمنته معتقدات العالم الآخر اليهودي، هو محاكمة الأمم حيث تشهد محاكمة لأعداء إسرائيل الأرضيين. ومجمل هذه المعتقدات، مستوحى من حياة تشتت، وصلت إلى مداها الأبعد، في الفترة الرومانية، وولدت حقدا وكراهية لبقية الشعوب، وولدت امالا مسيانية بنهاية العالم، لخدمة مصالح اليهود، ، في عالم آخر مادي أو غير مادي، وللانتقام من أمم الأرض التي ناصبت اليهود العداء[٢٧].

ويرى البعض ان فكرة المسيح المنتظر برزت في الفكر اليهودي في وقت متأخر ولم تظهر إلا بعد سقوط دويلة اليهود واسرهم في بابل ثم خضوعهم

إلى الفرس [٢٨] . وهذا ما دفع كثيرين من الباحثين إلى الاعتقاد بان فكرة المنقذ المخلص مستعارة من الزرادشتية التي يدين بها الفرس [٢٩] . وتتحدث التوراة في بعض أسفارها (اشعيا وارميا وعاموس) عن المسيح المنتظر فتقول : "يولد لنا ولد، ونعطى ابنا، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيبا ويكون إلها قديراً، أبًا أبديا رئيس السلام، لنمو رياسته يجلس على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها، ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد، غيرة رب الجنود تصنع هذا[٣٠] " .

وقد رسم اليهود الصورة التي تخيلوها للمسيح المنتظر فذكروا ان الناس في ظله لن يعيشوا وحدهم في العالم الجديد في سلام وسعادة بل يشاركهم في ذلك كل أنواع الحيوانات، فالذئب يسالم الحمل، والعجل يداعب الأسد، ويربض النمر مع الجدي، والعجل المسمن والشبل معا، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان، تربض أولادهما معا الخ. ويكون في ذلك اليوم ان السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن . . . ومن حماة ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم، ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة اطراف الأرض [٣١] .

وظهر عيسى بن مريم وأعلن بعض اليهود انه الميسح المنتظر ولكن أكثريتهم رفضوا هذا الرأي وقاوموا دعوة عيسى حتى حكم عليه بالإعدام. ويقول التلمود عن المسيح : "ان يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين القار والنار وان امه مريم اتت به عن طريق الخطيئة وان الكنائس النصريانية هي بمقام القاذورات والواعظون فيها أشبه بالكلاب النابحة" .

وانطلاقا من عقيدة "المسيح المنتظر" قام واحد بعد الآخر من الأدعياء والمدجلين ادعى كل منهم انه المسيح المنتظر. ففي سنة ٦٤٠م ادعى يهودي من بيت اراما يا من قرية الفلوجة (العراق) انه المسيح المنتظر، فتجمع حوله حوالي ٤٠٠ شخص من مختلف المهن وحرقوا ثلاث كنائس وقتلوا عمدة المنطقة، ولما بلغ خبر هذا المسيح وأعوانه السلطة أرسلت ثلة من الجيش وأوقعت فيهم بطشا وقتلا وألقى القبض على المسيح المزيف وأُعدم [٣٢] .

ومن أولئك الأدعياء في الشرق الإسلامي خلال القرون الوسطى، دجال ظهر في الشام في أواخر خلافة عمر عبد العزيز وأول خلافة يزيد الثاني (٧٢٠-٧٢٤م)، وآخر من بلدة شيرين ادعى انه المسيح المنتظر، ووعد انه سيحقق معجزة استعادة فلسطين. وفي نفس القرن ظهر يهودي من بلدة اصفهان يدعى عبيد الله أبا عيسى إسحاق بن يعقوب الاصهفاني ابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني امية مروان بن محمد (٧٤٤- ٧٥٠م)، وقال ان عودة فلسطين لن تتم إلا بالقتال، وأعد جيشا قوامه عشرة آلاف جندي من اليهود، فعاشت حركته فترة في زمن السفاح إلا ان الخليفة المنصور قضى على هذه الحركة فهزم جيش اليهود، وفرّ أبو عيسى تجاه الشمال (٣٣) وفي حوالي سنة ١١٦٠م في عهد خلافة المقتفي لامر الله العباسي وقعت فتنة كان مسببها يهودي يدعى داود ابن الروحي ادعى انه المسيح المنتظر. وداود هذا نشأ في سواد الموصل ثم انتقل إلى بغداد حيث تفقه بعلوم اليهود في مدارسهم الكبرى، وقد برع في علوم العرب ولغتهم، يضاف إلى ذلك إتقانه فنون السحر والشعوذة، وقد اختار بلدة العمادية في شمال العراق ليعلن نبوته فيها، إذ كان ينوي الاستيلاء على قلعتها بالقوة فبلغ خبر ذلك صاحب العمادية فقتله (٣٤).

وقد بقيت فكرة مجيء المسيح المنتظر مسيطرة على العقل اليهودي وكانت تشتد كلما وقعت حركة اضطهاد ضد اليهود. ولما وقعت حوادث الاضطهاد التي حلت باليهود في بولونيا سنة ١٦٤٨ قيل أنها بشير لليهود بقرب مجيء المسيح. وهذه المرة ظهر شاب يهودي يدعى "ساباتي زيوي" من أهل ازمير (تركيا) لم يتجاوز عمره ال ٢٢ سنة، وهو قبالي متحمس لتعاليم الزوهر، وادعى انه المسيح المنتظر. وما ان أعلن ذلك حتى تبعه عدد كبير من اليهود المتحمسين رغم إنكار رجال الدين دعوته، وأول عمل نادى به هو إلغاء بعض الطقوس اليهودية الموروثة ثم إدخال تعاليم جديدة تتفق مع روح القبالة والزوهر. ثم دعا إلى شطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب واحل

اسمه "سباتاي المسيح" محله وأضاف إليه لقب ابن داود وسليمان. واستمر "سباتاي" ينشر مدعياته في الاوساط اليهودية في العالم فصار له اعوان كثيرون وصار هؤلاء يسمون معارضيهم "كوفريم" أي كفار. وفي ١٦٦٦م غادر ساباتي ازمير مع جمهرة من أعوانه متجها نحو استامبول لممارسة سلطته كملك، ولكن الباخرة التي أقلته وأعوانه داهمتها عاصفة اضطرتها للجوء إلى مضايق الدردنيل، ومن هناك سيق مكبلا بالحديد إلى استامبول حيث جيء به توا إلى الوزير الأعظم احمد كويريلي، ومع ان الوزير كان يشعر بخطورة الوضع بسبب الهياج والقلق اللذين أحدثهما "ساباتي"، إلا انه كان يرى بأن الحالة تكون اخطر إذا استعملت الشدة فأمر بسجنه تحت الرقابة في استامبول. ولما حاول ساباتي مغادرة العاصمة تقرر نقله إلى قلعة ابيدوس على الدردنيل، إلا ان أبعاده زاد في نفوذه ومكانته الدينية، فصار الناس من أتراك ويهود يذهبون لزيارته في سجنه حتى اصبح مقره في أبيدوس محجا لأعوانه ولمعتنقي دعوته.

وقد لقي "ساباتي" اعوانا متنفذين يبثون الدعاية له، ففي استامبول ابرز ابراهام ياكيني أحد رجال الدين كتابا قديما يشير إلى ان المسيح المنتظر هو "ساباتي زيوي"، وفي القاهرة انتصر له ودعم دعوته اليهودي الثري روفائيل يوسف جلبي، فكان ظهيرا حارا لدعوة سباتاي فمده بالمال الكثير لينفقه على اعوانه وعلى يهود أورشليم. وفي غزة وجد ساباتي في ناثان بنيامين لاوي اكبر عون لبث دعوته. ولما توسع نفوذ ساباتي وازداد سلطانه بين الطائفة اليهودية في تركيا أمر السلطان محمد الرابع الذي صار يخشى اغتصاب ساباتي الحكم منه ينقله إلى أدرنه. وعقد السلطان اجتماعا للتداول فيه حول إيجاد طريقة لحل مشكلة سباتاي، فاستقر الرأي على تكليف إحدى الشخصيات ذات النفوذ من اليهود ان يتولى أمر إقناع ساباتي وحمله على إعلان اسلامه انقاذا له ولاتباعه من الدمار والهلاك. وقد تم ذلك بالفعل فاعلن سباتاي إسلامه وسمي محمد افندي وجعل له السلطان راتبا شهريا.

ولكن سباتاي رغم إسلامه استمر يدعي بالخفاء انه المسيح واخذ يبث تعاليمه الدينية بين طائفة الدونمة في تركيا وهم اليهود الذين خرجوا من إسبانيا فاعتنقوا الإسلام في الظاهر ولكنهم كانوا يمارسون طقوسهم الدينية في الخفاء ولا يتزاوجون مع غير الدونمة. وكان ساباتي يدعي بانه يبشر بالدين الإسلامي بين اليهود، ولكن هذه الحيلة لم تجده نفعا فنفي إلى مدينة دلسييكنو في البانيا حيث توفي سنة ١٦٧٦م[٣٥].

الهوامش

(١) السنهـــدرين وفي بعض الأحـيـــان يكتب خطأ بالميم (سنهـــدريم) هو المجـــمع العلمي الديني الأعلى عند اليهـود. ان اصل الاصطلاح يوناني بمعنى المجلس، أسس في زمن خلفاء الاسكندر في أورشليم وبقي قائما في عهد المكابيين ثم الرومانيين حتى ألغي سنة ٧٠ عندما هدمت أورشليم وهيكلها. ويحاول الكتاب اليهود ان يرجعوا بداية السنهدرين إلى عهد النبي موسى عندما دعى السبعين رجلا ليعملوا معه لما قام اتباعه يتذمرون ويطلبون العودة إلى مصر. والأرجح ان بداية السنهدرين كانت بعد الرجوع من السبي، أي إرجاعه إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد. وكانت صلاحية السنهدرين تضيق وتتسع من وقت إلى آخر حسب مراد الرومان شريطة عدم تأثير ذلك على المصالح السياسية الرومانية. والسنهدرين هو الذي حاكم السيد المسيح فصلب سنة ٢٩ ب.م. على ما جاءت به الأخبار. وكان السنهدرين آنذاك أقصى ما وصل إليه من نفوذ وصلاحيات، وكان يتألف من ٧١ عضوا وكلهم من كبار الكهنة والشيوخ وأشهر الحاخامين، وكان النصاب فيه بحضور ٢٣ عضوا.

(٢) "مقارنة الأديان اليهودية"، للدكتور احمد شلبي، ص٢٦٦.

(٣) L. Ginsberg, "The Palestinian Talmud, "N.Y. 1941; Radkinson, "History of the Talmud; J.Bekley, "The Talmud",

(٤) C. Danby, "The Babylonian Talmud, London, 1935; Dr. Choistiian Ginsberg, "The Talmud"; Drach, "the Harmony between the Church and the Synagoge.

(٥) رحلة بنيامين، ص١٩٧.

(٦) معجم البلدان. (وورد في الأخبار أن مدينة فومبدثية تعرضت للغزو، هاجمها جيش جاءها من عاقولاء، ويظهر ان من قوات ( ) أحد ملوك الحيرة، وفي عهد هرمز الرابع (٥٧٨-٥٩١) لما اضطهد هذا الملك فانتقل احبار المدينة إلى الأنبار مدينة مروز شابور (أي الانبار). وكانت آنذاك في حكم ملوك الحيرة وصارت منذ ذلك الوقت مركزًا من مراكز الثقافة اليهودية في العراق.

(٧) الانبار، مدينة عراقية قديمة تقع أطلالها اليوم على ضفة نهر الفرات اليسرى على بعد حوالي ٨ كيلومترات إلى الشمال من مدينة الفلوجة، جاء في "نزهة

القلوب" لحمد الله المستوفي "أن مؤسس الانبار الملك الملك مهراب قايانيان، جعلها معتقلا لأسرى اليهود الذي سباهم بختنصر لذلك سميت الانبار ثم جدد بناءها سابور الثاني، وجعلها السفاح كرسي مملكته". وقد ذر ياقوت ان ابا جعفر المنصور (١٣٦هـ/٧٥٤م) اخ لسفاح سكنها أيضا ردحا من الزمن ثم انتقل إلى العاصمة الجديدة بغداد.

(٨) راس الجالوت، اصطلاح عربي أطلق على رئيس الطائفة اليهودية في دار الإسلام (الدولة الإسلامية) واصل اللفظة آرامي تعني راس الجالية وكان اليهود يطلقون عليه لقب "ريش جالوتا". ففي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) تولى رئاسة الجالوت بستناي بن حنيناي سليل رؤساء الجالوت في عهد الخلفاء العباسيين كما ينبئنا بنيامين التطيلي في رحلته إليه. وكان مقر راس الجالوت في مدينة سورا. وكانت سلطة راس الجالوت في عهد الخلفاء العباسيين كما ينبئنا بنيامين التطيلي في رحلته (ص١٣٥-١٣٨) تسري على جميع الطوائف اليهودية المنتشرة في العراق وفي بلاد خراسان واليمن وجزيرة ما بين النهرين وارمينية واذربايجان وجورجية حتى شواطئ نهر جيحون وحدود سمرقند والتبت وديار الهند. وبعد تأسيس مدينة بغداد في عهد المنصور سنة ٧٦٢ م انتقل راس الجالوت الى العاصمة الجديدة.

(٩) رحلة بنيامين ص١٢٩.

(١٠) "الكنز المرصود في قواعد التلمود" ص١٠.

(١١) المرجع السابق، ص٤٨-٤٩.

(١٢) الدكتور احمد شلبي "مقارنة الأديان - اليهودية"، ص٢٧١.

(١٣) المرجع السابق، ص٢٦٨.

(١٤) المرجع السابق، ص٢٦٧.

(١٥) R. Learsy, "Israel," pp.234-235.

(١٦) انظر الملحق ٢ من رحلة بنيامين بعنوان "القراؤون"، ص١٩١-١٩٥.

(١٧) ولفنسون، "موسى بن ميمون"، ص٤١-١٤١.

(١٨) Jewish Encycopedic Handbooks, N.Y. Vol. I. p.218.

(١٩) عجاج نوهيض، "بروتوكولات حكماء صهيون"، م٢، ص١٤٩-١٩٩.

(٢٠) قرر المجمع اليهودي المنعقد في بولونيا سنة ١٦٣١ بالإجماع ان العبارات

التي تهين الاغيار يجب حذفها، وان التعاليم القائلة بأن المسيحيين هم سافلو الأخلاق لا يستحقون المحبة والعدل لا يصح نشرها.

(٢١) عجاج نويهض، "بروتوكولات حكماء صهيون"،م٢، ص١٩٧.

(٢٢) المرجع السابق، م٢، ص١٩١.

(٢٣) دانيال، ١٢: ٣.

(٢٤) Ben Shahen, "The Alphabet of Creation An Ancient Legend from the Zohar with Drawings", 3rd Printing, N.Y., 1972.

(٢٥) R. Learsy, "Israel", p.305.

(٢٦) انظر عجاج نويهض، "بروتوكولات حكماء صهيون"،م٢. ١٩٠ - ٢٠٥ انظر أيضا.

A.E.Waite, "The Holy Kabbalah", 2Vols.; A Frank, "The Kabbalah," Paris, 1843; Ginsberg, "The Kabbalah, "; Benson, "The Zohar in Muslim Spain; Pauley, "The Zohar".

(٢٧) قاسم الشواف، "مع الكلمة الصافية"، ص١٥٠-١٥٦.

(٢٨) الدكتور احمد شلبي "اليهودية"، ص٢١١.

(٢٩) الدكتور احمد شلبي "اليهودية"، ص٢١١، عن العقاد في كتابه "الله"، ص٧١١.

(٣٠) اشعيا ٩: ٦-٧.

(٣١) الدكتور احمد شلبي،"اليهودية"، ص٣١٤- ٢١٢- ٢١٣.

(٣٢) موسيل، "الفرات الأوسط"، ص٢٨٠.

(٣٣) الدكتور احمد شلبي "اليهودية"، ص٣١٤.

(٣٤) رحلة بنيامين التطيلي، ص٢٠٦ - ٢٠٩، ١٥٤-١٥٧.

(٣٥) انظر عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، م٢: ٢٠٥-٢١٣: جواد رفعت اتيلفان، ترجمة وهبي عز الدين، ص٧٨: ردفوس ليري،"إسرائيل- تاريخ الشعب اليهودي"، ص٣٦٠-٣٦٩.

الفصل الثاني

اللغة العبرية وصلتها باليهودية

لقد اعتاد أكثر الذين كتبوا في تاريخ اليهود من افرنج وعرب ان يستعملوا كلمة "عبري" أو "عبراني" بمعنى يهودي، والحقيقة هي ان هذه الكلمة جاءت في المصادر القديمة بغير هذا المعنى، إذ كانت تطلق في نحو الالف الثانية قبل الميلاد وقبل ذلك على طائفة كبيرة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب وفي بادية الشام، وكانت العبرية (بمعنى لغة هؤلاء العبريين) آنذاك لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة القبائل في طور سيناء وفي شرق الأردن، ومنهم العمالقة والمديانيون وغيرهم من الأقوام العربية البدوية في المنطقة حتى صارت كلمة "عبري" مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام. وبهذا المعنى وردت كلمة "الابري" و "الهبيري" و "الخبيرو" و "العبيرو" في المصادر المسمارية الفرعونية ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين، ولما وُجد اليهود وانتسبوا إلى موسى النبي كانوا هم أنفسهم يقولون عن العبرية أنها لغة كنعان (لسان كنعان)[١]، ثم انطوت "العبرية" (الكنعانية) في الآرامية التي غلبت على القبائل جميعا بين فلسطين وسورية والعراق ومنهم اليهود بعد ظهورهم، وعندئذ أصبحت كلمة "عبري" تشمل جميع الآراميين وكلهم عرب ساميون نزحوا من مواطنهم الأصلية في جزيرة العرب قبل ان يكون لليهود وجود[٢]. لذلك فليس للعبرية القديمة المشتقة من العبيرو أية صلة باليهودية.

وقد وجد الحاخامون كتبة التوراة في وقت لاحق ان احسن طريقة يمكن اتباعها لربط تاريخهم وتاريخ لغتهم بأقدم العصور واعتبار عصر اليهود

متصلا بأقدم الأزمنة هو استعمال مصطلح "عبري" القديم (عبيرو) للدلالة على اليهود بوجه عام وبذلك يتم إرجاع تاريخهم وأصلهم وتاريخ لغتهم الى العبرانيين (عهد العبيرو القديم) الذي لا يمتون إليه بأية صلة. وهكذا اعتبروا تاريخ اليهود في فلسطين تاريخا واحدا متصلا ومرتبطا منذ اقدم العصور بالشعب اليهودي.

وفي تعليق على استعمال كلمة عبري لاول مرة للدلالة على اليهود يقول "درايفر" استاذ اللغة العربية في اكسفورد في مقال له في دائرة المعارف البريطانية ان كلمة "عبري" (عبريت) و "عبراي" بالآرامية صاغها حاخامو فلسطين في وقت لاحق[٣] . والدليل على ذلك ان كلمة "عبري" لم تكن مستعملة في روسية للدلالة على اليهود إلا بعد القرن الخامس عشر للميلاد[٤] .

ويلاحظ هنا أن درايفر مع انه يعترف بان كلمة عبري صاغها حاخامو فلسطين في وقت لاحق واعتبروها هي وكلمة يهودي بمعنى واحد، يحاول ان يخفي وجود الكنعانية (اللغة الام لغة عصرالعبيرو) من مسرح الأحداث في فلسطين، وعندما ذكرها وضعها بين قوسين وكأنه يريد بذلك الانتقاص من دورها الأساسي في تكوين الثقافة الفلسطينية في تلك الفترة السحيقة من تاريخ فلسطين. ولكن مهما أراد أن يطوي صفحة الكنعانية من أحداث هذه الفترة، فلا يمكن ان تكون اللغة التي يطلق عليها اسم (اللغة الشبيهة بالعبرية)[٥] تارة واسم (اللغة السامية الغربية) تارة أخرى غير اللغة الكنعانية (لغة سكان فلسطين الأصليين)، لانها كانت متداولة في كنعان قبل مجيء اليهود في القرن الثالث عشر ق. م. وقد اخذ بها هؤلاء اليهود بعد دخولهم إلى فلسطين (كنعان)، وقد ورد في التوراة ما يؤكد تسمية هذه اللغة التي كانت متداولة قبل نزوح اليهود إليها بلغة كنعان كما تقدم.

وكان خبير اللغات المعروف "دايرنجر" أول من رد على درايفر وغيره من الباحثين الذين جاروه فيما ذهب إليه بعبارة رقيقة قال: "انه من المستحسن

ان تسمي هذه الكتابات بالكتابة الكنعانية القديمة "[٦] . وفي تعليق اولئاري على ذلك أيضا تأييداً لدايرنجر يقول : "وقد دفع التحيز اللاهوتي باليهود لان يعتبروا اللغة العبرية (بمعنى اليهودية) هي اللغة الام، ليس فقط للغتين الآرامية والعربية ولكن لجميع اللغات كذلك " [٧] .

ويعترف الدكتور ولفنسون وهو كاتب يهودي "ان الأحبار اليهود كانوا منذ العصور القديمة يعتبرون ان اللغة العبرية (اليهودية) هي اقدم لغة في العالم، وسرت هذه العقيدة من اليهود إلى غيرهم من الباحثين حتى ان العرب في القرون الوسطى كانوا يعتقدونها "[٨] .

وهكذا فقد اعتبر اكثر الباحثين اقدم الكتابات التي عثر عليها في فلسطين وهي كتابة جازر التي ترجع إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أي إلى عهد اليبوسيين سكان القدس الأصليين وغيرها من الكتابات القديمة ككتابة شكيم ولخيش التي ترجع إلى نفس التارخ [٩] ، نماذج من الكتابة العبرية القديمة أي اليهودية، إلا ان دايرنجر صحح ذلك بتسمية هذه الكتابات بالكتابة الكنعانية القديمة كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

يتضح مما تقدم ان تسمية ابرام (إبراهيم الخليل ع) بالعبراني كما وردت في التوراة [١٠] كان يراد بها معنى "العبريين" القبائل البدوية، ومنها القبائل الآرامية التي ينتمي اليها إبراهيم الخليل نفسه، وبهذا المعنى جاءت كلمة "عبيرو" التي عثر عليها في النصوص المصرية والتي تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد. ويعترف قاموس الكتاب المقدس لجورج بوست (ج١، ص١٨) بان لقب إبرام العبراني لم يقصد به الإسرائيلي وإنما يمكن تأويله على حد تعبير القاموس بابرام السائح أو المهاجر[١١] . والتوراة حين تصف إبراهيم الخليل بالعبراني تساير واقع الحال باعتباره من بقائل "العبيرو" التي ينتمي إليها، أي القبائل الآرامية، قبل ان يكون لليهود وجود بعد. ويؤيد ذلك المستشرق ثوردارسون، استاذ اللاهوت في جامعة ايسلندا، فيرى ان ابراهام كان شبه بدوي Semi nomade ينتمي إلى القبائل القديمة المسماة بالعبيرو ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلي نفسه[١٢] .

وهكذا فقد استخدم الكتّاب اليهود الاصطلاح "العبري" للتمويه والتشوش فاعتبروه هو واليهودي اسمين لمسمى واحد، وبذلك ارجعوا كل ما يمت بصلة باليهود في وقت لاحق إلى عهد العبريين القديم "العبيرو" الذي لم يكن لهم أي وجود فيه. وبذلك اسدل الكتّاب اليهود بعد ان احتكروا لأنفسهم كتابة التاريخ القديم وفق هواهم الستار على الكنعانية (لغة فلسطين الام) واعتبروا التراث العبري القديم تراثهم، فسموا اللغة الكنعانية الأصلية القديمة "عبرية التوراة" (Biblical Hebrew) واللهجة الآرامية التي كتبت بها المشنة بـ"عبرية المشنة" (Mischnaic Hebrew)، ثم "عبرية القرون الوسطى" (Medieval Hebrew) فالعبرية الحديثة (Modern Hebrew). [١٣] وقد سار كل الباحثين على هذا النمط من التفكير المعقد الغامض، فقبلوا الطبخة التي طبخها الحاخامون في وقت لاحق بخلطهم بين العبرية واليهودية على علاتها من غير تمحيص أو تدقيق، متجاهلين وجود الكنعانية الام.

ويأتي بعد ذلك "رابين" معاون استاذ اللغة العبرية في الجامعة العبرية في القدس، فيؤكد بدوره في مقال له عن الآداب العبرية نشر في دائرة المعارف البريطانية [١٤] بأن اهل كنعان الذين وجدوا في فلسطين قبل نزوح اليهود إليها كانوا يتكلمون بلغة قديمة (شبه عبرية)، وان قطع المزامير التي اكتشفت في تل العمارنة دليل على ان الأدب العبري (بمعنى اليهودي) كان مزدهراً في كنعان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي قبل دخول اليهود إلى فلسطين. ومع ان رابين يعترف بالحقيقة (أي وجود لغة كنعانية كان يتكلم بها أهل كنعان قبل دخول اليهود إليها) فإنه يلجأ إلى التلاعب بالتسلسل التاريخي الذي اتبعه زميله درايفر للتشويش على القارئ وهو يحاول إبعاد الكنعانية عن مسرح الأحداث، فيطلق على الكنعانية اسم (اللغة الشبيهة بالعبرية)، مجانبا بذلك حقيقةوجود الكنعانية التي اقتبسها اليهود من أهل كنعان بعد دخولهم إلى فلسطين، وهو مثل درايفر ينسب كل اللهجات التي ظهرت في وقت لاحق إلى العبرية أي اليهودية. وقد حذت دائرة المعارف القياسية اليهودية

لسنة ١٩٦٦ حذو من سبقها من الباحثين اليهود في ترديد نفس النغمة بقولها : "لقد ثبت من رسائل تل العمارنة ان العبرية (بمعنى اليهودية) كانت لسان سكان فلسطين قبل دخول الإسرائيليين (اليهود) إليها" [١٥]. ولما كانت رسائل العمارنة ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد في حين ان اليهود جاؤوا إلى فلسطين في القرن الثالث عشر فليس للعبرية القديمة إذن أي صلة باليهودية. ومع ذلك فقد بث الكتّاب اليهود النظرية الغريبة القائلة بان اللغة العبرية بمعنى اليهودية نشأت قبل ان يكون قد وجد اليهود في كنعان وقَبل الناس ذلك ومنهم العرب بلا نقاش ولا تمحيص. فهذا ولفنسون يضرب علَى نفس الوتر على الرغم من اعترافه بان الأحبار اليهود هم الذين نشروا هذه النظرية منذ اقدم العصور حتى ان العرب في القرون الوسطى كانوا يعتقدونها كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فنراه يقول ما نصه: "ومع انه قد وجدت أمم سامية قبل بني إسرائيل بآلاف من السنين فان الباحثين يرون في اللغة العبرية وآدابها مقياسا صالحا للبحث في جميع اللغات السامية (كذا)، لان الذي وصل إلينا من آثار البابليين والآشوريين والآراميين ضئيل جدا بالقياس إلى ما وصل إلينا من تراث بني إسرائيل. . واللغة العبرية من أمهات اللغات السامية، فقد كانت شائعة قبل نشوء بني إسرائيل وظهورهم في العالم (كذا)، إذ كانت لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة الكثير من القبائل في طور سيناء وشرقي الأردن[١٦]. وقد اخذ حتى العرب يرددون هذه الاقوال فهذا الأستاذ الابراشي مثلا يقول: "يتضح ان العبرية القديمة نشأت في فلسطين حتى قبل مهاجرة الاسرائيليين (الموسويين) إلى كنعان" [١٧]. ومثل ذلك يعتبر المطران يوسف الدبس اللغة المؤابية القديمة فرعا من العبرية (اليهودية)[١٨].

والغريب أن اكثر الكتّاب بل كلهم إطلاقا يأخذون بهذه الأقوال القائمة على اللف والدوران دون ان يقفوا لحظة ليسألوا أنفسهم: "كيف يمكن ان تُنسب اللغة العبرية القديمة (لغة العبيرو) إلى اليهود قبل ان يكون اليهود قد ظهروا إلى عالم الوجود؟!!. وانه لمن المؤسف حقا ان نجد العلماء يتقبلون مثل

هذه النظريات التي لا تستند إلى اي واقع تاريخي بل تتجاوز حدود المنطق والعقل السليم، فتقلب الصورة رأسا على عقب كمن يجعل قدم المرء في الأعلى ورأسه في الأسفل، وكتاب ولفنسون صاحب النظرية القائلة بان اللغة العبرية أي اليهودية كانت شائعة في فلسطين قبل ظهور اليهود إلى عالم الوجود كان يدرّس على الطلاب في مصر ومعترفا به كمصدر ثقة باعتبار مؤلفه مختص باللغات السامية وقد اشرف عليه الدكتور طه حسين مع العلم ان ولفنسون اصبح من ابرز الصهاينة في إسرائيل.

وقد عبّر الدكتور حسن ظاظا عن تلاعب اليهود في تدوين تاريخهم احسن تعبير حين قال: "والذي يدعونا إلى إطلاق صيحتنا مطالبين بدرس أوسع واعمق لتاريخ العبريين، هو انهم الأمة الوحيدة تقريبا التي كتبت تارخيها بيدها، وبحسب هواها، ثم زعمت ان ذلك التاريخ قد انزل من السماء، وانه فوق الجدل والنقاش، وهم عندما كتبوا تاريخهم هذا أغاروا على المأثورات الشعبية للأمم القديمة التي عرفوها، وأضافوا إليها من بقايا الفولكور الذي حفظته ذاكرتهم منذ بداوتهم الأولى، فنسجوا من ذلك كله أسطورة اختلطت فيها حكمة الحكماء، وشرائع الأنبياء، بحكايات الأبطال الخرافيين، وترجمات تكاد تكون حرفية للملاحم من امم اقدم منهم"[١٩].

والصهيونية تحاول اليوم خلق قومية من اليهودية كدين، ولما كانت المقومات الأساسية للقومية كما هو متفق لدى الباحثين هي اللغة فيحاول الصهاينة اعتبار العبرية لغتهم القومية. وهنا لا بد من ان يسأل القارئ: هل كان لليهود لغة قومية خاصة بهم؟ فإذا رجعنا للتاريخ القديم نجد ان اللغة العبرية التي يحاول الصهاينة اليوم جعلها لغة رسمية في إسرائيل باعتبارها لغتهم القومية لم تكن في أي زمن من عصور التاريخ لغة قومية يخاطب بها اليهود فيما بينهم. فالعبرية الي كتب بها الأحبار اليهود التوراة في وقت متأخر في بابل مقتبسة من الآرامية وحروفها مقتبسة من الأبجدية الكنعانية القديمة. فلما جاء اليهود إلى فلسطين بقيادة موسى النبي من مصر كانت لغتهم اللغة

المصرية وكانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون واذا كان من بينهم من كان يحسن القراءة والكتابة غير النبي موسى فكان ذلك بالكتابة الهيروغليفية المصرية [٢٠] . ولكن هذا لا يعني انهم لم يتعرفوا على كنعان، إذ كان الاتصال بين المصريين والكنعانيين قائما منذ اقدم العصور، وذلك بحكم الحدود المشتركة ونتيجة للفتوحات المصرية في الشرق وسيطرتهم السياسية على كنعان. ويتفق العلماء على ان اليهود اخذوا باللغة الكنعانية لغة سكان البلاد الأصليين كما أخذوا بثقافتهم بعد ان جاؤوا إلى فلسطين في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد ومالوا إلى ديانة الكنعانيين الوثنية بين حين وآخر ولم تكن قد تكونت لغة عبرية بعد. هذا ما يدل على ان الكنعانية كانت أولى اللغات التي اقتبسها اليهود بعد ان حلوا في فلسطين على عهد موسى وعهد الملوك الذين جاؤوا بعده. ثم اخذوا بالآرامية التي انتشرت في الشرقين الأدنى والأوسط، ولم يبدأ تكوين اللغة العبرية بمعنى اليهودية المشتقة عن الآرامية إلا قبيل تدوين بعض أقسام التوراة في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. إذ لم تكتمل كتابة التوراة (اسفار موسى الخمسة) إلا في العهد الفارسي الاخميني بعد احتلال كورش لبلاد بابل (٥٣٩-٣٣١ ق. م) وبذلك تكون اللغة العبرية بمعنى اليهودية قد ظهرت إلى الوجود بعد العهد.

ويستخلص من ذلك ان الموسويين كانوا أقلية بين السكان وان الحضارة الكنعانية بما فيها اللغة الكنعانية كانت هي السائدة حتى في عهد الملوك في القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد زمن موسى بحوالي ثلاثمائة عام بدليل ان الديانة الوثنية الكنعانية كانت هي السائدة في البلاد وبقيت هي السائدة حتى السبي البابلي. ، وتؤكد التوراة ان ملوك إسرائيل ويهوذا كانوا بعد الانقسام يدينون بالوثنية وصارت ديانتهم الرسمية واستمروا على هذه الحال زهاء ثلاثمائة عام بعد الانقسام مباشرة. ولما كانت الديانة هي أساس الثقافة فهذا يدل بوضوح على ان الموسويين لم يكوّنوا أية ثقافة خاصة بهم خلال وجودهم في فلسطين وانما اقتبسوا الثقافة الكنعانية بما في ذلك اللغة والديانة من أهل

البلاد الأصليين أي من الكنعانيين وبذلك كانوا أقلية في البلاد في جميع أدوار وجودهم في فلسطين.

ومما تجدر الاشارة إليه أن اللهجة العبرية المشتقة من الآرامية والتي دُوّنت بها التوراة في وقت لاحق لم تكن قد تكونت بعد في زمن داوود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد، فالمزامير التي تنسب إلى عهد داوود وسليمان هي من أصل كنعاني وكانت تتلى في ذلك العهد باللغة الكنعانية وعلى الطريقة الدينية الكنعانية، ثم ترجمها الكهنة اليهود إلى العبرانية في وقت لاحق وعدت من الأسفار المقدسة في التوراة (حتي "تاريخ سورية" الطبعة الانجليزية ص٢٠٥-٢٠٦).

ثم اقتبسوا اللغة الآرامية وصاروا يتكلمون بها فيما بينهم شأنهم في ذلك شأن أقوام الشرقين الأدنى والأوسط الذين اخذوا بهذه اللغة وقد حملها الأسرى اليهود الذين ساقهم الآشوريون إلى جبال كردستان في شمال العراق معهم وحافظوا عليها على الرغم من مرور ٢٨٠٠ سنة على مجيئهم إلى هذه المناطق النائية، وهذه هي نفس اللغة التي كان يتكلم بها اليهود في فلسطين وهي اللهجة الآرامية المعروفة بالترجوم والتي كان يتكلم بها السيد المسيح. ولما جاء الكلدانيون بأسراهم اليهود إلى بابل كانوا يتكلمون بهذه اللغة نفسها وظلوا يتكلمون بها حتى القرن العاشر الميلادي عندما حلت محلها اللغة العربية، وقد سمى بعض الباحثين هذه اللغة التي حملها المأسورون في بابل معهم بالكلدانية نسبة إلى عصر الكلدانيين على الأرجح[٢١]. وعلى هذا الأساس نجد ارنست رينان يقول في كتابه "التاريخ العام المقارن للغات السامية": "ان هذه اللغة الكلدانية بقيت لغة الكتابة عند اليهود في بابل حتى القرن العاشر للميلاد حلت بعدها اللغة العربية وظلت حتى القرن الثالث عشر للميلاد اخذوا بعدها بلغة مركبة على العبرية"[٢٢]. ومما لا شك فيه ان رينان يقصد بالكلدانية (الآرامية اليهودية التي جاء بها اليهود معهم إلى بابل) لتمييزها عن الارامية المسيحية (السريانية). أما المقصود باللغة المركبة فهي اللغة

العربية التي صارت تكتب بحروف عبرية، وهذا ما كان معمولا به حتى آخر وجود لليهود في العراق. أما اليهود الاسرى في آشور فقد ظلوا محافظين على لغتهم الآرامية الأصلية التي نقلوها معهم من فلسطين (لهجة الترجوم). ولغة الترجوم هذه لا تزال تعرف بإسرائيل بهذا الاسم. وقد حذر على اليهود الأكراد الذين تم تهجيرهم إلى إسرائيل مؤخرا استعمال هذه اللغة القديمة (لغة المسيح) واجبروا على تعلم العبرية.

وفي غضون ذلك تكونت لدى الكهنة اليهود لهجة آرامية خاصة بهم، وهي التي صارت تعرف بالعبرية، واخذوا يكتبون بها فاستعملوا حروفا فينقيقة قديمة في بداية الأمر ثم أخذوا يكتبون بالخط السامري، وبعد السبي البابلي وضع الكهنة في الأسر في بابل توراتهم بهذه اللهجة المقتبسة من اللغة الآرامية، لذلك صارت تعرف بآرامية التوراة، وقد استعملوا الخط المسمى بالخط المربع الذي اقتبسوه من اقدم الأقلام الأرامية بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد فاحتفظوا به إلى يومنا هذا ويسمى الآن بالخط الاشوري المربع. وهذه هي بالطبع غير لغة موسى المصرية التي نزلت فيها توراة موسى الأصلية، كما ان مضمون هذه التوراة غير مضمون توراة موسى. فيصح تسمية هذه التوراة بتوراة الكهنة التي وضعوها في الاسر في بابل فاضفوا إليها القدسية وفرضوها على اتباعهم بعد رجوع بعضهم إلى فلسطين على عهد عزرا (كاتب شريعة اله السماء) كما تلقبه التوراة[٢٣]. وأقدم ما وصل إلينا من نصوص هذه التوراة مخطوطات وادي قمران التي ترجع إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد[٢٤].

وقد درج أكثر الباحثين على اعتبار وجود لغة عبرية قديمة وعبرية متأخرة في حين انه لا توجد سوى لغة عبرية واحدة هي التي كتبت بها التوراة في الاسر في بابل في القرن السادس قبل الميلاد وما بعده. والحقيقة ان المقصود بالعبرية القديمة هي اللغة الكنعانية القديمة لغة أهل البلد الأصلية لا غير وهي التي أخذ بها الموسويون بعد عصر موسى، إذ لم تظهر العبرية إلا بعد ان أخذ

الكهنة اليهود يدونون توراتهم في لهجة "آرامية التوراة" المقتبسة من الآرامية، مع العلم انه ليس لدينا أي دليل على انه كانت في البلاد في عصر الملوك لغة غير لغة سكان فلسطين الأصليين، وهي لغة الكنعانيين القديمة.

ومع ان التوراة دونت بالعبرية (ارامية التوراة) فقد كان اليهود يتكلمون ما بينهم بلغة الترجوم الآرامية واقتصرت العبرية على كتب التوراة وحدها التي أصبحت لغة مهجورة ميتة، بدليل أن آخر من بقي من اليهود في العراق الذين استوطنوا المناطق الجبلية لكردية المنعزلة في شمال العراق كانوا وما زالوا يتكلمون باللهجة الآرامية المعروفة بالترجوم [٢٥]، وليس بالعبرية. وهذا ما يبرهن على ان العبرية لم تكن من اللغات الحية، وان ما يبذله الصهاينة اليوم لاحياء هذه اللغة الميتة بغية تكوين تراث ولغة ليجعلوا منهم قومية يهودية تستند إلى لغة يهودية إن هو إلا محاولة فاشلة لان أساس هذه القومية لم يستند على المقومات الأساسية فلن يلبث ان ينهار بزوال إسرائيل. وفي ذلك يقول ليون ابراهام: "ان العبرية قد اختفت باكرا كلغة حية وتبنى اليهود في كل مكان لغات الشعوب التي سكنوها" [٢٦]. وقد جاء الاعتراف بهذه الحقيقة على لسان زعماء حركة الاستنارة اليهودية (هاسكالا)[٢٧]. وهي تدعو إلى التجديد والاصلاح الديني، فأعرب هؤلاء عن شكوكهم في كفاية اللغة العبرية للتعبير عن الأفكار العصرية وتنبأوا بزوالها المحتوم. فقد ذكر الكاتب اليهودي مارغليوث في سلسلة مقالات نشرها في هذا الموضوع "ان العبرية في أوروبا الغربية قد حلت محلها لغة البلاد وان هذه الحقيقة كافية لاقناع كل فرد بأن اللغة العبرية لا بد لها ان تختفي من الأدب مع التقدم العلمي، وانها في روسيا ستمحى مع الزمن من مكانها إلى لغة البلاد الحية". وشاركه في هذا الاعتقاد أيضا، أي زوال اللغة العبرية كأداة ثقافية، الشاعر اليهودي غوردون الذي كان من أنصار الاندماج[٢٨].

وقد اقتبس اليهود بعد انتشارهم في مختلف أقطار العالم Diaspora لغات أهل البلاد التي حلوا بها، ولكنهم اختصوا بلغة واحدة خاصة بهم هي

اللغة اليديشية، وهذه كانت في أساسها اللغة الألمانية المستعملة في القرون الوسطى، ثم دخلت عليها بعض المفردات العبرية وغيرها من المفردات الأجنبية وخرجت عن اللغة الألمانية الأصلية وتكونت لها لهجات اختلفت باختلاف المناطق واللغات الأخرى المحيطة بها. وتكتب هذه اللغة بالحروف العبرية ولا تزال تستعمل مع فروق بسيطة، لان الجماعات التي تتكلم بهذه اللغة وهم من السلاف والجرمان اقتبست الدين اليهودي والكتابة بالحروف العبرية معا، إذ لم تكن لها كتابة وقت اقتباسها الدين اليهودي. وقد جعل اليهود من اليديشية هذه لغة ادبية في شرقي اوربا وانتجوا بها ادبا شعبيا ودينياً. ومع ذلك بقيت اللغة العبرية قائمة إلى جانب اللغة اليديشية بين يهود بولونيا وروسيا وان كانت لغة كتابة وليست لغة تخاطب. وقد كانت نسبة اليهود في العالم الذين يتكلمون اليديشية عام ١٩٠٠ (٦ر٦٠٪) وفي عام ١٩٣٠ انخفضت إلى (٧ز٤٢٪)[٢٩] [*].

وهناك لغة أخرى اختص بها اليهود هي لغة اللدينو Ladino الإسبانية، فلما هاجر اليهود إلى شبه الجزيرة الايبرية خصوصا بعد فتح المسلمين لها سنة ٧١١م كان هؤلاء يتكلمون في إسبانيا في أول الأمر باللغة الإسبانية التي تمسكوا بها واعتبروها لغتهم التقليدية، إذ كانوا في آخر عهدهم قبل ان يطردوا من إسبانيا سنة ١٤٩٢م ثم سنة ١٤٩٦م "مارانيين"، أي يتظاهرون بالمسيحية وهم يقومون بالعبادات والطقوس الدينية اليهودية سرا ثم عادوا إلى اليهودية بعد خروجهم من إسبانيا. وقد هاجر هؤلاء إلى جنوب أوربا وشمال إفريقيا وبلدان الشرق الأوسط وذهب بعضهم إلى لندن وامستردام وهامبورغ ثم هاجروا إلى أماكن أخرى من العالم[**]. وهاجر بعضهم إلى تركيا حيث

* والصهاينة يحتقرون اليديشية اليوم ويمارسون ضغطهم على الاتحاد الإسرائيلي ليكف عن التعليم بالفرنسية ولا يدعون خطيبا يتحدث في الجامعة العبرية إلا على ان يعقب المحاضرة ملخص لها بالعبرية، والشعار السائد عندهم هو كل شيء بالعبرية (فرانتز شايديل، "إسرائيل والمشكلة الفلسطينية"، ترجمة محمد جديد، دمشق ١٩٧٠، ص ٦٩-٧٠).

* واللادينو هي اللغة الشائعة عند اليهود الفلسطينيين.

اعتنقوا الإسلام في الظاهر بينما كانوا يمارسون طقوسهم الدينية في الخفاء وصار هؤلاء يعرفون بالدونمة. وكلا اللغتين، اليديشية واللادينو بقيتا على الأصل منذ القرن الخامس عشر مع ان الألمانية والاسبانية تغيرتا وتطورتا منذ ذلك الحين.

نستخلص مما تقدم ان اللغة العبرية التي يحاول الصهاينة اليوم جعلها لغة رسمية باعتبارها لغتهم القومية لم تكن في أي زمن من عصور التاريخ لغة قومية يتخاطب بها اليهود فيما بينهم، فاللغة العبرية بمعنى اليهودية لم تظهر إلا في حوالي القرن السادس قبل الميلاد عندما أخذ الأحبار اليهود يدونون التوراة باللهجة الآرامية التي اختاروها المسماة بآرامية التوراة وقد اقتصرت هذه اللهجة على كتب التوراة وحدها. أما لغة التخاطب ما بين اليهود فكانت عندما جاؤا إلى فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بقيادة النبي موسى اللغة المصرية الهيروغليفية، فاقتبسوا في فلسطين اللغة الكنعانية لغة السكان الأصليين، ثم اخذوا باللغة الآرامية وصاروا يتكملون بها فيما بينهم شأنهم في ذلك شأن أقوام الشرق الأدنى الذين اخذوا بهذه اللغة. وفي شرق أوروبا اقتبس اليهود اللغة اليديشية (الألمانية القديمة)، وفي إسبانيا اقتبسوا لغة اللادينو الإسبانية. هذا وقد اقتبس بقية يهود لعالم لغات البلاد التي استقروا فيها، كل ذلك دليل قاطع على ان اللغة العبرية لم تكن لغة قومية لليهود في أي زمن من أزمان التاريخ كما تقدم بيانه.

ومع ذلك فالصهيونية تحاول فرض هذه اللغة الميتة على التلاميذ في التحدث بها وتعلم العلوم المختلفة بها لغة الحياة اليومية واللغة الرسمية بأسباب دينية. فكانت أول محاولة من هذا القبيل قام بها عزرا (كاتب الشريعة) لما عاد المسبيون من بابل إلى فلسطين فكانت الآرامية هي اللغة المحلية السائدة في فلسطين وسورية، وهي اللغة التي كان يتخاطب بها الجميع ومن ضمنهم اليهود. لذلك فإن هؤلاء المسبيين لم يفهموا كتاب الشريعة الذي قرأه عزرا بالعبرية، وعليه فان مترجميه " قرأوا في السفر في شريعة الله ببيان وفسروا

المعنى و أفهموهم القراءة "[٣٠] وكذلك فان خصوم المنفيين العائدين خاطبوا ملك الفرس بهذه اللغة الآرامية وتسلموا جوابه بها أيضا[٣١] .

وقد حاول الأمراء المكابيون الذين تولوا الزعامة الدينية على يهود فلسطين منذ فتح اليونان لهذه البلاد على يد الاسكندر الأكبر (١٦٧-٣٧ق . م) إحياء اللغة العبرية من جديد، "وكان ذلك منهم تتمة لعمل سياسي هدفوا به إلى استقلال ذاتي داخل اليهود في فلسطين، ولكن يبدو ان نجاحهم في إعادة اللغة العبرية كان محدودا جدا، ذلك أن الكلمات الآرامية والكلدانية كانت قد اجتاحت هذه اللغة كما اجتاحتها صيغ صرفية آرامية بحتة وبعض مؤثرات نحوية خاصة بتركيب الجملة نفسها "[٣٢] .

وقرر مؤتمر بارل الصهيوني الدولي عام ١٨٩٧ حين حدد أهداف المنظمة الصهيونية اتخاذ اللغة العبرية لغة رسمية للتخاطب بين اليهود في جميع ربوع العالم، وتنفيذا لهذه القرار توصل الحاخام بن يهوذا في سنة ١٩١١ إلى وضع لغة عبرية حديثة يمكن أن يستخدمها كل يهود العالم الذين يذهبون إلى فلسطين (حوليات فلسطينية ص٤). لذا فاللغة العبرية الحديثة هي لغة مبتدعة تستند إلى العبرية المنقرضة منذ عهد طويل.

وقد ظهرت كتب كثيرة بعد إقامة إسرائيل حول موضوع إحياء اللغة العبرية، وكلها تدور في حلقة واحدة، وهي ان اللغة العبرية لم تكن ميتة ولكنها حية، ولولا هذه الحيوية لما أمكن إعادة إحيائها، فيدعي واضعو هذه الكتب بان خمسين بالمائة من اليهود الذكور يستطيعون تلاوة التوراة والصلوات بالعبرية وفهم معناها، كما يدعي هؤلاء بان هناك عدة آلاف من الكلمات العبرية متداولة بلغة المخاطبة اليديشية وان الآداب العبرية مليئة بكتب التاريخ والفلسفة والجغرافيا والرياضيات والفلك والزيئولوجيا والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا، الخ، مما يجعل العبرية مهيأة للإحياء من جديد. ولا شك في ان هذه المصادر تعبر عن وجهة نظر صهيونية بغض النظر عن الحقائق التاريخية[٣٣] .

وفي أواخر عام ١٩٦٦ منحت جائزة نوبل لشاموئيل يوسف عجنون اليهودي . وقالت اللجنة ان كتاباته " تمثل رسالة إسرائيل ، وتكافح كفاحا رائعا من اجل تقويم التراث الثقافي للشعب اليهودي عن طريق الكلمة المكتوبة " وقال يوسف عجنون ان العبرية لغة الله ، و ان الله لا يتكلم إلا بالعبرية .

لقد صنع اليهود لغة قومية من بقايا انقرضت منذ أربعين سنة ولا يتكلم بها أي شعب من الشعوب وتحتوي ألفاظا سياسية وعلمية فرضوها على العالم ، واشترطوا على المهاجرين عبرنة أسمائهم أي اتخاذ أسماء عبرية من التوراة .

ويعترف هرتزل بافتقار اليهود إلى لغة قومية يهودية واحدة يتخاطب بها كل يهود العالم ، ويعتبر ذلك عقبة تقف حائلا دون تأسيس الدولة اليهودية التي كان يخطط لها ، فيقول في كتابه " الدولة اليهودية "(٣٤) ما نصه : " ويبدو ان افتقارنا إلى لغة قومية واحدة يمكن ان يتفاهم بها كل يهود العالم تكون عقبة لا تخلو من مشاكل لاننا لا نستطيع ان نتخاطب بعضنا مع بعض باللغة العبرية ، هذا مع ان سويسرا تزودنا بدليل قاطع على امكانية تكوين اتحاد لغوي ، ونحن كدولة عصرية علينا نهجر لغة الكيتو التي تمثل السجن والاسر . إنما نترك لحكمائنا القوميين ان يعالجوا هذه ا لناحية باختيار اللغة الملائمة كلغة قومية يتخاطب بها اليهود كافة " . ويلاحظ هنا ان هرتزل يرى إمكان تطبيق الاتحاد اللغوي المعمول به في سويسرا على الدولة التي يخطط لها ، وهو ينسى أو يتناسى ان لليهود في العالم اكثر من مائة لغة إذ تدل الإحصاءات على ان اليهود في إسرائيل جاؤا من اثنين ومائة بلد معظمهم لا يحسون برابطة تربط بعضهم ببعض ، ولكن إسرائيل تحاول ان تصهر الجميع فتجعل لهم لغة واحدة هي اللغة العبرية التي اندثرت وبقيت ضمن إطار الكتب المقدسة فقط ، وذلك بتدريس النشئ الجديد اللغة العبرية وتاريخ اليهود بالشكل الذي تهواه بغض النظر عن الحقائق التاريخية .

أما ادعاء الصهاينة بأن اللغة العبرية بمعنى اليهودية هي اقدم اللغات السامية بل هي ام اللغات والثقافات السامية فهو ادعاء باطل لا يستند إلى أي سند تاريخي فقد استغل الباحثون من الصهاينة ومن يواليهم كلمة عبري المشتقة من "عبيرو" القديمة التي كانت تطلق على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب وفي بادية الشام بغية ربط تاريخهم وتاريخ آدابهم بعصر العبيرو واعتبار عصر اليهود متصلا بأقدم الأزمنة. هذا في حين ان الثابت والمعترف به من جميع العلماء ان اليهود ظهروا في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فاقتبسوا من الكنعانيين لغتهم وتقاليدهم حتى أخذوا بديانتهم الوثنية في وقت لاحق، ثم دونوا بعد مرور اكثر من خمسة أو ستة قرون على دخولهم ارض فلسطين بعض أسفار التوراة بلهجة مقتبسة من الآرامية صارت تعرف بآرامية التوراة واخذوا يسمونها بالعبرانية بمعنى اليهودية واتخذوا حروفا أبجدية مشتقة من الآرامية القديمة أيضا صارت تعرف بالحروف المربعة وهي لا تزال تستعمل حتى يومنا هذا. وفي ذلك يقول بيستد " . . . . والواقع الذي لا شك فيه ان اللغة التي اوجدها العبرانيون (اليهود) وهي اللغة الكنعانية، لغة البلاد وقتئذ، قد اتخذها العبرانيون انفسهم لغة لهم، وهي التي انحدرت إلينا فيما بعد في ثوب اللغة العبرانية التي كتبت بها التوراة"[٣٥] . ويقول سوبريوس يعقوب توما: "أما لغة اليهود في فلسطين فقد كانت في الاصل السريانية الفلسطينية (ويقصد بها الآرامية لغة الترجوم) ثم طرأ عليها تغيير لامتزاجهم بالمصريين والكنعانيين ولكنهم استعادوها لما سبوا إلى بابل في عهد نبوخذ نصر بامتزاجهم مع البابليين، وكانت هذه لغتهم في أيام المسيح وبها كتب متى الرسول انجيله بين سنة ٣٩ و ٤٣ إجابة إلى رغبة اليهود المتنصرين"[٣٦] .

أما ما يتعلق باللغة العبرية القديمة التي ترجع إلى زمن ما قبل وجود اليهود والتي سماها اليهود بالعبرية بمعنى اليهودية، فقد ثبت ان اقدم الكتابات التي عرث عليها في فلسطين هي الكتابات الكنعانية القديمة (كتابات سكان

فلسطين الأصليين) وليس الكتابات اليهودية. وقد قسمت هذه الكتابات إلى ثلاث مجموعات، يشمل القسم الأول الكتابات التي عثر عليها في جازر الواقعة على بعد ٣٥ كيلو مترا شمال غربي أورشليم، وفي شكيم (نابلس الحالية) وفي لخيش جنوبي فلسطين. وهذه يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور اليهود بزعامة النبي موسى بخمسمائة عام. ويشمل القسم الثاني الكتابات القديمة التي عثر عليها في "تل الحصى" الواقع على بعد ٢٦ كيلومترا شمال شرقي غزة، وفي "تل العدول" وفي عين شمس (بيت شمس التوراتية) الواقعة على بعد ٢٥ كيلومترا جنوب شرقي أورشليم في جهة عسقلان. وهذه يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور اليهود في فلسطين بقرن واحد. أما المجموعة الثالثة فتشتمل على الكتابات المتأخرة منها التقويم الزراعي الذي عثر عليه في جازر والذي يرجع تاريخه إلى الألف الأول قبل الميلاد (١٠٠٠ ق.م.) وكتابات نبع سلوان في القدس التي يرجع تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد (٦٠٠ ق.م)[٣٨].

كل ذلك دليل قاطع على ان هذه الكتابات القديمة كنعانية بحتة لا صلة لها باليهود أو بالعبرية بمعنى اليهودية إذ ترجع إلى ما قبل وجود اليهود في فلسطين. لذا فان محاولة الصهيونية ان تجعل هذه الكتابات متصلة باليهود واعتبارها تمثل العبرية القديمة بمعنى اليهودية لمجرد إطلاق مصطلح (عبري) القديم عليها محاولة فاشلة لا تستند إلى أي سند تاريخي.

الهوامش

١- اشعيا ١٩ : ١٨ .

٢- ولفنسون، "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ص ز؛ "العقاد، ابراهيم أبو الانبياء"، ص١٣٢ .

٣- G.R. D. Driver, "Hebrew Language, Ency. Brit, 1965, Vol., 11, pp.279.

٤- A. Diky, "Jews in Russia and in the USSR", N.Y., 1967. (Translated from the Ist Russian edition", p.24.

٥- An Earlier form of Hebrew

٦- D. Diringer, "Writing", 1965, ppp.118-119.

٧- اوليئاري، "القواعد المقارنة للغات السامية"، ص١ .

٨- ولفنسون: "اللغات السامية"، ص٧ .

٩- Diringer, Op.Cit., p.118.

١٠- تكوين ١٣ : ١٤ .

١١- يلاحظ ان هذه العبارة قد حذفت من الطبعة الجديدة لقاموس الكتاب المقدس لعام ١٩٧١ بقصد ربط اليهود بعصر إبراهيم الخليل واعتبار كلمة "عبرانيين" أو "عبريين" شاملة لكل أدوار اليهود التاريخية التي تبدأ بإبراهيم الخليل وفقا للتقاليد اليهودية التي تعتبره جد اليهود. لذلك فعندما يصفونه "باليهودي الأول مؤسس الشعب اليهودي، انظر:

Gilbert and Libby Klaperman "The Story of the Jewish Pepole", N.Y. 1956. Vol. I, pp.13.

١٢- Ency. Brit., 1965, 1:45.

١٣- Ency. Brit, 1965, Vol.11, pp.281-283.

١٤- Ency. Brit., 1965, 11:284.

١٥- Standard Jewish Encycolpedia.

١٦- ولفنسون، "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، المقدمة، ص ز.

١٧- الابراشي، الآداب السامية.

١٨- "تاريخ سورية"، ج١، م٢، ص٧.

١٩- "الساميون ولغاتهم"، مكتبة الدراسات اللغوية، القاهرة، ١٩٧١، ص٦٧-٦٨.

٢٠- لم اعثر على أي باحث يشير إلى هذه الحقيقة، أي ان لغة اليهود كانت عندما جاؤا إلى فلسطين اللغة المصرية الهيروغليفية، غير الدكتور حسن ظاظا أستاذ اللغات السامية في جامعة الإسكندرية إذ يقول: "أما على عهد موسى نفسه كل شيء في التوراة يدل على وجود صحف مكتوبة لدى العبريين (الموسويين) وربما كانت هذه الصحف فعلا على الحجر، وفي تلك الحالة لا يستبعد ان تكون في الأصل معتمدة على الكتابة التصويرية الهيروغليفية أو الكتابة المقطعية المسمارية "الساميون ولغاتهم"، ص٨٨، ثم يضيف إلى ذلك قوله: "ان الدلائل كلها تدل على ان التوراة التي رويت ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد كانت بلا شك بلغة عبرية متطورة غير التي كان يتكلم بها موسى". (المرجع السابق، ص٧٩).

٢١- W.H. Green, "General Introduction to the Old Testament, N.Y., 1899 (Chap.III) "The Hebrew Language", p.39.

٢٢- E. Renan, "Histoire, Generale et system compare des Jangues Semitiques", Paris, 1858, 2nd ed.

٢٣- عزرا ٧: ٢١.

٢٤- انظر المراجع العربية الآتية: الأستاذ عجاج نويهض، "بروتوكولات حكماء صهيون"، م٢، ص ٤٥-٤٦ و ١٣٦؛ الدكتور أسد رستم، "مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران"، هدية المسرة سنة ١٩٥٩؛ القس جيمس ولبي وابراهيم مطر، "مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران"، ١٩٥٧؛ ميللر بروز، "مخطوطات البحر الميت"، ترجمة محمود العابدي، عمان، ١٩٦٧.

انظر أيضا المراجع الأجنبية التالية:

M. Burrows, "The Dead Sea Scrolls", 1956; "More Light on the Dead Sea Scrolls", 1958; S. Fritsch, "Qumran Community", 1956; T., Gaster, "Scriptures of the Dead sea sect", 1957; J. Allegro, "The Dead sea Scrolls", 1958; "The eople of the dead sea scrolls, 1959; J.A. Sanders, "The dead Sead Sea Pslams Scroll", 1967,

٢٥- W.J. Fischel, "The Jews of Kurdistan" a Hundered years ago", pp.205, 215-216; J.H. Gotfheil, "The Judea Aramic Dilect Salamas", Journal of the American Oriental soceity, 1893, XV.

٢٦- ليون ابارهام "المفهوم المادي للمسألة اليهودية"، الترجمة العربية، ص٣١.

٢٧- هاسكالا Haskala، كلمة عبرية معناها "الاستنارة والتقدم" وهي الحركة التجددية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في حياة اليهود الاجتماعية في شرق أوروبا، وقد استهدفت هذه الحركة إعادة النظر في تفسير مبادئ الديانة اليهودية لجعلها اكثر ملائمة لظروف العصر والبيئة.

٢٨- نجدت فتحي صفوة، "اليهود في روسيا القيصرية من الاندماجية إلى القومية، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، م٢، عدد ايلول، ١٩٧٣، ص١٠٧-١٧٣.

٢٩- مجلة مركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد، عدد كانون الأول ١٩٧٥، ص١٣٣، عن ابراهام ليون.

٣٠- نحمياء ٨ : ٨ :

٣١- عزراء ٤ : ٧.

٣٢- الدكتور حسن ظاظا، "الساميون ولغاتهم"، ص٩٠-٩١.

٣٣- انظر المقال التالي المنشور في مجلة "اوربيس" الدولية وفيه مجموعة من المراجع الخاصة بالموضوع والتي تؤيد قابلية تجديد العبرية:

Jack Fellman, "The Hebrew Language on the eve of its revival", Orbis Bulletin international de documentation linguistique, Tome XXIV, No.2., 1975, pppp.350-353.

٣٤- "The Jewish state", by Thedor Herzl, 4th edition, London: 1946, pp.70-71.

٣٥- "فجر الضمير"، الترجمة العبية، ص٣٧٣.

٣٥- "فجر الضمير"، الترجمة العربية، ص٣٧٣.

٣٦- سوبريوس يعقوب توما، "تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية"، بيروت ١٩٥٣، ص٦٤، ٨٠، ٩٨.

٣٧- D. Diringer, "Writing", 2nd ed., 1965, pp.118, 127.

الفصل الثالث

اليهود في جزيرة العرب

١ - تمهيد :

يقول عدد من الباحثين أن اليهودية في الجزيرة العربية قد انتشرت بطريق هجرة يهودية من فلسطين إلى الجزيرة العربية في الفترة الواقعة بين خراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد وإخراج هدريان لليهود من فلسطين عام ١٣٢م، وبعضهم يقول إن اليهود هاجروا إلى الجزيرة العربية منذ عهد النبي موسى عليه السلام، أي منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد. فيروي أهل الأخبار أن النبي موسى (ع) أرسل جيشًا إلى الحجاز لمقاتلة العمالقة فاستقر ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعماليق. ومما ورد ذكره أيضا أن داوود هاجر مع سبط يهوذا إلى خيبر وتملك هناك ثم عاد إلى إسرائيل.

وما هذه الأقوال وأمثالها إلا قصصًا كان يروجها اليهود في جزيرة العرب لإثبات وشائج القربى بين العرب واليهود وترغيب عرب الجزيرة في الأخذ باليهودية. وهكذا " فقد حسب أهل الأخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء، ومن سكان أعالي الحجاز، فزعموا أن تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة، وان اليهود قد سكنوها منذ زمن النبي موسى. وقد أخذ الاخباريون رواياتهم هذه من اليهود، وممن دخل منهم في الإسلام" . وهذه الأقوال مستمدة من التوراة والتلمود اللذين يؤكدان أن العرب واليهود ينحدرون من أصل واحد وان الاتصال ما بينهما قديم، وذلك " لاثبات أن اليهود ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم، وانهم كانوا ذوي بأس شديد، وان تاريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل وانهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين "[1] .

٢- التبشير باليهودية:

وقبل البحث في هذا الموضوع لا بد من إثارة نقطة مهمة، وهي أن الكثير من الباحثين يظن أن التبشير باليهودية كان مغلوقا منذ القديم وان اليهود الذين ظهروا في مختلف الأقطار ومنها الجزيرة العربية هم من اليهود الذين هاجروا من فلسطين. وهذا يخالف الواقع لان كل الدلائل تثبت أن رجال الدين من اليهود كانوا يتحمسون ويحرصون كل الحرص لحمل اكثر ما يمكن من الناس من مختلف الأقوام على اعتناق اليهودية والتبشير بها منذ أقدم العصور. وبعد ظهور المسيحية صاروا اشد حماسًا في التبشير بدينهم نتيجة للمنافسة بينهم وبين المبشرين المسيحيين مما أثار العداء الشديد الدامي بينهما واستمرت هذه المنافسة تلعب دورها حتى اغلق التبشير باليهودية في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد[٢]، في حين أن التبشير بالمسيحية استمر ولا يزال مستمرًا حتى هذا اليوم.

إن اليهودية دينًا لم تكن مقتصرة على قوم موسى، فقد انتشر الدين اليهودي بين مختلف الأمم والأجناس، وهذه الأمم اعتنقت الدين اليهودي وهي تعيش في ديارها وأوطانها تتكلم بلغاتها وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها، إذ بدأ التبشير بالدين اليهودي منذ تكوين الديانة اليهودية بعد كتابة التوراة، واستمر إلى العصور الوسطى حيث غلق باب التبشير به في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي كما تقدم. فقد قضى اليهود اكثر من عشرين قرنا يعملون بجد ونشاط لنشر ديانتهم بين شعوب وأمم لا تمت إلى قوم موسى (ع) بأدنى صلة وليست لهم علاقة بفلسطين أو سكان فلسطين لا من بعيد ولا من قريب. وهؤلاء الدعاة إلى الدين اليهودي لم يكونوا دائمًا من داخل فلسطين، بل ممن اعتنقوا الدين اليهودي وتحمسوا له، كما أن المسيحية لم تنتشر بوساطة سكان فلسطين وحدهم، بل بوساطة من اعتنقها من مختلف الأجناس والشعوب[٣]. وهكذا " ظلت اليهودية زمناً طويلا فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصا تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى "[٤].

فقد اعتنقت شعوب عديدة الدين اليهودي وهم في ديارهم وأوطانهم ولم يكونوا في وقت من الأوقات من سكان فلسطين، فانتشر هذا الدين في القارات الثلاث واعتنقته أمم متباعدة الأوطان مثل سكان اليمن والحبشة والجزيرة العربية وبلاد القوقاز (الخزر) وأواسط أوربا وبلاد المغرب وشعوب مختلفة في الدولة الرومانية وفي الأقطار المجاورة لها. هذا إلى جانب العناصر التي دخلت في اليهودية بطريق الزواج. وقد اعتنق اليهودية كثير من الجماعات التي جاء بها الآشوريون من مختلف أنحاء الإمبراطورية الآشورية إلى فلسطين ليحلوا محل اليهود الذين أبعدوا إلى كردستان والى بلاد مادلي واندمج بعضهم في اليهودية، وربما كان خير من يمثلهم اليوم اليهود السامريون الذين يعيشون وسط العرب وفي رعايتهم في مدينة نابلس(٥).

إن اليهودية والمسيحية كلتاهما ظهرتا في الجزيرة العربية قبل الإسلام في ظروف متشابهة وسط عالم يدين بالوثنية، والاثنتان انتشرتا في العالم عن طريق التبشير وبخاصة عن طريق اعتناق رؤساء مجتمعات تلك العصور، وأحسن مثال نورده في هذا الباب اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادي واعتناق أبى كرب ملك اليمن لليهودية في القرن الخامس الميلادي، فأجبر الأول شعبه على اعتناق المسيحية والثاني اجبر شعبه على اعتناق اليهودية، وقد تم ذلك في زمن متقارب تقريبًا بحيث قد يصح اعتبار وقوع الحدثين في عصر واحد. وبنفس هذه الطريقة انتشرت اليهودية في الخزر وفي شرقي أوروبا ثم المسيحية في كل العالم.

ففي تعليق على التبشير القديم باليهودية يقول المؤرخ باركس في كتابه "تاريخ الشعب اليهودي" : "انه لمن الخطأ الاعتقاد بأن اليهود لم يقصدوا التبشير باليهودية أو لم يقبلوا التمذهب بالدين اليهودي"(٦). وفي انتشار اليهودية في البلاد الرومانية يقول كاوتسكي (Kautsky) ففي بداية العصر المسيحي تعاظمت أهمية الارتداد نحو اليهودية، كان من المغري بالنسبة للكثيرين أن ينضموا إلى المجموعة التجارية المزدهرة الواسعة، ومنذ عام ١٣٩

قبل الميلاد طرد اليهود من روما لتهويدهم بعض الرومان، وفي أنطاكية كان المتهودون يشكلون القسم الأكبر من الطائفة اليهودية "[٩]. وقد عمل اليهود على التبشير باليهودية بين الناس في روما بحيث صار اعتناق اليهودية خاصة في النصف الأول من القرن الأول الميلادي (مودة) العصر وكثر اعتناق اليهودية إلى الحد الذي اجبر الإمبراطور نيرون ان يصدر أمرًا بمنع اليهود من التبشير بدينهم أو اعتناق اليهودية وآمن باليهودية الرعية حتى زوجة نيرون نفسه[٨].

٣- اليهودية في جزيرة العرب:

عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها فلبسوا لباسهم وتكلموا لغتهم وتصاهروا معهم، فتزوج اليهود عربيات، وتزوج العرب يهوديات، والفرق الوحيد الذي كا ن بين العرب واليهود هو اختلاف في الدين. وقد تمتع اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد[٩]. ومما لا شك فيه أن ذلك ما يؤيد كون اليهود في الجزيرة العربية عربا متهودين لا يهود مهاجرين، اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير، لان العصبية العربية تقيم حاجزا يحول بين زواج اليهود أو أي عنصر غير عربي بالعربيات كما هو معروف. وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي: "ولعل كون اليهود في الجزيرة من اصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس.[١٠]

ومما يجدر ملاحظته في هذا الصدد أن اليهودية التي اعتنقها عرب الجزيرة كانت أشبه بحزب قبلي منها بدين له أصوله وأبعاده كدين يهود فلسطين، إذ كان مجرد اعتناق أحد رؤساء القبائل أو البطون أو الافخاذ يؤدي تلقائيا إلى تهود اتباع ذلك الرئيس أو الزعيم. فقد كانت هذه القبائل تعقد الأحلاف مع بقية القبائل غير المتهودة على الطريقة المتبعة منذ القديم بين القبائل العربية في الجزيرة محافظة على نفس عاداتها وتقاليدها وأعرافها وثقافتها وقوميتها العربية، ولم يعرف هؤلاء العرب المتهودون من اليهودية غير بعض

عبارات عبرية يحفظونها على ظهر قلب ويرددونها دون أن يفهموا معناها عند الصلاة. ولم يكن لهم أية صلة تربطهم بيهود فلسطين غير الاتصال التجاري الذي كان يمارسه اليهود في اكثر بلاد العالم وزيارة بعض أحبار يهود فلسطين ممن كانوا يحسنون اللغة العربية لان يهود فلسطين كانوا يتكلمون ما بينهم باللغة الآرامية في ذلك الزمن.

وذكر العلماء أيضًا أن البعض من الأنصار قبل الإسلام كان مسترضعا في بني قريظة (من يهود يثرب) وغيرهم من اليهود، فتهودوا، وان من الأنصار كان يرى في الجاهلية أن اليهودية افضل الأديان، فهودوا أولادهم، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه، فنزل الوحي بالآية الشريفة: "لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي"[١١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد خير أصحابكم فان اختاروكم فهم منكم، وان اختاروهم فهم منهم،"[١٢] فقد كان إذن بين يهود جزيرة العرب، عرب دخلوا في دين اليهود.[١٣]

وتدل كل المدونات التاريخية المتوافرة أن اليهودية كانت في العصر الجاهلي منتشرة بين القبائل العربية بوجه عام (في الحجاز وفي اليمن وفي نجد وفي الحيرة وغيرها). ويفهم من روايات الإخباريين أن يهود الحجاز وبخاصة يهود مدينة يثرب كانوا قبائل وعشائر وبطونا منهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو عكرمة، وبنو محمر، وبنو زعورا، وبنو زيد، وبنو الشطية، وبنو جشم، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو القصيص (العصيص)، وبنو ثعلبة[١٤]. وكان يسكن معهم من غير اليهود بطون من العرب منهم: بنو الحرمان حي من اليمن، وبنو مرثد حي من بلي، وبنو نيف وهم من بلي أيضًا، وبنو معاوية حي من بني سليم، وبنو الشذية حي من غسان. وظل اليهود أصحاب يثرب حتى جاء الاوس والخزرج فنزلوها، وورد في الأخبار انهم جاؤوا بعد حادث سيل العرم التماسًا لوطن صالح جديد، وانهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة استغلوا الخلافات بين اليهود فتغلبوا عليهم

وسيطروا على المدينة وقسموها فيما بينهم، فلم يبق يومئذ لليهود عليها سلطان.[١٥]

ويلاحظ مما تقدم انه كان بين قبيلة بني الشظية من تهود كما أن هناك ما يدل على أن بعض قبيلة بني حشنة بن عكارمة وهم من بلي "قتلوا نفرًا من بني الربعة، ثم لحقوا بتيماء فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم، فتهودوا، فأدخلوهم المدينة، فكانوا معهم زمانًا، ثم خرج منهم نفر فاظهر الله الإسلام، وبقية من أولادهم بها"[١٦].

ويذكر ياقوت ان بليّ بلدة بين الشام والمدينة يمر حاج الشام وهي كانت قديما منازل ثمود وعاد وبها أهلكهم الله وآثارها إلى الآن باقية ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كظايمها واساحوا عيونها وغرسوا نخلها فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفًا وكان لهم فيها على اليهود طعمة واكل في كل عام ومنعوها لهم على العرب ودفعوا عنها قبائل قضاعة.[١٧]

والظاهر أن المقصود هنا تيماء حيث يصفها ياقوت بقوله أنها بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق والابلق الفرد حصن السموال بن عادياء اليهودي مشرف عليها فلذلك كان يقال لها "تيماء اليهودي"[١٨].

٤- اصل يهود الجزيرة:

لقد ذهب اغلب المستشرقين استنادًا إلى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الإسلام، إلى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهود حقا، بل كانوا عربًا متهودين تهودوا بتأثير الدعاة اليهود[١٩]. ويرى نولركة انه ليس بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر التي كانت في الحجاز في أيام ظهور الإسلام اسم يظهر عليه الملامح العبرانية غير اسم واحد وهو زعورا[٢٠].

ويرى اوليري احتمال كون بني قينقاع من اصل عربي متهود أو من بني ادوم.

وينكر اليعقوبي وجود طوائف أصلية يهودية أي يهود هاجروا من فلسطين في الجزيرة العربية قبل عصر الإسلام، فيؤكد أن القبائل اليهودية هناك كانت من اصل عربي، إذ يقول في وقعة بني النضير أن بني نضير فخذ من جذام إلا انهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسمّوا به، وفي وقعة بني قريظة يقول بأن بني قريظة فخذ من جذام آيضًا أخوة النضير، ويروي أن تهودهم كان في أيام عادياء بن السموال ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه .[٢٢] ويؤيد ذلك ياقوت الحموي في معجمه، فيقول أن يهود بني قريظة وبني النضير كانوا من قبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى أخرجهم الاوس والخزرج من الأنصار من المدينة [٢٣] . ومن قبائل جزيرة العرب المتهودة التي أورد ذكرها القاضي صاعد الأندلسي قبائل بني حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة.[٢٤]

كما يذكر اليعقوبي أن قومًا من بني الحارث بن كعب وقومًا من غسان وقوماً من جذام قد تهودوا[٢٥] . وقد ورد عن المستطرف قوله أن الدين اليهودي انتشر في قبائل من العرب في نمير وبني كنانة وبني الحرث بن كعب وكندة. وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث بعد الميلاد انهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية(ويقصد بذلك يهود من فلسطين) ويقولون إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهود حقا إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما .[٢٧] وكان العالم شير يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة، كانت يهودية في اساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمدي[٢٨] .

ويرى بعض المؤرخين اليهود جزيرة العرب كانوا في معزل وانفصال عن بقية أبناء دينهم منعزلين عنهم انعزالا تاما، لذلك لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين اليهود .

وهذا إن دل على شيء إنما يدل على انعدام الصلة القومية بينهم وبين يهود فلسطين. ففي ذلك يقول الدكتور ولفنسون: "إن ثمة مراجع عبرية غير قليلة عن حياة اليهود في العراق والفرس ومصر واليونان والرومان، أما يهود الجزيرة العربية فلا نكاد نجد مؤلفات عبرية عنهم إلا شيئًا ضئيلاً جدًا لا يتجاوز بضعة نصوص اندمجت في بعض الكتب اندماجًا عرضيًا غير مقصود، ولكننا نستطيع ان نستنتج من هذه الناحية نفسها نتيجة ذات شان، وهي ان سكوت المراجع الإسرائيلية عن سرد حوادث اليهود في الجزيرة العربية يدل دلالة قاطعة على أن اليهود في بلاد العرب كانوا منقطعين تمام الانقطاع عن بقية أبناء جنسهم(والأصح أن يقال إخوانهم في الدين) في جهات العالم ولم تكن لهم بهم أية صلة.

ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى. فاكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص، هي أسماء عربية، والشعر المنسوب إلى شعراء منهم، يحمل الطابع العربي، والفكر العربي. وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية، لم يكونوا يختلفون عن العرب، فهم في اكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين "[٣٠]. "وهذا الشعر المنسوب إلى اليهود، لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين الوثنيين، ولا نكد نلمس فيه أثرا لليهودية، فألفاظه عربية صافية نقية مثل ألفاظ أهل الجاهلية وأفكاره على نمط أفكار الجاهليين. ويصعب أن نجد فيه أثرا للتوراة والتلمود"[٣١].

٥- يهود الجزيرة والتلمود:

ومن المهم ذكره في هذا الصدد ان عرب الجزيرة المتهودة لم تلتزم بالتلمود لان بعض هذه القبائل قد اخذ باليهودية قبل أن يكون قد استكمل إنجازه، ثم كان انعزالهم في الجزيرة قد جعل الاتصال بينهم وبين المدارس

التلمودية التي أسسها الاحبار اليهود في فلسطين وفي بابل (والفريق الأخير من بقايا السبي البابلي) متعذراً. لذلك فقد وجد بعض يهود الجزيرة بعد إجلائهم من الجزيرة العربية في عهد الخليفة عمر (رض) في حركة القرائين بزعامة عنان بن داود أحد علماء يهود العراق التي تناهض التلمود وتدعو للاكتفاء بالتوراة[٣٢] ما يتفق ومعتقد القبائل العربية المتهودة، وهو معتقد متأثر بالبدوية التي لا تتقبل التعاليم المتزمتة التي يدعو إليها التلمود، فانضم أكثرهم إلى هذه الفرقة[٣٣].

٦- يهود الجزيرة في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

وكانت المستوطنات اليهودية في الجزيرة العربية تمتهن الزراعة وكان بعضهم في يثرب يمارس صناعة الحدادة والمجوهرات، ولما هاجر الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة حرص على تحقيق الوحدة بين القبائل العربية وازالة ما كان بين اهل المدينة قبل الإسلام من الفرقة بإبطال حروبهم ومنازعاتهم حتى يسود الاخاء بينهم جميعًا، وتحقيقًا لذلك كتب كتابا جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، انهم أمة واحدة من دون الناس... وان من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وان يهود بني عوف آمنة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم واثم، فانه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته وان يهود بني النجار ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطية مثل ما ليهود بني عوف. وان موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وانه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم[٣٤].

يتضح مما تقدم إن الذي كان يفرق بين الأمة الواحدة هو الدين وحده، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يرمي من وراء كتابه المذكور تحقيق الإخاء بين الجميع وان لا يكون الدين سببًا في الفرقة بين القبائل ذات القومية الواحدة (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم). والدليل على أن القبائل المتهودة عربية الاصل انه كان من بين قبليتي الأوس وبني الشطية العربيتين من تهود قبل الإسلام كما جاء في الكتاب المذكور. وقد أيد اليعقوبي تهود بعض منتسبي الأوس والخزرج بعد نزوحهم من مواطنهم إلى يثرب قال: "وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير "[٣٥].

وفي رواية للمؤرخ اليهودي يوسفوس فلافيوس الذي عاش في القرن الأول للميلاد أن اليهودية قد وجدت لها سبيلا بين العرب. وكان اليهود ينشرون بين العرب الأخبار القائلة بأنهم من نسل إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام وانهم من ذوي رحمهم، ولهم بهم صلة قربى. وكانوا يرجون لذلك دخولهم في دينهم واعتناقهم دين إبراهيم جد اليهود والعرب وقد عملوا على تهويد أولئك العرب. كما جاء في مواضع من التلمود أن نفرا من العرب دخلوا في اليهودية، وانهم جاؤا إلى الاحبار فتهودوا أمامهم[٣٦].

٧- قبيلة بني ركاب اليهودية:

وهناك ما يؤكد أن القبائل المتهودة في الجزيرة حافظت على تقاليدها العربية من غير ان تندمج باليهود خارج الجزيرة، فيروي بنيامين التطيلي الذي دون رحلته في القرن الثاني عشر الميلادي عن وجود قبيلة عربية متهودة في جزيرة العرب تدعى قبيلة بني ركاب اقتبست الدين التوحيدي دون أن تندمج باليهود، بل ظل أفراد هذه القبيلة محتفظين بتقاليدهم العربية التي ورثوها عن أجدادهم، فيقول فيهم: [٣٧] "وفي هذه الصحراء (الصحراء بين ارض ال يمن والعراق) مضارب بني ركاب من عشائر تيماء. وفي تيماء يقيم شيخهم

وحاكمهم الكبير حنان، وهي صقع واسع الأرجاء، امتداده مسيرة ستة عشر يوما بين الجبال الشمالية. وفيها القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لأية سيطرة أجنبية. وأهلها يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم من أبناء العرب للغزو والكسب في الأماكن البعيدة. وهؤلاء الأعراب يعيشون عيشة بدوية، يبيتون في الخيام، لا يعرفون بناء البيوت، دأبهم الغزو في أراضي اليمن". ويعتقد أن بني ركاب قبيلة مديانية أو قينية[٣٨] خالطت العرب المتهودين في الجزيرة واقتبست عنهم معتقدهم وتوحيدهم. ورد ذكر هذه القبيلة في مواضع عديدة من التوراة فكانت تنتسب إلى جدها الأكبر "يونداب بن ركاب" (جندب)[٣٩]، ولكن أفراد هذه القبيلة لم يندمجوا باليهود بل ظلوا محتفظين بتقاليد خاصة وتعاليم ورثوها عن أجدادهم. فكانوا على ما وصفهم النبي ارمية: لا يبنون بيتا ولا يزرعون زرعا ولا يغرسون كرما ولا يشربون خمرًا أو مسكرًا وكانوا يسكنون في الخيام[٤٠]. جاء عنهم في قاموس الكتاب المقدس (الطبعة القديمة) مانصه: "ويروى عن حالتهم الحاضرة بعض أخبار مفيدة للغاية. فانهم لا يزالون يقطنون في بلاد جبلية في المنطقة الحارة إلى الشمال الشرقي من المدينة، ويعرفون ببني خيبر وأرضهم تدعى خيبر. وليس لهم علاقات مع اخوتهم اليهود المشتتين في آسية الذين يعتبرونهم اخوة كاذبين لانهم لا يحافظون على الشريعة. ولا يمكنهم أن يرافقوا القوافل لان ديانتهم لا تسمح لهم بالسفر يوم السبت مع أن بلادهم محاطة بالصحارى حتى يكاد لا يمكن الدخول إليها أو الخروج منها إلا مع القوافل". ويقدر الرحالة وولف عدد الركابين بجوار مكة بنحو ٦٠٠٠٠ نسمة[٤١]. ويقال انه لا يزال بقية منهم إلى الآن في العراق واليمن ويعرفون ببني خيبر[٤٢].

والغريب أن "قاموس الكتاب المقدس قد أورد في طبعته الجديدة (ص٤١٠) ما نصه: "ولما غزا نبوخذ نصر اليهودية هرب الركابيون إلى أورشليم طلبا للنجاة". نحن لا ندري على أي استناد أورد هذا الكلام الذي يجعلنا نتساءل: هل غزا نبوخذ نصر الجزيرة العربية؟... إن المعلوم من

المصادر التاريخية ان نبوخذ نصر غزا أورشليم وسبا اليهود إلى بابل. فهل هرب الركابيون من الجزيرة العربية ليصطادهم نبوخذ نصر في أورشليم ويضمهم إلى إخوانهم المسبيين؟. وهل كان هناك موضع آمن واكثر سلامة من الجزيرة العربية المنعزلة في مثل تلك الظروف؟. ويبد أن المقصود من هذا الكلام المضاف في الطبعة الجديدة ربط صلة يهود الجزيرة بيهود فلسطين، الصلة التي طالما رددها الباحثون اليهود، على الرغم من قاموس الكتاب المقدس (الطبعة الجديدة ذاتها) يعترف بأن ليس للركابيين صلة تربطهم بأخوانهم اليهود المشتتين في آسيا.

٨- يهود خيبر:

وقد اشتهر يهود خيبر بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم، وخيبر غنى بمياهه، وقد اشتهر بزراعته وبكثرة نخيله. وعند اجلاء اليهود عن خيبر تفرقوا فذهب بعض منهم إلى العراق وبعض آخر إلى الشام وبعض منهم إلى مصر[٣٤]. كما اشتهر أهل خيبر بما أقاموه من حصون تحميهم من غارات الأعداء عليهم منها سبعة حصون، وقد اجلوا عن بلدهم في زمن الخليفة عمر (رض) (١٣-٢٣هـ/ ٦٤٣-٦٤٤م).

وأقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر هي تلك التي عثر عليها في (حران اللجاة) ترجع إلى سنة ٥٦٨ للميلاد. وقد وجدت كتابات المسند وكتابات نبطية في خيبر، هي أقدم عهداً من نص (حران اللجاة) يفهم منها بوجود سكن في هذه الارضين يعود بعضه إلى ما قبل الميلاد[٤٤].

ولم يقتصر وجود القبائل العربية المتهودة على الحجاز بل وجدت في اليمن أيضًا كما سيأتي بحث اليهودية في اليمن. وقد وجدت أيضًا في الحيرة وكان لها بعض الشأن فيها[٤٥].

٩- صلة يهود الجزيرة بفلسطين:

ومما يذكر في هذا الصدد أن البطون العربية المتهودة التي لم تكن لها عهود خاصة مع الرسول صلى الله عليه وسلم لما اجليت من جزيرة العرب لم يعرف أن أحدا من هؤلاء نزح إلى فلسطين ليكونوا بالقرب من هيكل سليمان مندفعين بالحماسة الدينية، فيقول الدكتور جواد علي في كتابه "تاريخ العرب قبل الإسلام" (٦ : ١٦١) ما نصه: "يلاحظ أن اليهود فضلوا الذهاب إلى أذرعات والى أماكن أخرى على الذهاب إلى القدس أو طبرية أو قيصرية أو غيرها من بلاد فلسطين، مما يدل على انهم لم يكونوا يفكرون قط في الإقامة في تلك الأماكن، وان قلوبهم لم تكن متعلقة بها، والا اختاروا الذهاب إليها، بل كانت أفئدتهم متعلقة بمواطنهم هذه التي كانوا يقيمون بها بالحجاز، وان اليهود كانوا يفضلون السكنى في المواطن التي نشأوا فيها على الذهاب إلى فلسطين".

وهذا كله لا يلتئم أو يتفق مع ما ذهب إليه بعض الباحثين من ان يهود الجزيرة قد جاؤا من فلسطين اثر إجلائهم منها في عهد الرومان، وذلك بغية تأكيد صلة القربى بين العرب واليهود، الصلة التي انفردت بذكرها التوراة ثم أيدها التلمود. لان ذلك لا ينسجم مع سنة الطبعية، فالهجرة لا تتم من البيئة المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب، بل العكس هو الصحيح والطبيعي. وللمستشرق وينكلر رأي في هذا الموضوع، خلاصته: إن أولئك اليهود لو كانوا يهود حقا هاجروا من فلسطين إلى الجزيرة العربية لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كان عليه يهود الجزيرة العربية. إذ كانت حالة يهود فلسطين أرقى وأرفع من الحالة التي كان عليها هؤلاء اليهود، فلا يعقل، على رأيه، بلوغ جماعة إلى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي المدني أرقى من مستوى من هودونهم كثيرا في شؤون الحياة. ومستوى الحياة في جميع نواحيها في فلسطين، أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن

التي وجد فيها اليهود من بلاد العرب. فهم على رأيه عرب متهودون لا يهود مهاجرون[٤٦].

والحقيقة هي أن اليهودية والمسيحية كانتا تتزاحمان بينهما على تهويد أو تنصير القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام، فتوجه المبشرون من اليهود والمسيحيين نحو جزيرة العرب، حيث وجدوا القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام متهيأة نفسيًا لتقبل دين التوحيد. لذا كان نشاط التبشير ين عرب الجزيرة على أشده بحيث تمكّن المبشّرون المسيحيون من تنصير بعض القبائل كما استطاع الاحبار اليهود من تهويد البعض الآخر. فهل انتشرت المسيحية بين القبائل العربية نتيجة هجرة مسيحيين من فلسطين؟. وهل كان يهود الخزر قد جاؤوا من فلسطين؟. وهل كانت قبائل البربر في المغرب العربي التي أخذت باليهودية قبل الإسلام، مثل قبيلة جراوة التي سكنت جبل أوراس، وقبائل أخرى وهي نفوسة، وفندلاوة، ومدينوة وبهلومة، وغياثة، وبنو بازار، التي يحدثنا عنها ابن خلدون في كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر" من يهود فلسطين؟ [٤٧] وهل كان عرب بني حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة الذين اخذوا باليهودية قبل الإسلام والذين يحدثنا عنهم ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ/ ٨٢٨-٨٨٩م) والقاضي أبو القاسم صاعد (٤٢٠-٤٦٢هـ/ ١٠٢٩-١٠٦٩م) من يهود فلسطين؟ [٤٨] وهل كان الفريق المتهود من الاوس والخزرج من يهود فلسطين؟[٤٩] اذن لماذا لا يزال بعض الكتاب يأخذ بالرأي القائل بان الجزيرة العربية قد انفردت من بين كل بلاد العالم التي تم فيها التبشير باليهودية بهجرة يهود فلسطين إليها؟..

إن السبب واضح وهو أن الكتاب اليهود كانوا يروجون مثل هذه الأقاويل ويتقصدون إشاعتها بين الناس ليربطوا صلتهم بالجزيرة العربية وبالعرب على اعتبار انهم أبناء عمومة مع العرب وان جدهم واحد هو إبراهيم الخليل عليه السلام. في حين إن الواقع أن اليهودية ديانة اعتنقتها أقوام كثيرة من مختلف القوميات والأجناس منهم العرب في الجزيرة الذين حافظوا على

قوميتهم ولغتهم وعاداتهم ولم يفرق بينهم وبين مجاوريهم من القبائل العربية غير الدين[٥٠]، شأنهم في ذلك شأن الأقوام الأخرى التي أخذ بعض أهلها بالديانة اليهودية عن طريق التبشير والاقتباس.

ويرى اكثر الباحثين أن اليهود تعمدوا نشر قصص التوراة والتلمود القائلة بوجود وشائج قربى بين العرب واليهود لأسباب سياسية ودينية وأنها في حقيقة الأمر دسيسة لفقها اليهود للعرب تزلفا إليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والالفة بينهم. فيقول هؤلاء العلماء: "... إن هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة إذ لوحظ عليهم كثيرا انهم متى رأوا المصلحة في التودد إلى قوم قالوا لهم انتم إخواننا ونحن وانتم صنوان... وظلوا منذ ذلك العهد إلى ظهور الإسلام وهم يبذلون جهدهم في اشراب العرب عقيدة انهم جميعا ذرية أب واحد حتى نجعت فيهم هذه الأكذوبة التي كان العرب اجهل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق[٥١].

وفي ذلك يقول الأستاذ سليمان ناجي في كتابه "المفسدون في الأرض"[٥٢]: "لقد عمد اليهود في شبه الجزيرة العربية إلى نشر الخرافات والأكاذيب بين أهلها ولم يحجموا عن دعوة أهلها لاعتناق المذهب اليهودي بحجة انهم والعرب من اصل واحد، أي أحفاد سام بن نوح (وهذا الزعم المأخوذ من سفر التكوين يفتقر إلى الدليل والبرهان ويخالف نظريات علم الأجناس). وبغية ترسيخ جذور هذا الادعاء الباطل في أذهان العرب، زعموا أن العرب المستعربة تناسلوا من ثابت وقيدار حفيدي إسماعيل، ويبدو أن العرب صدقوا هذا الزعم، فأخذ كتّابهم أمثال ابن الأثير وأبى الفداء وابن خلدون يثبتونها في مؤلفاتهم وينسجون من حولها القصص، وكأنها أمور ثابتة بالدليل والبرهان، وفي الواقع لم يكن أحدهم يملك أي مصدر قديم يعتمد عليه أو برهان يقدمه، إلا ما ورد عن ذلك في سفر التكوين، وما تناقلته الألسن من القصص التي أشاعها اليهود، فلو كان لهذه المزاعم بعض الحظ من الصحة لكان من المفروض بالمصادر المصرية والآشورية والكلدانية أن تشير

إليها ولو بكلمة ما، أما أن نثق بها لمجرد أنها وردت في التوراة، هذا المصدر اليهودي الذي أجمع النقاد على أنه كتب في القرن السادس قبل الميلاد ومن قبل مئات الاقلام، فذلك يعني الانسياق الأعمى وراء الأضاليل اليهودية والاستخفاف بالمميزات الخيرة التي أنعمها الله عز وجل علينا كالعقل والبصيرة والمنطق السليم، كما أن التدليل على وحدة المنحدر العرقي بين العرب واليهود لما بين لغتيهما من التشابه والتقارب باطل أصلا، لأن أكثر المكتشفات الحديثة، أثبتت إن اليهود تعلموا اللغة الكنعانية القريبة من اللغة العربية بعد أن تمركزوا في فلسطين، وهذا يعني صراحة انهيار نظرية المنحدر المشترك التي تورط فيها الكتاب العرب. . . ونرى من ناحية ثانية أن اختلاف العادات والتقاليد بين العرب واليهود، يشكل بحد ذاته عنصراً أساسيًا في دحض نظرية المنحدر المشترك، هذا الخلاف الذي تؤكده التوراة بما تنسبه لاصحابها من العادات والتقاليد التي يندى لذكرها الجبين، والتي لا يمكن أن تتفق مع ما عرف عن العرب من التمسك بالفضائل والمكارم عبر التاريخ. . ويظهر جليا مما سبق ذكره عقم نظرية المنحدر المشترك، ولكن ما حيلتنا فالقضية أصبحت شبه مسلم بها بها لما مر عليها من الزمن الطويل ولما أحاط بها من التباس وغموض مفتعلين ومقصودين".

إن الملجأ الطبيعي الذي كان يمكن ليهود فلسطين أن يلجأوا إليه بعد اضطهاد الرومان لهم هو العراق وليس الجزيرة العربية، إذ كان في العراق آنئذ عدد كبير من بقايا اليهود المسبيين في منطقة بابل حيث كانوا يتمتعون بحكم آنئذ واصبح الكثير منهم أصحاب ثراء ونفوذ، وكان هؤلاء والفرس على وفاق ووئام ضد الرومان في اكثر الأحوال باعتبار الرومان عدوا مشتركا. فقد كانت هناك إمارة حدياب اليهودية التي حكمت في منطقة آشور بين سنة ٣٦ وسنة ١١٥ للميلاد قائمة عندما طرد اليهود من فلسطين سنة ٧٠ للميلاد على عهد طيطوس. وقد كانت هذه الإمارة موالية لحكم الفرثيين المسيطرين على المنطقة بأسرها. لذلك كانت تتمتع بالإسناد من ملوكهم وقد لعبت دورا رئيسا في

العلاقات السياسية والعسكرية في الشرق الأدنى، فغذت بموافقة الفرثيين وتأييدهم ثورة اليهود على الرومان بين سنة ٦٦ وسنة ٧٠ للميلاد كما كانت هي بدورها تسند الفرثيين في حروبهم مع الرومان [٥٣]. والثابت أن كبار رجال الدين من اليهود ومن بينهم أعضاء السنهدرين (المجلس الديني اليهودي الأعلى) انتقلوا بعد اضطهاد الرومان لليهود من طبرية إلى العراق حيث أسسوا مدارسهم الدينية الكبرى التي وضعت التلمود البابلي. فهل كان ما يحول دون لجوء اليهود المضطهدين إلى الجهة ذاتها؟ إن من المحتمل أن يكون قد لجأ بعض اليهود إلى بلاد أخرى غير العراق ولكن لا يحتمل أن تكون الجزيرة العربية من بينها للسبب الطبيعي الذي مرّ ذكره، وهو ان الهجرة لا تتم من البيئة المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب، بل العكس هو الصحيح.

إن بدوي الصحراء، الرقيق الإحساس، المجبول على الفطرة والخيال الذهني والتعلق الروحي، لم تعد نفسيته تتقبل عبادة الأصنام، لذا فقد كان عرب الجزيرة قبل الإسلام في حالة صراع نفسي ديني شديد المحك بين الوثنية من جهة وبين اليهودية والمسيحية اللتين تدعوان إلى التوحيد من جهة أخرى، وقد كان دين إبراهيم الخليل (ع) معروفًا في الجزيرة العربية عند الحنفاء كما ينبئنا القرآن الكريم، فاستمر هذا الصراع حتى نزل الوحي على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، حامل رسالة الإسلام إتماما وامتدادا لرسالة إبراهيم عليه السلام، فتقبلتها الجموع ببالغ الحماسة وعميق الإيمان ودخلوا فيه أفواجا، وان الأنبياء والرسل يظهرون عادة بوحي من الله في مثل هذه الظروف القلقة التي كانت سائدة في أرض الجزيرة العربية وهي بأشد الحاجة إلى من يوجه الناس إلى الصراط المستقيم.

يتضح مما تقدم أن عرب الجزيرة المتهودة لم تربطهم بفلسطين أية رابطة لغوية أو قومية، إذ كان يهود فلسطين وهم من عناصر مختلطة يتكلمون ما بينهم باللغة الآرامية، في حين أن لغة عرب الجزيرة هي اللغة العربية. لذلك إن أعراب الجزيرة العربية المتهودين لم يختلفوا من حيث قوميتهم ولغتهم

وعاداتهم عن إخوانهم عرب الجزيرة بغير الدين الذي اعتنقوه عن طريق التبشير، وهم في ذلك مثل جماعة الخزر المتهودة التي حافظت على لغتها وقوميتها وعاداتها وتقاليدها، ومثل جماعة نجران المتنصرة وقد حافظت على لغتها وقوميتها وعاداتها، ومثل قبائل البربر التي أخذت باليهودية وقد حافظت على لغتها وتقاليدها. ولا يخفى ان المسيحية في زمن ظهورها بعد السيد المسيح لم تكن إلا امتداداً لليهودية باعتبارها فئة منها منشقة عليها. وهكذا فقد كانت كل من الفئتين، اليهودية والمسيحية، تسعى لاجتذاب الناس من مختلف الأقوام إليها. هذا مع العلم أن التبشير باليهودية قد أُغلق منذ منتصف القرن الثالث عشر بعد الميلاد في حين أن التبشير بالمسيحية استمر ولا يزال مستمراً حتى هذا اليوم. وقد سبق تأكيد هذه الناحية في مستهل كلامنا عن التبشير باليهودية[٥٤].

١٠ - اليهودية في اليمن:

تؤيد لنا الأخبار النصرانية والأخبار الإسلامية أن اليهودية كانت قد وجدت في اليمن منذ زمن بعيد، والاعتقاد الغالب أن يهود اليمن من أصل عربي، وقد طمست أخبارهم بسبب الفتح الحبشي للبلاد العربية الجنوبية واضطهاد من كان على اليهودية، ويُعتقد أن اكثر يهود اليمن اضطروا إلى الفرار من اليمن إلى الخارج بعد فتح الأحباش لها في القرن الرابع للميلاد وقد دخل قسم منهم، ممن فضلوا البقاء في اليمن، في النصرانية خوفًا ومحافظة على أنفسهم وأموالهم. وبعد أن طرد الأحباش من اليمن لم يستطيع اليهود استعادة مركزهم السابق، ولهذا لم نجد لهم ذكرا وشأنا عندما ظهر الإسلام كما كان أمر يهود يثرب شمال الحجاز، إلا أن اليهودية، وان ضعفت في اليمن بعد ذلك. فإنها بقيت محافظة على كيانها وقائمة في هذه البلاد في الإسلام إلى أن اجلاهم عمر بن الخطاب مع نصارى نجران، أما اليهود الذين غادروها اثر حوادث فلسطين الأخيرة[٥٥] فيظهر انهم دخلوا اليمن بعد ذلك.

وقد استغل قياصرة الروم انتقال المسيحية إلى الحبشة سياسيا بعد ان أصبحت المسيحية الديانة الرسمية في بلاد الحبشة وارتبطت بصلات روحية مع القسطنطينية، وأخذوا يحرضون الأحباش على فتح البلاد العربية الجنوبية لما في هذا الفتح من انتصار كبير لسياسة الروم على الفرس من جهة ولما فيه من مكاسب في استثمار التجارة على البحر الأحمر. وهكذا فقد تم للحبشة ان احتلت بلاد اليمن في أيام حكم (الاعميدا) سنة ٣٤٠ للميلاد وأصبح النجاشي يلقب بلقب "ملك اكسوم وحمير وذو ريدان وحبشت وسله وتهامه". وقد دام هذا الاحتلال خمسا وثلاثين سنة حتى استرد اليمانيون حكم بلادهم سنة ٣٧٥ للميلاد حيث تمكنوا من طرد الأحباش واعادة عرش سبأ إلى أحد أبنائها مرة أخرى واسمه (ملك كريب يوهنعم) وقد أشار إلى هذا الحادث نقش عربي قديم عُثر عليه في مأرب. وفي خلال فترة الاحتلال الحبشي نصّر الأحباش اكثر سكان العربية الجنوبية ففتحوا الأبواب لدخول المبشرين واكثروا من بناء الكنائس التي كانت تمولها القسطنطينية واغدقوا على المبشرين الهبات والعطايا للقيام بمهامهم التبشيرية.

وبعد طرد الأحباش من اليمن بقليل انتشرت اليهودية فيها فظهر اليهود فيها ظهورا واضحا، ويزعم الاخباريون إن التبع "تبان اسعد أبو كرب (٣٧٨-٤١٥م)، وهو الذي اشتهر قديما تحت اسم "أسعد الكامل آل تبع"، اهتدى إلى الديانة واليهودية عند اجتيازه بيثرب وهو عائد إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي إيران حيث قيل أن تهود على أيدي حبرين من بني قريظة اسمهما كعب وأسد، ومنذ ذلك الحين صارت اليهودية ديانة البلاد الرسمية.

وتحمل بعض روايات الاخباريين اسم هذا التبع "تبع بن حسان بن اسعد الحميري" وهو "تبع الاصغر" أو أبو كرب بن حسان بن أسعد الحميري، وتزعم ان حبرين من أحبار اليهود من بني قريظة عالمين راسخين في العلم هما اللذان هديا المتبع إلى اليهودية وابعداه عن عبادة الأوثان" [٥٦].

ومما ذكره اليعقوبي في صدد دخول اليهودية في اليمن قوله: "دخل قوم من العرب في دين اليهود ودخل آخرون في النصرانية، فأما من تهود منهم فاليمن بأسرها، كان تبع (ويقصد به التبع تبان أسعد أبو كرب) حمل حبرين من أحبار اليهود إلى اليمن فأبطل الأوثان وتهود من باليمن"[٥٧].

ويرى بعض العلماء أن أسباب ظهور الديانة اليهودية في اليمن وجعلها في عهد تبان اسعد في القرن الخامس للميلاد دين البلاد كان نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية والنصرانية تمكنت فيه الأولى أن تتغلب على الأخرى، ومع أن هذا الفريق يعترف ما للعامل الديني من أثر ظاهر في النضال المذكور، ولكنه يرجح أن الباعث الأصلي إنما هو سياسي قبل كل شيء، وهذا الباعث "هو أن ملوك الدولة الرومانية الشرقية بعد أن فرغوا من أمر الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية تأهبوا لضم أطرافها إلى إملاكهم فسلكوا لتنفيذ هذا الغرض طريقة سياسية محكمة حيث أرسلوا وفودا من الرهبان إلى تلك البلاد وأمروهم أن يبثوا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ويمهدوا الأفكار والنفوس لقبول التسلط السياسي الروماني من جهة أخرى، فلما تنبه ملوك حمير لهذه الحيل وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسي من الخطر الشديد بسببها نشطوا لإحباطها وفكروا في أمضى الأسلحة التي تمكنهم من القضاء عليها فهداهم فكرهم إلى أن يعتقنوا الديانة اليهودية ليقاوموا دينا توحيديا بدين توحيدي آخر دون أن يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية أن تتسلط عليهم دولة ذات سلطان ونفوذ، إذ لم يكن لليهودية في ذلك العصر دولة سياسية في حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في فتح بلادهم. وهكذا قد قضوا باعتناقهم اليهودية على كل الحجج التي كان ملوك الدولة الرومانية الشرقية يعتمدون عليها في الترويج لدعوتهم السياسية وانقطعت الوسائل التي كانوا يتوسلون بها للتأثير في عقول أفراد الشعب وجماعته"[٥٨].

والمعروف أن الديانة اليهودية ظلت دينا رسميا لبلاد " العرب الجنوبية طيلة حكم السبأيين المتأخرين من سنة ٤٠٠ إلى سنة ٥٢٥ للميلاد، وآخر ملك يهودي يدعى " ذو نؤاس " ملك بين سنة ٥١٠ وسنة ٥٢٥ للميلاد، وبوفاته على أثر الاحتلال الحبشي الثاني انتهى تاريخ الأسرة السبأية اليهودية التي حكمت البلاد قرنا وربع قرن (٥٩).

يتضح مما تقدم أن اليهودية والمسيحية كانتا تتصارعان فيما بينهما، كل فريق يحاول أن يتغلب على الآخر، حتى كثيرا ما اشتبك أنصارهما في نزاعات دموية جعلت العربية الجنوبية في القرن الخامس للميلاد مسرحا لمذابح عقائدية عنيفة. فقد انتصرت المسيحية في بادئ الأمر بعضد وتحريض القياصرة لها حتى أصبحت العربية الجنوبية تحت حكم الأحباش في القرن الرابع للميلاد (٣٤٠-٣٧٨م) وصارت المسيحية الديانة الرسمية في الأقطار الخاضعة للحبشة بما فيها اليمن. وكان اليهود في هذه الفترة معرضين للاضطهاد مما ترك في نفوسهم الحقد والبغضاء مقرونين بحب الانتقام من منافسيهم المسيحيين الموالين للروم. فلما انقلب الوضع وعصفت يد الأقدار بالمسيحية وأصبحت اليهودية الديانة الرسمية في اليمن حاء الزمن الملائم لتلعب اليهودية دورها، ففي سنة ٥٢٢ وقيل سنة ٥٢٣ للميلاد شن الملك اليهودي ذو نؤاس حملة اضطهاد عنيفة نكل فيها بالمسيحيين، فهاجم نجران التي كانت اكبر مركز للمسيحية في اليمن وخيّر أهلها بين الارتداد عن دينهم واعتناق اليهودية أو الموت حرقا، فآثر البعض الموت فحضر لهم أخاديد احرقهم فيها وأحرق انجيلهم وقيل انه قتل بالسيف ما يقرب من عشرين ألفا. وقد ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم، إذ قال تعالى في سورة البروج: " والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد مشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ".

وقد كان حادث تعذيب نصارى نجران من أسباب إثارة غضب قيصر الامبراطورية الرومانية الشرقية فاتصل بنجاشي الحبشة وطلب إليه إرسال حملة إلى تلك الدولة اليهودية فأجاب طلبه وأرسل حملة بقيادة رجل يقال له "ارياط" ومعه "ابرهة"، فيذكر الطبري إن القوات الحبشية "نزلت على ساحل زبيد من أرض اليمن فخرج إليهم ذو نؤاس بمن معه من حمير وقبائل اليمن ودار القتال بين الفريقين، فانهزم ذو نؤاس هزيمة نكراء وقتل عدد من رجاله، فلما رأى ذو نؤاس ما رأى مما نزل به وبقومه وجه فرسه إلى البحر، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر، حتى أفضى به إلى غمره، فأقحمه فيه فكان آخر العهد به".[٦٠]

ودخل ارياط صنعاء وانتهى بذلك ملك الحميريين في بلاد اليمن، فتحققت امنية القيصر وهزم الأحباش ذا نؤاس وجيشه. وبهذا ثبتت المسيحية في اليمن وجعلت الديانة الرسمية للبلاد مرة أخرى. وقد انتقم الأحباش من الحميريين انتقاما شديدا فقتلوا ثلث رجالهم وأخربوا ثلث بلادهم وهدموا قصورهم وبعثوا بثلث السبي إلى ملك الحبشة[٦١].

وبعد أن خضعت اليمن إلى حكم ارياط وابرهة نشب نزاع بين الاثنين حول السلطة فاقتتلا فقتل ارياط وبقي ابرهة فرسخ حكم اليمن بيد ابرهة ولقب نفسه بلقب نائب ملك الحبشة في اليمن. وقد ضرب الغرور برأس ابرهة حتى سار إلى مكة المكرمة بقصد هدم الكعبة على رأس جيش كبير من الأحباش يتقدمه عدد من الافيال، فانتهت حملة ابرهة بالإخفاق والهزيمة، فعاد ابرهة إلى اليمن حيث توفي بعد قليل، فخلفه ابنه يكسوم الذي حكم في اليمن عشرين سنة، ثم خلفه أخوه مسروق. واتبع الأحباش في خلال هذه الفترة من حكمهم سياسة التعسف القائمة على اذلال الشعب ا ليماني، فأدت هذه السياسة إلى تذمر ونفور أهل اليمن من حكم الأحباش، فظهر من بين القوم زعيم يدعى "سيف بن ذي يزن" تزعم حركة ترمي إلى تحرير البلاد من أيدي الأحباش، فاستنجد بكسرى انو شروان (٥٣١-٥٧٨م) بوساطة النعمان

بن المنذر ملك الحيرة الذي كانت تربطه رابطة الولاء والتبعية مع كسرى، فاستجاب كسرى إلى طلب نجدة (سف بن ذي يزن) لما يضمره من العداء إلى الروم وحلفائهم وإخوانهم في الدين الأحباش. فسيّر كسرى حملة مؤلفة من ثماني سفن إلى اليمن واناط قيادتها بـ "وهرز بن الكامجار" فوصلت ست سفن منها إلى ساحل عدن وغرقت اثنتان في البحر. فالتقى الجيشان الفارسي والحبشي على ساحل اليمن وجرت بينهما معركة قتل فيها مسروق الحبشي غريم وهرز فانهزم الأحباش على اثر ذلك وقتل منهم عدد كبير، لذلك لم يجد وهرز مقاومة أمام زحفه على صنعاء فاحتلها وولي "سيف بن ذي يزن" على البلاد مقابل جزية وخراج يدفعهما في كل عام. وكان ذلك سنة ٥٧١ للميلاد. واستمرت اليمن تخضع للفرس حتى سنة ٦٢٨ للميلاد حتى اعتنق "بآذان" المندوب السامي الفارسي الإسلام وسلم البلاد إلى المسلمين.

١١- خطل نظرية هجرة يهود فلسطين إلى جزيرة العرب:

ومن الغريب أن نقرأ للزميل الباحث المعروف والأستاذ الكبير الدكتور جواد علي قوله بعد كل هذا أن اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة وان دخول النصرانية إليها كان بالتبشير [٦٢]. يقول هذا من غير تحديد، ذلك في حين انه يؤكد في مواضع عديدة من نفس كتابه أن يهود الجزيرة من أصل عربي بما يعني أن اليهودية انتشرت بين القبائل العربية في الجزيرة بالتبشير. ومن أقواله في ذلك: "ولعل كون اليهود في الجزيرة من أصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس" [٦٣]. وهنا يجزم كون اليهود في الجزيرة من اصل عربي. ومن أقواله أيضًا: "وهذا الشعر المنسوب إلى اليهودية لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه من شعر الشعراء الجاهليين الوثنيين، ولا نكاد نلمس فيه أثرا لليهودية، فألفاظه عربية صافية نقية مثل ألفاظ أهل الجاهلية، وأفكاره على نمط أفكار الجاهليين ويصعب أن نجد فيه أثرا للتوراة

والتلمود "[٦٤]. ويلاحظ أن هاتين الجملتين هما من بين ما استشهدنا به في جملة أقوال الدكتور جواد علي التي تؤيد كون يهود الجزيرة من اصل عربي في هذا البحث.

ويُستخلص من أقوال الدكتور جواد علي الأخرى انه يميل إلى تأييد الرأي القائل بان يهود الجزيرة العربية هم من يهود فلسطين الذين هاجروا إلى الجزيرة حيث المجال للعيش والرزق أوسع من مجالهم في فلسطين، مؤيدا بذلك رأي اوليري وأمثاله من المستشرقين، فيقول: "إن ذلك (أي الهجرة) يستند إلى أساس تاريخي صحيح. فالذي نعرفه إن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد إلى ذلك قوله: "وان هجرة اليهود إلى الخارج كانت معروفة قبل عهد طيطس وهدريان بأمد طويل، ثم إن اليهود وجدوا في الخارج مجالا للمعيشة والرزق أوسع جداً من مجالهم في فلسطين ولهذا رأينا اكثر اليهود الذين نقلهم بختصر معه إلى بابل قد فضلوا البقاء في ارض بابل على العودة إلى الديار التي عاشوا فيها، بالرغم من النداءات والالتماسات التي وجهها إليهم أنبياؤهم وزعماؤهم للعودة إلى القدس"[٦٦]. وقبل مناقشة هذا الرأي نحن نتفق مع الدكتور جواد علي أن بعض اليهود ذهبوا إلى خارج فلسطين، ولكن كيف ذهبوا والى أين ذهبوا ومن هم الذين ذهبوا؟ . . فهذا يحتاج إلى شرح. ان كيفية ذهابهم فمعلومة، أنها لم تكن اختيارية بل كانت في جميع الظروف قسرية نتيجة إخراجهم من فلسطين باعتبارهم فئة متزمتة متعصبة منعزلة عن المواطنين أهل البلاد غير مرغوب فيها، لذا لا يمكن أن نطلق عليها تسمية هجرة، لان الهجرة تخضع إلى ظروف طبيعية يقتضيها الكفاح الغريزي بسبب سنة تنازع البقاء وتأمين العيش. ومن أمثال هذه الهجرات الرئيسة في التاريخ هجرات النورمان وهجرات عرب الجزيرة فالأولى غيرت وجه أوروبا والثانية طغت على آسيا وإفريقية، وأوروبا. إذن إخراج اليهود من فلسطين لا يصح أن نطلق عليه تسمية هجرة بالمعنى المعروف. وان ما عبر به القرآن الكريم عن يهود العربية

بـ" الذين هادوا " (أي الذين اخذوا باليهودية) لدليل قاطع على أن يهود الجزيرة هم عرب متهودون لا يهود مهاجرون(٦٧).

نعم، إن بعض اليهود خرجوا إلى خارج فلسطين، بعضهم لغرض التجارة وهذا مألوف ولم يقتصر على قوم أو بلد معين، والتجارة مرتبطة مع كل بلاد العالم وفي جميع الأحوال والظروف، ونحن نعلم أن هؤلاء التجار كانوا كثيراً ما يقومون مقام المبشرين باليهودية خارج فلسطين، ومن أمثلة ذلك تهويد "ايزاط" أمير حدياب على يد أحد التجار اليهود في بلدة "كاراكس سياسينو" (المحمرة) في منطقة الخليج العربي، كما أن أمه "هيلينا" تهودت على يد تاجر يهودي آخر يدعى "حنينا". ولما تسلم "ايزاط" عرش إمارة حدياب سنة ٣٦م أصبحت الإمارة تحت حكم عائلة مالكة يهودية موالية للفرثيين دام حكمها ثمانين سنة (٣٦-١١٥م)(٦٨). والمثل الآخر تهود ملك اليمن التبع "تبان اسعد أبو كرب" في القرن الخامس الميلادي على يد حبرين من أحبار اليهود في يثرب في عودته إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي إيران(٦٠)، ولدينا فيما ورد في أخبار الشهداء الحميريين ان احبارا من فلسطين من طبريا كانوا قد ذهبوا إلى اليمن. وهذا ما يؤيد ان هناك من ذهب من يهود فلسطين إلى جزيرة العرب بصفة تجار أو رجال دين للتبشير باليهودية بين القبائل العربية وخاصة بين رؤسائها.

ولدينا أدلة كثيرة على أن اليهودية انتشرت بين القبائل العربية في جزيرة العرب بوساطة القبائل المتهودة من غير وساطة الاحبار أو التجار، فكانت القبائل المتهودة تقوم مقام الاحبار أو التجار في التبشير بين القبائل العربية. ففي كيفية تهود جماعة من قبيلة بلّي (من قضاعة) التي يقصها علينا البكري خير مثال لذلك، إذ يقول في معجمه: "لما نشب قتال بين بني حشنة بن عكارمة وبني الربعة قتل بنو حشنة وهم من بلي نفرا من بني الربعة، ثم لجأوا إلى تيماء " فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم، فتهودوا، فأدخلوهم المدينة. فكانوا معهم زمانا، ثم خرج منهم نفر إلى

المدينة، فأظهر الله الإسلام، وبقية من اولاءهم بها". وقد سبقت الإشارة إلى ذلك[٧٠]. فهل كانت هذه الجماعة التي تهودت من يهود فلسطين هاجروا إلى جزيرة العرب ليجدوا مجالا للمعيشة والرزق؟ . . ومن هذه الحادثة بالذات يتضح لنا أن الديانة اليهودية في جزيرة العرب هي غير اليهودية المتعصبة المتزمتة في فلسطين. فقد كنت اليهودية في جزيرة العرب في اكثر الأحيان أشبه بحزب سياسي قبلي فمن دخله اصبح منتميا إلى ذلك الحزب ومرتبطا به له حقوق وعليه واجبات مرتبطة بذلك الحزب. وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن اليهودية انتقلت إلى عرب الجزيرة وهم في مواطنهم وان فكرة هجرة يهود فلسطين إلى جزيرة العرب عارية من كل دليل بثها اليهود لربط صلة اليهود العرقية بالعرب وقبلها اكثر الباحثين من غير تمحيص[٧١].

هذا ومن المعروف عن يهود فلسطين، انهم اعتادوا أن يؤسسوا مدارس دينية في المدن التي يحلون بها، فأسسوا مدارس عديدة في فلسطين كالقدس وطبرية وبينة وعوشة، وعندما نزحوا إلى العراق في عهد الكلدانيين أسسوا ست مدارس دينية كبرى في ست مدن يهودية هي: نهر دعة، وفومبدثية، وسورا، والماحوزي، وهوزال، ونهر بيكور، وقد ورد ذكر هذه المدارس ووصفها تفصيلا، كما وردت أخبار الربيين الذين كانوا يدرسون فيها في كتبهم الدينية (التلمود بوجه خاص)، ثم أسسوا مدارس في الأندلس. أما جزيرة العرب فمع وجود مجموعات كبيرة من اليهود فيها لم نجد أي ذكر لمدارس دينية أسست فيها على نمط ما نجده في العراق وغيره من الأقطار التي وجد فيها اليهود، كما لم نجد شيء في كتبهم عن أخبارهم، واكثرا لمعلومات التي وصلت إلينا عنهم مستقاة من المصادر العربية. وسبب ذلك هو أن يهود الجزيرة عرب في قوميتهم ولغتهم وتراثهم لم يختلط معهم عنصر يهودي من فلسطين يحمل معه تراثه ولما تهودوا بقوا مرتبطين بتراث الجزيرة بآدابه وعاداته وأعرافه ونظمه البدوية. والأهم من كل ذلك أن يهود الجزيرة كانوا يتكلمون بلغتهم العربية وهي لغتهم الام في حين أن يهود فلسطين كانوا يتكلمون

بالآرامية وهي غير اللغة العربية. هذا فضلا عن الحواجز الصحراوية التي كانت تفصل بين يهود فلسطين وقبائل الجزيرة المتهودة.

أما الأماكن التي ذهب إليها اليهود بعد إخراجهم من فلسطين على عهد الرومان (ولا نقول بعد هجرتهم منها) فيمكن أن يكون أي بلد من البلاد المجاورة لفلسطين إلا الجزيرة العربية التي لا يمكن أن تكون من بينها، لان سنة الطبيعة تقضي بأن الهجرة لا يمكن أن تتم من البيئة المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب بل العكس هو الصحيح والطبيعي. لذلك لم يعرف التاريخ أن جماعة هاجرت من بلاد الهلال الخصيب إلى جزيرة العرب، بل كانت كل الهجرات التي سجلها التاريخ هي هجرات من جزيرة العرب إلى أطراف الهلال الخصيب حيث أسس أعظم الإمبراطوريات مما عرفها العالم القديم.

والغريب أن الدكتور جواد علي يقيس بابل والجزيرة العربية بمقياس واحد، حين يشير إلى رغبة اليهود بالبقاء في بابل وعدم رجوعهم إلى القدس ليتخذ ذلك دليلا على هجرة اليهود من فلسطين إلى الجزيرة العربية ليستقروا فيها، كما استقروا في بابل، وشتان بين هذه وتلك. فهل يمكن أن نقيس بابل، أم الإمبراطوريات والمدنيات بالجزيرة العربية أم الصحارى والرمال؟ الواقع أن اليهود سيقوا قسرا إلى بابل أسرى لا مهاجرين جاؤا لاختيار مكان افضل للعيش فيه، والمعلوم أن اليهود في بابل بعد أن استقروا في هذا البلد الغني بأراضيه الخصبة ومياهه الوافرة اصبحوا أصحاب نفوذ وثراء يملكون المزارع الواسعة ويسيطرون على مرافق البلاد التجارية، فقد كان من الطبيعي أن يفضلوا البقاء في بابل على العودة إلى فلسطين.

لقد استفاد اليهود كثيرا من الميزات التي منحهم إياها الكلدانيون وأصبح في صفوفهم الكثير ممن تمرسوا على أساليب الحكم والسياسة وممن أتقنوا الحرف والصناعات المختلفة وعظم شأنهم بين البابليين[٧٢]. وتذكر المصادر التاريخية الموثوقة أن بختنصر وهب اليهود أخصب المقاطعات ومنحهم

أوسع الحريات في العمل والحل والترحال. وتعترف المصادر اليهودية بأن اليهود اصبحوا في غضون مدة وجيزة أغنى أهل بابل وان السلطات الحاكمة كانت تعاملهم على أحسن وجه[٧٣]. وقد اشتهر من بين بيوتات اليهود التجارية والمالية في بابل "بيت موراشو" الشهير في نيبور، وقد توارث على هذا البيت الأبناء والأحفاد. ولولا أنبياء المهجر الذين كانوا لا ينفكون عن تنبيه اليهود أمثال خرقيال وعزرا إلى أخطار الانصهار وحثهم على ضرورة التفكير في العودة إلى فلسطين لانصهر اليهود في الشعب الكلداني انصهارا تاما بسبب ما توفر لهم من رغد العيش والأمن والاستقرار[٧٤]. وقد بلغ نفوذ اليهود في بابل في عهد الفرثيين أوج ما وصل إليه من الاتساع بحيث ارتقى حكم بابل الأخوان اليهوديان انيلاي واسيناي، فاستمر حكمهما في عهد الملك ارطبان الثالث ملك الفرثيين (١١-٤٠م) خمس عشرة سنة بين سنة ٢٠ وسنة ٣٥ ميلادية[٧٥]. هذا وفي نفس الوقت كانت العائلة الحاكمة في إمارة حدياب الواسعة في منطقة اشور عائلة يهودية دام حكمها ثمانين عاما بين سنة ٣٦ وسنة ١١٥ ميلادية وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. فالتزمت هذه العائلة الملكية اليهودية بولائها وإسنادها لليهود في القدس، وقد كانت موالية لحكم الفرثيين، لذلك كانت تتمتع بالإسناد من ملوكهم، فلعبت دورا رئيسيا في العلاقات السياسية والعسكرية في الشرق الادنى، فغذت بموافقة الفرثيين وتأييدهم ثورة اليهود على الرومان بين سنة ٦٦ وسنة ٧٠ للميلاد، كما كانت تسند الفرثيين في حروبهم مع الرومان[٧٦]. وفي هذا الوقت بالذات (القرن الأول الميلادي) كانت في الشمال سلالة يهودية تحكم في أرمينيا وفي مقاطعات "جالسس" Chalcis، و "كبادوسيا" Cappadocia و "ايتورا Iturea و "ابيلين" Abiliene.[٧٧]

هذا هو الوضع الذي كانت عليه حالة اليهود السياسية والاجتماعية في البلاد المجاورة لفلسطين، ذلك الوضع الذي كان يمهد كل الامكانيات والوسائل المشجعة للجوء اليهود إلى هذه البلاد للعيش مع أبناء جنسهم وإخوانهم في الدين في كنف أرقى مدنيات ذلك العصر. فهل من المعقول أن

نتوقع في مثل هذه الظروف المغرية أن يتوجه اليهود النازحون من فلسطين إلى جزيرة العبر ليواجهوا رمال صحرائها في سبيل مشاركة يهودها الذين لا تربطهم وإياهم أية صلة قومية أو لغوية؟ . . . إن فيما شرحناه فيما تقدم الكفاية للإجابة على ذلك.

١٢ - إسلام بعض يهود الجزيرة:

وقد أسلم في أيام النبي محمد صلى الله عليه وسلم عدد من كبار رجال يهود الجزيرة منهم: عبد الله بن سلام، فكان يدعى وهو على يهوديته الحصين بن سلام بن الحارث وهو من بني قينقاع ولما أسلم سماه الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الله، وكان حبرا عالما، سيدا في قومه، صاحب نسب وحسب، فلما أسلم نبذه قومه. ومنهم مخيرق وكان رجلا غنيا، وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيون قاتل مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قتل[٧٨]. وممن آمن بالإسلام يامين بن عمير بن كعب وأبو سعد بن وهب وهما من بني النضير[٧٩]، ويامين بن يامين الاسرائيلي وقد اسلم على أثر إسلام عبد الله بن سلام. وكان فيمن اسلم من بني قريظة كعب بن سليم القرظي ويعد في الصحابة له روايات عن أخبار اليهود، وقد عده علماء الحديث في طبقة الثقات الورعين، ورفاعة القرظي، وهو رفاعة بن سموأل خال صفية زوجة النبي صلى الله عليه وسلم. ويعد زيد بن سمية في طبقة الصحابة يقال انه "كان أحد احبار اليهود الذين اسلموا وانه كان اكثرهم علما ومالا توفي في غزوة تبوك مقبلا إلى المدينة. ويعد عطية القرظي من الصحابة أيضًا وهو من بني قريظة، كان صغير حين غزا النبي صلى الله عليه وسلم بني قريظة، فأسلم وصحبه[٨٠]. وذكر أهل الأخبار أن جبل بن جوال بن صفوان الثعلبي من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان كان يهوديا فأسلم، فهو عربي يظهر انه أو أهله قبله قد تهودوا فكان على دين يهود وعاش مع بني قريظة حتى اعتنق الإسلام[٨١].

وهناك ما يدل على أن بعض القبائل العربية المتهودة مالت إلى الإسلام بعد ظهوره، فمن بقايا القبائل العربية المتهودة في الجزيرة التي اعتنقت الإسلام بعد ظهوره قبيلة في منطقة خيبر، إذ يفيد الرحالة روثي الذي ارتاد الجزيرة سنة ١٨٧٥ ("الصحراء العربية" ص١٢٩) أن هناك قرية في نواحي خيبر أهلها مسلمون ولكنهم لا يزالون محتفظين ببعض التقاليد والتعاليم اليهودية لا يخالطون غيرهم من القبائل المجاورة.

١٣- نزوح بعض يهود الجزيرة عنها في عهد الخليفة عمر (رض):

وقد اتخذت اكثر القبائل المتهودة التي أجليت من الجزيرة العربية في عهد الخليفة عمر (رض) طريقها نحو سواحل الفرات الأوسط الملاصقة للبادية (بادية الشام)، بينما اتجهت بطون أخرى إلى شمال إفريقية وغيرها من البلاد العربية المجاورة. والطريق إلى سواحل الفرات الأوسط هو نفس الطريق الذي سلكته القبائل العربية في هجراتها من الجزيرة العربية نحو وادي الرافدين منذ أقدم الأزمنة، فاستقروا في منطقة دير الزور وعانة والحديثة حيث كان هناك مراكز يهودية مهمة. ففي بلدة "دورا" (صالحية الفرات) عثر على آثار كنيس يرجع إلى القرن الثالث الميلادي مما يدل على أن بعض عائلات هناك اعتنقت الديانة اليهودية [٨٢]. وفي كتابة ارامية اكتشفت في هذا المعبد تشير إلى انه شيد سنة ٥٥٦ سلوقية تقابلها السنة الثانية من تولي الإمبراطور فيليب العربي (حوالي سنة ٢٤٦م). وتتميز الرسوم الجدارية في هذا المعبد بطابعها الفني المحلي إذ لم يعثر على ما يماثلها وقد احتفظ بها في المتحف الوطني بدمشق. وتتألف هذه الرسوم من لوحين مهمين يمثلان قصة مولد النبي موسى (ع) وقصة استير [٨٣]، وكذلك توجد آثار كنيس قديم ومقبرة يهودية في عانة. ومن المراكز اليهودية التي كانت على نهر الفرات أثناء نزوح يهود الجزيرة العربية إلى جهة الفرات الجاليات اليهودية الكبيرة في منطقة نهر دعة قرب عانة وفي قومبديثة وسورا على نهر الفرات وقد أسست فيها كبريات المدارس التلمودية.

وتدل الأخبار المتواترة على أن معظم اليهود العرب الذين نزحوا إلى ساحل الفرات الأوسط على اثر إجلائهم من جزيرة العرب كانوا من قبيلة قضاعة التي ينبئنا البكري أن بعض بطونها من عشيرة بلّي قد تهودت وسكنت في تيماء[٨٤] . وقد أخذ هؤلاء يمارسون الزراعة على نهر الفرات إلى جانب المزارعين العرب في المناطق التي حلوا بها واندمجوا بالمحيط العربي الإسلامي بشكل طبيعي واتخذ أكثرهم الإسلام دينا لهم منتمين إلى فرقه المختلفة وبقي القليل منهم على اليهودية . ومما يدل على اندماج هؤلاء اليهود العرب مع السكان ما ذكره الرحالة البرتغالي "بدروتكسيرا" الذي زار العراق سنة ١٦٠٤م، عن يهود عانة قال: "إن مائة وعشرين بيتا من سكانها يهود عرب وان لم يكونوا أغنياء فانهم يعيشون عيشا وسطا ويراعي جانبهم أمير البلاد وموظفوه وكانوا يملكون بيوتا وأراضي كما يملك العرب الذين يؤلفون بقية سكانها"[٨٥] .

وقد لجأ بعض اليهود العرب من نواحي الحجاز وخيبر إلى الكوفة واشتهر من يهود الكوفة موسى بن إسرائيل الطبيب الكوفي (١٢٥-٢٢٢هـ)[٨٦] . وجاء في رواية عن الواقدي أن في سنة ٢٠ هـ، أجلي يهود نجران إلى الكوفة[٨٧] . "ولما استولى المسلمون على العراق وسكانه كان نصيب اليهود كسائر أصحاب الأديان في هذه الأقطار، فمنهم من دانوا بالإسلام ومنهم من أدوا الجزية"[٨٨] . وقد جاء في كتاب "رسائل صموئيل بن علي رأس مثيبة علماء يهود بغداد ان الكوفة كانت من مراكز اليهود المهمة في العراق أقام بها عدد غفير من الجالية التي قدمت إليها من نواحي الحجاز وخيبر وكانت لهم علاقة وثيقة مع المسلمين. وهذا ما يدل على أن اكثر هؤلاء دانوا بالإسلام.

ومما كان يشجع اللاجئين الجدد على الدخول في الإسلام حسن معاملة المسلمين لهم والرغبة في التخلص من الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة، أي اليهود والنصارى البالغين من الذكور. أما مقدار الجزية التي فرضها عمر بن

الخطاب على أهل الذمة في العراق فهناك روايتان، الأولى تفيد انه فرض ٢٤ درهما في السنة على كل شخص، والرواية الثانية تفيد انه فرض ٤٨ درهما على الأغنياء و ٢٤ درهما على متوسطي الحال، و ١٢ درهما على العامة، وهذه تسقط عن الفرد بمجرد دخوله في الإسلام.

ولما كان يهود الجزيرة ذوي خبرة بالأعمال الزراعية فمارسوا الزراعة في مستقراتهم الجديدة على نهر الفرات إلى جانب أهل المنطقة، وهم عرب مثلهم. ويلاحظ أن هذه المناطق لم تكن في أواسط القرن السابع الميلادي، أي قبل حوالي ١٣٠٠ سنة كثيفة السكان، إذ كان المجال فسيحا لكل من كانت له إمكانية اعمار الأراضي الواسعة المهجورة، فكان شأن القادمين إلى هذه المنطقة شأن جميع القبائل العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستقرت في مناطق الهلال الخصيب. والمهم في هذه المرحلة ان مبدأ "الأرض لمن يزرعها" كان هو المطبق تلقائيا وبصورة طبيعية مع مراعاة حق الأسبقية لمن وجد من قبل.

وهناك ما يدل على أن هناك أسرا عربية يهودية بقيت في الجزيرة العربية على دينها، فقد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم حتى بعد إجلاء بني النضير وبني قريظة وبعد غزوة خيبر. كما بقيت اسر يهودية في وادي القرى وفي تيماء قرونا عديدة بعد صدور أمر عمر (رض) بإجلاء اليهود والنصارى من الجزيرة، بل ورد ان عددا منهم عاش في المدينة أيضا. أما في اليمن، فقد ظل اليهود فيها إلى عهد قريب.

ولما أمر عمر (رض) باجلاء من لم يكن له عهد من اليهود أرسل أبا الهيثم بن التيهان وسهل بن أبي خيثمة وزيد بن ثابت، فقوموا نصف التربة بقيمة عدل، فدفعها إليهم، وأجلاهم إلى بلاد الشام. وهذا ما معناه ان عمر (رض) دفع تعويضا إلى اليهود الذين أجلوا من ديارهم عن أموالهم غير المنقولة وممتلكاتهم الأرضية.

الهوامش

(١) الدكتور جواد علي، "تاريخ العرب قبل الإسلام" ٦ : ٩-١٠؛ ١ : ١٧٦ .

(٢) الدكتور سامي سعيد الأحمد، "الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية"، ص٣٠ .

(٣) الدكتور محمد عوض محمد، الهلال، (يوليو)- ١٩٤٧، ص٢٣-٢٩ .

(٤) ويلز "معالم تاريخ الإنسانية"، الترجمة العربية، الكتاب الرابع، ص٢٩٢-٢٩٣ .

(٥) P. Hitti,History of Syria, p.197.

(٦) J. parkes, "A History of the Jewish people", p.7.

(٧) ابراهام ليون، "المفهوم المادي للمسألة اليهودية"، ترجمة عادل نويهض، ص٣١ .

(٨) الدكتور سامي سعيد الاحمد، "الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية، ص٣٠، نقلا عن البرت تريفر:

Albert A. Trever, "History of Ancient Civilization", N. Y. ،1939, II. P.466.

(٩) الدكتور جواد علي، "تاريخ العرب قبل الإسلام" ٦ : ٢١، نقلا عن:

Graetz,"History of the Jews", III, p.58 f. 60.

(١٠) المرجع السابق، ٦ : ٢١ .

(١١) سورة البقرة، رقم ٢، آية ٢٥٦ .

(١٢) تفسير الطبري ٣ : ١٠، وما بعدها .

(١٣) الدكتور جواد علي، "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ : ٥١٥ .

(١٤) المرجع السابق ٦ : ٥٢٢ نقلا عن : الأغاني ١٩ : ٩٥ وما بعدها وسيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ وما بعدها .

(١٥) الدكتور جواد علي، "تاريخ العرب قبل الإسلام"، ٦ : ١١ .

(١٦) معجم ما استعجم، ١ : ٢٩ .

(١٧) معجم البلدان، ٤ : ٨١؛ معجم ما استعجم، ١ : ٤٣ .

(١٨) معجم البلدان، ١ : ٩٠٧ .

(١٩) الدكتور جواد علي "تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ : ١٩ نقلا عن:

Margoliouth, "The Relations between Arabs and Israelies Prior to the Rise of Islam", p. 61 ff.

والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ : ٥٣ نقلا عن :

W. Caskel,Das attarabische Komingreich Lithyan, s. 19.

(٢٠) الدكتور جواد علي، "تاريخ العرب قبل الإسلام" : ٦ : ١٢ نقلا عن : ماركوليوث ونلليتو وهرشفلد.

(٢١) O'leary,Arabic before Muhammad, London,1927 p. 173 ff.

(٢٢) تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف، ١ : ٤٠ ، ٤٢ .

(٢٣) معجم البلدان، ٤ : ٣٨٥، ٤٦٠ .

(٢٤) طبقات الأمم، بيروت، ١٩١٢ ، ص٤٣ ؛ ابن قتيبة، المعارف، ١٩٦٠ ، ص٦٢١ .

(٢٥) تاريخ اليعقوبي، ١ : ٢٢٧ .

(٢٦) يوسف غنيمة، "نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص٩٩، عن المستطرف للأبشيهي، ج٢، ص١١٤ .

وهذه نبذة عن كل من هذه القبائل العربية التي تهدد بعض بطونها، وهي : بنو حمير، وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وبنو كندة وغسان وجذام ونمير :

بنو حمير، بطن عظيم من القحطانية ينتسب إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كانت مساكنهم في اليمن وسكن قسم من حمير في الحيرة.

بنو كنانة، قبيلة عظيمة من العدنانية، وهم بنو كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان كانت ديارهم بجهات مكة، وقدمت طائفة منهم الديار المصرية سنة ٥٤٥م. وتنقسم قبيلة كنانة إلى عدة بطون منها قريش، عبد مناة بن كنانة، بنو مالك بن كنانة.

بنو الحارث بن كعب، بطن من بطون سلالة السبطين الحسن والحسين يقيمون بالحجاز.

غسان، قبيلة عظيمة اختلف في نسبتها، فالبعض قال أن غسان أبو قبيلة باليمن، والبعض الآخر قال أن غسان ماء بسد مأرب باليمن، وقيل أيضا ان غسان اسم ماء نزل به قوم من الازد، فنسبوا إليه، وقد قيل أيضا الغساسنة ملوك الشام، وهم بنو عمر بن مازن بن الازد.

جذام، بطن من كهلان، من القحطانية وهم بنو جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. كانت تنزل جذام بجبال حسمى؛ ومساكنها بين مدين إلى تبوك. ومنها فخذ مما يلي طبرية من أراضي فلسطين. وجذام أول من سكن مصر من العرب حين جاؤا في الفتح مع عمرو بن العاص واقطعوا فيها بلادا.

بنو كندة، من قبائل حضرموت قبيلة عظيمة تنسب إلى كندة وينقسمون إلى عدة بطون

منازلهم كانت بجبال اليمن مما يلي حضرموت وكان لهم ملك باليمن والحجاز بالجاهلية وانتشرت اليهودية فيهم.

نمير، بطن من عامر بن صفصعة، من العدنانية، كانت منازلهم بنجد وكانت لهم كثرة وعزة في الجاهلية والإسلام، ودخلوا إلى الجزيرة الفراتية.

(٢٧) Graetz, op. cit., III, p.75.

(٢٨) . Ibid, p.51.

(٢٩) ولفنسون "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ص١٢.

(٣٠) الدكتور جواد علي، "تاريخ العرب قبل الإسلام"، ٦: ٢٠، نقلا عن نولدكه.

(٣١) المرجع السابق، ٦: ٣٤-٣٥.

(٣٢) ظهرت هذه الحركة الإصلاحية في العراق في القرن الثامن للميلاد. وهي تدعو إلى نبذ التلمود وتصف تعاليم الربانيين بأنها خارجة على التوراة. وقد استمالت هذه الحركة الكثير من يهود العراق وبخاصة العرب منهم، وانتشرت الدعوة في مصر والشام وتركيا وايران وبعض أجزاء من روسيا (القرم) وأوروبة الشرقية، واستمرت حركة القرائين حتى مستهل القرن السابع عشر الميلادي، ثم تقلص ظلهم مع انتشار الربانيين في أوروبا وامريكا وبقوا منكمشين في ا لشرق. ويعترف القراؤون بنبوة عيسى (ع) ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد كان لظهور الصهيونية العالمية واتساع نفوذها الأثر الكبير في إخماد حركة القرائين وتقلصها حيث كانت الصهيونية ترى في طائفة القرائين اكبر خطر يهدد مشروعها السياسي الاستعماري الذي خطته بالاتفاق مع الربانيين للاستيلاء على فلسطين واتخاذها وطنا قوميًا لليهود بالقوة. ويرى البعض انه لو نجح حزب القرائين هذا لانشلت الحركة الصهيونية في العالم (انظر: الدكتور حسن ظاظا، "الفكر الديني الإسرائيلي، ١٩٧١، ص٢٩٥-٣٠٦؛ رحلة بنيامين، ص١٩١-١٩٥؛ الدكتور علي عبد الواحد، "الأسفار المقدسة"، ص١٩٧١ ص٦١-٦٦).
انظر أيضا:

Karaism, Enc. Brit, 1965, 13:231

(٣٣) ليرسي، "تاريخ الشعب اليهودي"، ص٢٣٥.

(٣٤) سيرة ابن هشام، ج٢، ص١٤٧-١٤٩.

(٣٥) "تاريخ اليعقوبي"، طبعة النجف، ١: ٢٢٦.

(٣٦) الدكتور جواد علي، "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ٦: ٥١٤، عن العلامة "سوزومين".

(٣٧) رحلة بنيامين التطيلي، ص١٤٨.

(٣٨) اخبار الايام الاول ٢: ٥٥.

(٣٩) لموك، ١٠ : ١٥ .

(٤٠) ارميه ٣٥ : ٢-١٩ .

(٤١) راجع مادة الركابيين في دائرة المعارف اليهودية .

(٤٢) قاموس الكتاب المقدس (الطبعة الجديدة)، ص٤١٠ .

(٤٣) الدكتور جواد علي، "تاريخ العرب قبل الإسلام"، ٦ :١٦-١٧ .

(٤٤) "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، ٦ : ٥٢٧ .

(٤٥) يوسف غنيمة، "الحيرة"، ص١٨ .

(٤٦) الدكتور جواد علي، "تاريخ العرب قبل الإسلام"، نقلا عن :

Winckler, Mett. Vor. Asai, Ges., VI, 5.222.

(٤٧) انظر : الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، "يهود المغرب العربي"، ١٩٧٣، ص١١-١٢ .

(٤٨) انظر : ابن قتيبة، كتابه "المعارف، مطبعة دار الكتب، ١٩٦٠، ص ٦٢١؛ القاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي، "طبقات الأمم" المطبعة الكاثولوجية، بيروت ١٩١٢، ص٤٣ .

(٤٩) "تاريخ اليعقوبي طبعة النجف، ١ : ٢٢٦ .

(٥٠) انظر الدكتور احمد سوسه، "العرب واليهود في التاريخ" .

(٥١) ولفنسون "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ص٧٥ .

(٥٢) الطبعة الثانية، ص١١٩-١٢٢ .

(٥٣) انظر : نيوزنر، "تاريخ اليهود في بابل"، ج١، ص٥٤-٦٤؛ "تاريخ كلدو واثور"، ج٢؛ تاريخ الموصل" لمؤلفه سليمان صائغ، ج١، ص١٩ .

(٥٤) انظر ما تقدم عن التبشير باليهودية (المادة ٢).

(٥٥) الدكتور جواد علي "تاريخ العرب قبل الإسلام"، ٦: ٢٦، ٣٤.

(٥٦) المرجع السابق، ٦ : ٢٤، المفصل ٦ : ٥٣٧ .

(٥٧) "تاريخ اليعقوبي"، طبعة النجف، ١: ٢٢٦ .

(٥٨) ولفنسون، "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ص٣٦ .

(٥٩) ديتلف نيلسون ورفقاه، "التاريخ العربي القديم"، ص٢٩٥-٢٩٦، ٣٠٢-٣٠٣.

(٦٠) الجميلي، "تاريخ العرب"، ص ٨٩-٩٠ .

(٦١) المرجع السابق عن الطبري .

(٦٢) "مفصل تاريخ العرب"، ٦: ٥٨٧ .

(٦٣) "تاريخ العرب قبل الإسلام"، ٦ : ٢١ .

(٦٤) المرجع السابق، ٦ : ٣٤- ٣٥ .

(٦٥) المرجع السابق، ٦ : ١٠ .

(٦٦) المرجع السابق، ص ٦ : ٢٥ .

(٦٧) انظر : البقرة الآية ٦٢ ؛ النساء الآيتان ٤٦ و ١٦٠ ؛ المائدة الآيات ٤١ ، ٤٤ ، ٦٩ ؛ النحل الآية ١٨٨ ؛ الحج الآية ١٧ ، الجمعة الآية ٩ .

(٦٨) انظر : مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، عدد كانون الثاني ١٩٧٥ ، ص ٤١ ، وما يليها .

(٦٩) الدكتور جواد علي ، مفصل تاريخ العرب ، ٦ : ٥٤ .

(٧٠) انظر ما تقدم في المادة ٦ .

(٧١) انظر : مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، عدد كانون الثاني ١٩٧٥ ، ص٦١ ، وما يليها .

(٧٢) A. Lods, Les Propheles d' Israel",p.202.

(٧٣) "المفسدون في الأرض" ، ص٧١ .

(٧٤) المرجع السابق .

(٧٥) J. Neusner, "History of he Jews in Babylonia",, pp. 45-75. 70.

(٧٦) نفس المرجع ، ص١٦- ٦٤ .

(٧٧) نفس المرجع ، ص٦٢ .

(٧٨) ابن هشام ٣ : ٩٤ .

(٧٩) المرجع السابق ، ٢٠٢ .

(٨٠) انظر : الدكتور جواد علي ، "تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ : ١٦٥-١٧٢ .

(٨١) الدكتور جواد علي ، المفصل ٦ : ٥١٥ .

(٨٢) كانت بلدة دورا ميناءا تدمريًا مهما على الفرات ، تقع على بعد ٨٥ كيلومترا عن دير الزور إلى الجنوب الشرقي منها و ٢٢٤ كيلومترا عن تدمر إلى الشرق منها ، أسسها الإغريق في أعقاب الاسكندر المقدوني وسميت "دورا اوردبوس" أو "دورا نيكاتوريس" نسبة إلى نيكاتور . أحد كبار القواد المقدونيين (٣٨٠- ٣١٢ ق . م) . قيل انه أنشأنها سنة ٣٠٠ ق . م . والمدينة على شكل حصن منيع واقعة على هضبة على ضفة الفرات الغربية تطل على النهر والصحراء . أما لفظ دورا فيعتقد انه آرامي .

(٨٣) انظر : "دليل مختصر للمتحف الوطني بدمشق ، ١٩٦٩ ، ص١٥٤ ؛ ١٦٠ ؛ عبد القدر عياش ، "منطقة البوكمال في محافظة دير الزور" ، ١٩٧٣ ، ص١٧-٢١ ، انظر أيضا :
Enc. Brit, 1965, 7; 612.

(٨٤) كانت مساكن قضاعة في شمال الحجاز بين جدة وذات عرق قرب مكة، ثم افترقت فسارت فرقة إلى أرض الجزيرة (جزيرة بين النهرين)، وعليهم ملك يقال له الضيزن وكان فيما زعموا ملك الجزيرة كلها إلى الشام فنزل مدينة الحضر فأقام فيها مدة ملكا يغير على بلاد الفرس والسواد فقد رأى الضيزن أن ينضم إلى الرومان الذين كانوا قد توجهوا إلى الشرق واستولوا على ميديا في أوائل العهد الساساني فهاجم الفرس وتغلب عليهم في مملكة شهرزور كما تذكر المصادر العربية، وكان ان تمكن ضيزن من اسر (ماه) أخت سابور الجند (سابور الأول) ابن الملك اردشير الأول وكان ذلك في حوالي سنة ٢٣٢م وعلى أثر ذلك جرد سابور الجنود حملة على الحضر أغار عليها لينتقم من الضيزن فحاصرها أربع سنين من غير أن يتمكن من فتحها. ثم أن ابنة الضيزن اسمها (النضيرة) وقعت في حب سابور فأرشدته إلى موطن الضعف في سور المدينة مما مكنه من إحداث ثغرة فيه ففتح المدينة وقتل الضيزن ومعه مائة ألف رجل وأفنى قبائل كثيرة بادت عن آخرها لم يبق باق منه. انظر: معجم البلدان ٢/ ٢٨١-٢٨٤؛ الطبري ٢: ٤٩، وما بعدها؛ نهاية الأرب ١: ٣٨١. معجم ما استعجم ١: ١٧-١٥؛ الدكتور جواد علي، مفصل تاريخ العرب ٢: ٦١٩-٦٢٢؛ فواد سفر، "الحضر" مجلة سومر، م٨ (1952) ج١، ص٣٧-٦٢.

(٨٥) يوسف غنيمة، "نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق"، ١٩٢٤، ص١٦٠.

(٨٦) طبقات الأطباء، ج١: ١٦١.

(٨٧) يوسف غنيمة، المرجع السابق، ص١٠٣.

(٨٨) المرجع السابق، ص١٠١.

(٨٩) الدكتور جواد علي، "تاريخ العرب قبل الإسلام"، ٦: ١٧٢.

الفصل الرابع

يهود العالم وصلتهم بفلسطين

تمهيد :

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذه المرحلة هو كيف انتشر اليهود في العالم بعد أن أجلاهم الرومان عن فلسطين نهائيا وما هي صلتهم بفلسطين؟ . . . . وقبل الإجابة على ذلك لا بد من التوضيح بان اليهودية كدين لم تكن في البداية مقتصرة على قوم موسى فقد انتشر الدين اليهودي بين مختلف الأمم والأجناس، وهذه الأمم اعتنقت الدين اليهودي وهي تعيش في ديارها وأوطانها تتكلم بلغاتها وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئتها، إذ بدأ التبشير بالدين اليهودي منذ تكوين الديانة اليهودية بعد كتابة التوراة، واستمر حتى العصور الوسطى عندما اغلق باب التبشير به في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي. فقد قضى اليهود اكثر من عشرين قرنا يعملون بجد ونشاط لنشر ديانتهم بين شعوب وأمم لا تمت إلى قوم موسى بأدنى صلة وليست لهم علاقة بفلسطين أو سكان فلسطين لا من بعيد ولا من قريب. وهؤلاء الدعاة إلى الدين لم يكونوا دائما من داخل فلسطين، بل ممن اعتنقوا الدين اليهودي وتحمسوا له، كما أن المسيحية لم تنتشر بواسطة سكان فلسطين وحدهم، بل بواسطة من اعتنقها من مختلف الأجناس والشعوب. [(١)]
وهكذا " ظلت اليهودية زمنا طويلا فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصا تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى " [(٢)]. فقد اعتنقت شعوب عديدة الدين اليهودي وهم في ديارهم وأوطانهم ولم يكونوا في وقت من الأوقات من سكان فلسطين، فانتشر هذا الدين في القارات الثلاثة واعتنقته أمم

متباعدة الأوطان مثل سكان اليمن والحبشة والجزيرة العربية وبلاد القفقاس (الخزر) وأواسط أوروبا وبلاد المغرب وشعوب مختلفة في الدول الرومانية وفي الأقطار المجاورة لها، هذا إلى جانب العناصر التي دخلت في اليهودية بطريق الزواج. وقد اعتنق اليهودية كثير من الجماعات التي أرسلها الآشوريون من مختلف أنحاء الامبراطورية الآشورية إلى فلسطين ليحلوا محل اليهود، وربما كان خير من يمثلهم اليوم السامريون الذين يعيشون وسط العرب وفي رعايتهم في مدينة نابلس .(٣)

٢- اليهود في اليمن وفي البلاد العربية :

وقد انتشرت اليهودية في بلاد اليمن حتى أصبحت مركزا من مراكز انتشارها. وفي القران الكريم إشارة صريحة إلى هذا في صورة النمل وفي الآيات الكريمة التي تروى قصة سبا. وقد جاء على لسان ملكتهم: " قالت ربي اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان إلى الله رب العالمين . " وانتشار اليهودية في اليمن في العصور التالية يرجع إلى أحد ملوك حمير المدعو تبان اسعد أبو كرب (القرن الخامس ب. م) ففي غزو هذا الملك ليثرب جاءه حبران من أحبار اليهود فاعجب بما وصفاه له عن دينهما فاتبعه وأخذهما معه إلى اليمن ودعا قومه إلى الدخول فأجابوه، وقد ثبت الدين اليهودي وقد اجبر هذا الملك المسيحيين على اعتناق اليهودية .(٤)

وفي أعقاب حملة الرومان الأخيرة على اليهودية في فلسطين وتدمير هيكلهم في أورشليم هاجرت جموع غفيرة من اليهود إلى مختلف الأرجاء في البلدان المجاورة. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هؤلاء اليهود هاجروا إلى الجزيرة العربية، وعلى هذا الأساس انتهوا إلى أن اليهود الذين كانوا منتشرين في أنحاء جزيرة العرب قبل الإسلام هم من بقايا اليهود الذين هاجروا من فلسطين. وقد كان اليهود يروجون مثل هذه الأقاويل بين القبائل العربية بقصد الإشاعة بان العرب واليهود ينحدرون من اصل واحد وان الاتصال بينهما قديم

وبذلك يتم تشجيعهم على الاخذ باليهودية . ومن المهم ذكره في هذا الصدد بان الكثير من الباحثين يظنون أن باب التبشير باليهودية كان مغلوقا منذ القديم وان اليهود الذين ظهروا في مختلف الأقطار ومنها جزيرة العرب هم من اليهود الذين هاجروا من فلسطين. وهذا يخالف الواقع لان كل الدلائل تثبت أن الحاخاميين اليهود كانوا يتحمسون ويحرصون كل الحرص لحمل اكثر ما يمكن من الناس من مختلف الأجناس والقوميات على اعتناق اليهودية والتبشير بها منذ اقدم العصور. وبعد ظهور المسيحية ازداد حماسهم في التبشير بدينهم نتيجة للمنافسة بينهم وبين المبشرين المسيحيين مما آثار العداء الشديد الدامي بينهما واستمرت هذه المنافسة تلعب دورها ألف وثلاثمائة سنة حتى اغلق التبشير باليهودية في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، في حين أن التبشير بالمسيحية استمر ولا يزال مستمرا حتى هذا اليوم.

أن اليهودية كدين لم تكن مقتصرة على قوم موسى، فقد انتشر الدين اليهودي بين مختلف الأمم، وهذه الأمم اعتنقت الدين اليهودي وهي تعيش في ديارها وأوطانها تتكلم بلغاتها وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها، إذ بدا التبشير بالدين اليهودي منذ تكوين الديانة اليهودية واستمر إلى العصور الوسطى حيث اغلق باب التبشير في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي كما تقدم معنا أن اليهودية والمسيحية وكلتاهما ظهرت في الجزيرة العربية قبل الإسلام في ظروف متشابهة وسط عالم يدين بالوثنية، والاثنتان انتشرتا في العالم وفي جزيرة العرب عن طريق التبشير وبخاصة عن طريق اعتناق رؤساء مجتمعات تلك العصور.

عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها فلبسوا لباسهم وتكلموا لغتهم ومارسوا عاداتهم وتقاليدهم وتصاهروا معهم، فتزوج اليهود عربيات، وتزوج العرب يهوديات، والفرق الوحيد الذي كان بين العرب واليهود في الجزيرة هو الاختلاف في الدين. هذا ما يؤيد كون اليهود في الجزيرة العربية عرب متهودون لا يهود مهاجرون، اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير، لأن

العصبية العربية تقيم حاجزا يحول بين زواج اليهود أو أي عنصر غير عربي بالعربيات كما هو معروف. يؤيد ذلك الدكتور جواد علي بقوله "ولعل كون اليهود في الجزيرة من اصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس. ". وقد ذكر العلماء ان بعض الأنصار كان مسترضعا في بني قريظة (من يهود يثرب) وغيرهم من اليهود العرب فتهودوا. فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، أرادا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه فنزلت الآية الشريف: "لا إكراه في الدين".

فالمؤرخ اليعقوبي ينكر وجود طوائف أصلها (من فلسطين) في الجزيرة العربية قبل عصر الإسلام، ويؤكد أن القبائل اليهودية فيها كانت من العنصر العربي الأصيل ويقول في وقعة بني النضير أن نضير فخذ من جذام إلا انهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به، وفي وقعة بني قريظة يقول بأن بني قريظة فخذ من جذام أيضا اخوة بني النضير ويقال ان تهودهم كان في ايام عاديا بن السموءل، ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه.[٥]. وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث بعد الميلاد انهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية (المقصود بذلك يهود فلسطين الاصليين ويقولون ان الذين يعتبرون انفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهودا حقًا إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً.[٦] ويؤيد ياقوت الحموي ذلك في معجمه، فيقول ان يهود يثرب (قريظة والنضير) هم من القبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى اخرجهم الاوس والخزرج من المدينة[٧]. وكانت المستوطنات اليهودية في الجزيرة العربية تمتهن الزراعة وكان بعضهم في يثرب يمارسون صناعة الحدادة والمجوهرات. ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حرص على تحقيق الوحدة بين القبائل العربية وإزالة ما كان بين اهل المدينة قبل الإسلام من الفرقة بابطال حروبهم ومنازعاتهم حتى يسود الإخاء بينهم جميعاً، وتحقيقًا لذلك كتب كتابا جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، انهم امة واحدة من دون الناس. . . . وإن من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومون ولا متناصر عليهم، وإن يهود بني عوف آمنة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وانفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته وان يهود بني النجار ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة وجفنة ولبني الشطية مثل ما ليهود بني عوف. وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحدا إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم. "(٨) ويتضح مما تقدم ان الذي كان يفرق بين الأمة الواحدة هو الدين وحده فكان النبي صلى الله عليه وسلم يرمي من وراء كتابه هذا تحقيق الاخاء بين الجميع وان لا يكون الدين سببًا في الفرقة (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم). والدليل على ان هذه القبائل المتهودة عربية الاصل انه كان بين قبيلة الاوس العربية من تهود قبل الإسلام كما جاء في الكتاب المذكور.

ومما يذكر في هذا الصدد ان البطون العربية المتهودة التي لم يكن لها عهود خاصة مع الرسول صلى الله عليه وسلم والتي أجليت عن جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (ر) لم يعرف أن احدا من هؤلاء نزح إلى فلسطين ليكون بالقرب من هيكل سليمان مندفعين بالحماس الديني. لذلك فليس بالمستطاع تأييد بعض الكتاب الذين اعتبروا اصل يهود الجزيرة مرتبطا بيهود فلسطين الذين أجلاهم الرومان، لأن ذلك يخالف سنة الطبيعة فالهجرة لا تتم من البيئة المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب، بل العكس هو الصحيح، والحقيقة هي أن اليهودية والمسيحية كانتا تتزاحمان على تهويد أو تنصير القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام وقد توجه المبشرون من اليهود والمسيحيين نحو جزيرة العرب لأنهم وجدوا ان القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام كانت مهيئة نفسيا لتقبل فكرة التوحيد. لذا كان نشاط التبشير في الجزيرة على اشده حتى تمكن المبشرون المسيحيون من تنصير بعض القبائل كما

استطاع الأحبار اليهود من تهويد البعض الآخر. فهل انتشرت المسيحية بين القبائل العربية في الجزيرة نتيجة نزوح مسيحيين من اصل فلسطيني؟ وهل كان اهل اليمن الذين تهودوا اوتنصروا من اصل فلسطيني؟ . . وهل كان يهود الخزر من يهود فلسطين؟

وهل كانت قبائل البربر في المغرب العربي التي أخذت بدين اليهودية قبل الإسلام، مثل قبيلة جراوة التي سكنت جبال اوراس، وقبائل أخرى هي نفّوسة وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغياتة وبنو بازار، التي يحدثنا عنها ابن خلدون من يهود فلسطين؟ . . [٩]، وهل كانت قبائل بني حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة التي انتشرت فيها الديانة اليهودية قبل الإسلام والتي يحدثنا عنها ابن قتيبة والقاضي أبو القاسم صاعد الانلدسي من يهود فلسطين؟ . . [١٠]. لماذا اذن لا يزال بعض الكتاب يأخذ بالرأي القائل بأن الجزيرة العربية قد انفردت من بين كل بلاد العالم التي تم التبشير فيها باليهودية أو المسيحية بهجرة يهود أو نصارى فلسطين إليها؟ . . . إن الكتاب اليهود يروجون مثل هذه الأقاويل التي ترجع اليهود في فلسطين ويهود الجزيرة العربية إلى اصل واحد ويقصدون من اشاعتها بين الناس لربط صلتهم بالجزيرة العربية والعرب على اعتبار انهم وإياهم ابناء عمومة وان جدهم واحد هو ابراهيم الخليل (ع)، في حين ان الواقع ان اليهود ظهروا إلى عالم الوجود في وقت متأخر ويمثلون ديانة اعتنقتها اقوام كثيرة من قوميات مختلفة من جملتهم العرب الذين حافظوا على قوميتهم ولغتهم وعاداتهم ولم يفرق بينهم وبين مجاوريهم من القبائل العربية غير الدين، شأنهم في ذلك شأن الأقوام الأخرى التي أخذ بعض اهلها بالديانة اليهودية.

إن بدوي الجزيرة العربية الرقيق الإحساس والمجبول على الفطرة والخيال الذهني والتعلق الروحي لم تعد نفسيته تتقبل عبادة الأصنام. فقد كان عرب الجزيرة آنذاك في صراع نفسي وديني شديد الحساسية بين الوثنية من جهة وبين اليهودية والمسيحية اللتين تدعوان إلى التوحيد من جهة أخرى. وقد كان

دين إبراهيم الخليل (ع) معروفا في الجزيرة العربية عند الحنفاء قبل اليهودية والمسيحية كما ينبئنا القرآن الكريم [١١] وقد استمرت الحساسية حتى نزول الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، حامل رسالة الإسلام إتماما لرسالة إبراهيم الخليل (ع) فتقبلتها الجموع بحماس بالغ وإيمان عميق. وأن الأنبياء والرسل يظهرون بوحي من الله سبحانه وتعالى في مثل هذه الظروف التي كانت سائدة في أرض الجزيرة العربية والتي تكون فيها الجموع أشد ما تكون بحاجة لمن يهديها إلى الصراط المستقيم. وفي ذلك يقول العالم الألماني ديتليف نيلسن "لا يوجد دين من الأديان قدر الله له النجاح في القضاء على الوثنية كما قدر للإسلام." [١٢].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن عرب الجزيرة المتهودة لم تلتزم بالتلمود لأن معظم هذه القبائل قد أخذت باليهودية قبل إنجاز التلمود كما أن انعزالهم في الجزيرة العربية قد جعل الاتصال بينهم وبين المدارس التلمودية التي أسسها الاحبار اليهود في فسطين وفي بابل (والفريق الأخير هو من بقايا السبي البابلي) متعذراً. لذلك فقد وجد يهود الجزيرة بعد اجلائهم من الجزيرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في حركة القرائين بزعامة عنان بن داود أحد علماء يهود العراق التي تناهض التلمود وتدعو للاكتفاء بالتوراة ما يتفق ومعتقد القبائل العربية المتهودة وهو معتقد بدوي خالص خال من التعاليم الاستعلائية المتزمتة التي يدعو إليها التلمود فانضم أكثرهم إلى هذه الفرقة [١٣].

وهناك ما يؤكد أن القبائل العربية المتهودة في الجزيرة قد حافظت على تقاليدها وعاداتها العربية ولم تندمج باليهود خارج الجزيرة، فيروي بنيامين التطيلي في رحلته التي دونها في القرن الثاني عشر بعد الميلاد عن وجود قبيلة عربية متهودة في الجزيرة العربية تدعى قبيلة بني ركاب كانت قد اقتبست الدين اليهودي ولكن من غير ان تندمج باليهود بل ظل أفراد هذه القبيلة محافظين على تقاليدهم العربية التي ورثوها عن الأجداد، فيقول: "وفي هذه الصحراء

(ويقصد بها الصحراء الواقعة بين اليمن والعراق) مضارب بني ركاب من عشائر تيماء. وفي تيماء يقيم شيخهم وزعيمهم الأكبر حنان وهبي صقع واسع الأرجاء، امتداده مسيرة ستة عشر يوما بين الجبال الشمالية وفيها القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لأية سيطرة أجنبية، وأهلها يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم من أبناء العرب للغزو والكسب في الاماكن البعيدة. وهم أعراب يعيشون عيشة الغزو في أرض اليمن "(١٤). ويقول عنهم قاموس الكتاب المقدس: "انهم لا يزالون يقطنون في بلاد جبلية إلى الشمال الشرقي من المدينة، وليس لهم علاقات مع يهود آسية ولا يمكنهم ان يرافقوا القوافل لان ديانتهم لا تسمح لهم بالسفر يوم السبت مع ان بلادهم محاطة بالصحاري حتى يكاد يستحيل الدخول إليها أو الخروج منها إلا مع القوافل". ويقدر الرحالة وولف عدد الركابيين بجوار مكة بنحو ٦٠٠٠٠ نسمة(١٥).

وهناك أيضا ما يدل على ان بعض القبائل المتهودة مالت إلى الإسلام بعد ظهوره، فمن بقايا القبائل العربية المتهودة في الجزيرة التي اعتنقت الإسلام بعد ظهوره قبيلة في منطقة خيبر، يفيد الرحالة دوتي الذي ارتاد الجزيرة العربية سنة ١٨٧٥: "إن هناك قرية في نواحي خيبر اهلها مسلمون ولكنهم لا يزالون محافظين على بعض التقاليد والتعاليم اليهودية ولا يخالطون غيرهم من القبائل المجاورة"(١٦).

٣- يهود الخزر:

وكانت أكبر الكتل المتهودة قبائل الخزر وهم من الأتراك المغول وطنهم في بلاد الخزر الواقعة في جنوب روسيا في جوار مصب نهر الفولغا في بحر الخزر (بحر قزوين)، (١٧) فقد اعتنق اكثر أهلها الدين اليهودي في العصور الوسطى، بعد اعتناق أميرهم اليهودية وبقيت تمارس الديانة اليهودية بحرية هناك حتى أواخر القرن العاشر الميلادي. وأقدم معلومات عن انتشار اليهودية في الخزر وصلتنا عن الرحالة العربي ابن فضلان الذي أوفده الخليفة العباسي

المقتدر بالله سنة (٣٠٩)هـ (٩٢١م) في بعثة إلى ملك البلغار، ففي طريق عودته مر بمملكة الخزر وبعاصمتها "أتيل" ووصف ما شاهده بتلك البلاد قال: "الخزر اسم المملكة والأتيل (العاصمة) قطعتان واحدة على غربي النهر المسمى "أتل" وهي اكبرها وقطعة على شرقيه والملك يسكن القطعة الغربية منهما ويسمى الملك بلسانهم (يلك) ويسمى أيضا (باك) وهذه القطعة الغربية مقدارها في الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور. . . وقصر الملك بعيد عن شط النهر وقصره من آجر وليس لاحد بناء من آجر غيره. . وملكهم يهودي ويقال ان له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل. . والخزروملكهم كلهم يهود وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته ويخاطبهم بالعبودية ويدينون له بالطاعة"[١٨] والمهم هنا تأكيد ابن فضلان ان الملك وخاصته مع انهم كانوا يهودا ولكن الغالب على أخلاقهم أخلاق اهل الأوثان". وهذا يدل على أن هذه العشائر عندما تهودت بقيت محتفظة بعاداتها ولغتها وثقافتها من جميع الوجوه مع ان ابن النديم يقول "إن الخزر كانت تكتب بالعبرانية وهو يقصد الكتابة بالحروف العبرية وليس باللغة العبرانية."[١٩]. وتعتبر رسالة ابن فضلان هذه الوصف الوحيد الذي تركه الرحالون العرب لدولة الخزر وعاصمتها "إتيل" في أوائل القرن الرابع الهجري[٢٠].

أما دخول اليهودية أول مرة الخزر فيذهب المسعودي إلى ان تهود ملك الخزر (الخاقان)[٢١] وأشراف البلاد قد تم في عهد هارون الرشيد (١٩٣-١٧٠هـ) (٧٨٦-٨٠٩م)[٢٢]. وقد ذكر المسعودي أيضا أن كثيرا من اليهود الذين اخرجوا من أنبراطورية الروم جاءوا إلى الخزر بعد اضطهادهم على عهد الانبراطور رومانوس (٩٤٤-٩١٩م)[٢٣]. وكانت اليهوديةآنذاك هي السائدة في الخزر لأن الخاقان والوالي وأمير سمندر في داغستان الذي كان يمت بصلة القربى لهذا الأمير وكبار العمال كانوا جميعهم على اليهودية مع ان اليهود كانوا اقل من المسلمين والنصارى من حيث العدد[٢٤]. وهذا نص ما كتبه المسعودي في هذا المعنى قال: "فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسهم

وقد كان تهود ملك الخزر في خلافه الرشيد وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم وذلك ان ملك الروم في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وهو ارمنوس نقل من كان في ملله من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم . . . فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرض الخزر على ما وصفنا " .

وتدل الحوادث التاريخية على ان اليهودية لم يكتب لها ان تدوم في الخزر حيث جاءت حملة الروس بعد حوالي قرن ونصف من دخول اليهودية إلى الخزر فقضت على مملكة الخزر بأكملها وتشرد أهلها وانتشر معظم اليهود في روسيا وأوروبا الشرقية . وقد أورد خبر هذه الغزوة واجتياح الروس لمنطقة نهر أتل ابن حوقل فعين تاريخها في سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م)[٢٥] ، وقد وصف ابن حوقل انهم قوم همج دمروا هذه البلاد وتركوها خرابا بلقعا وفر الذين نجوا من القتل إلى شبه جزيرة (سياه كوه) في بحر الخزر[٢٦] . وقد انتشر اليهود في أعقاب غزوة الروس على الخزر في أنحاء روسية ومنها إلى أوروبا الوسطى في مختلف الظروف ، ولا تزال اليهودية منتشرة بين هذه الشعوب فقد كانت روسية ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، موطن اكبر عدد من اليهود في العالم إذ بلغ عددهم سنة ١٨٩٧ (٥٨٩٤٠٠٠ نسمة) من مجموع ١١ مليون يهودي في العالم ، أي ما يعادل ٤ر١٣ بالمائة من مجموع سكان روسية وفي تقرير رسمي يرجع إلى سنة ١٨٤٢ ما يدل على ان عدد كنائس اليهود في روسيا بلغ ٦٠٤ كنيساً عدا ٢٣٤٠ بيتاً للصلاة و ٣٩٤٤ مدرسة و ٩٥٤ رابا[٢٧] . لذلك كانت المشكلة اليهودية واسعة النطاق وقد ظهرت لأول مرة في روسية . وقد هاجر مؤخرا عدد كبير منهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث خلقوا نفس المشكلة .

وعلى ذكر يهود الخزر يحسن ان نشير هنا إلى كتاب صدر حديثا بعنوان " الستار الحديدي حول امريكا " للكاتب الأمريكي جون بيتي[٢٨] تناول المؤلف فيه بحث تاريخ يهود الخزر فصب جام غضبه عليهم إذ اعتبرهم

دون يهود العالم الآخرين سبب المشاكل التي انهالت على أمريكا بوجودهم فيها، وذلك على أساس ان يهود الخزر دون بقية اليهود في العالم كانوا وما زالوا متعصبين تعصبا اعمى لليهودية والصهيونية إذ لم يسمح لهم رجال الدين في وسطهم ان يتحرروا من الطوق الديني الانعزالي الذي يعيشون فيه. لذلك فهو يحذر المسؤولين من العواقب الوخيمة من تأثير نفوذهم على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. وينتهي بعد ان يشرح الدور الذي يلعبونه في توجيه سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إلى وجوب تدارك الأمر قبل ان تتدهور مصالح أمريكا إلى الحضيض وتحل الكارثة، ويهيب بالمواطنين المخلصين المتمسكين بالمثل الأمريكية، وهم الأكثرية في البلاد، أن يتعاونوا على دفع الخطر فيحافظوا على سيادة الدولة ونفوذها في أنحاء العالم ضمن إطار الحضارة المسيحية، وذلك بتغيير السياسية التي تسير عليها الولايات المتحدة الأمريكية حاليا بتأثير مخططات اليهود (يهود الخزر بوجه خاص) ونفوذهم. وهذا لا يتم إلا بإجراء تطهير واسع في جهاز الدولة وتبديل البعثات الدبلوماسية إلى البلاد الإسلامية، ويقول المؤلف ان الدافع الذي حمله على وضع كتابه هو "تقديم معلومات مركزة عن المشاكل التي خلقتها فئة أقلية تحمل مبادئ تتنافى مع تقاليدنا وهي مندفعة بحماس لتحقيق أهداف تهدد مصالحنا مما يؤدي إلى الدمار بإثارة حرب عالمية ثالثة." وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٥١ فحاز شهرة واسعة حتى طبع خمس عشرة مرة بين سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٦. وقد أعدت دار النشر للجامعيين في لبنان ملخصا للكتاب باللغة العربية تحت عنوان "الصهيونية لعبتها أمريكي" (بلا تاريخ).*

٤- اليهود في مختلف أنحاء العالم:

يقسم بعض الباحثين المختصين يهود العالم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الأشكنازيون، السفارديون، الشرقيون.

وتنتسب طائفة الأشكناز إلى اليهود الألمان أو الذين ينحدرون من اصل ألماني عاشوا في القرون الوسطى في البلدان التي كانت تتكلم الألمانية ثم

امتدوا إلى الشرق والغرب وقد حافظوا حتى عهد قريب على لغتهم " اليديش " (Viadish) وكانت في أساسها اللغة الألمانية المستعملة في القرون الوسطى ، ثم دخلت عليها بعض المفردات العبرية وغيرها من المفردات الأجنبية ، وخرجت عن اللهجة الألمانية الأصلية وتكونت لها لهجات اختلفت باختلاف المناطق واللغات الأخرى المحيطة بها . وتكتب هذه اللغة بالحروف الارامية ولا تزال تستعمل مع فروق بسيطة ، لأن هذه الجماعات وهي من السلاف والجرمان اقتبست الدين اليهودي والكتابة بالحروف الآرامية معًا ، إذ لم تكن لها كتابة وقت اقتباسها الدين اليهودي . وقد جعل اليهود منها لغة أدبية في بولونيا وانتجوا بها أدبا شعبيًا ودينيًا . ومع ذلك بقيت اللغة اليهودية قائمة إلى جانب لغة " اليديش " بين يهود بولونيا وروسيا وان كانت لغة كتابة وليست لغة تخاطب . ومصدر تسمية " أشكنازيين " هو كلمة (شكناز) ومعناها اليهودية الحديثة " ألمانيا " والياء للنسبة والنون للجمع . والظاهر ان لفظة الاشكنازيين بعد ان كانت تطلق في أوائل القرون الوسطى على اليهود الألمان إلا أنها أصبحت في العصور التي تلت ذات مفهوم أوسع ، إذ لم تعد مقتصرة على ألمانيا وحدها بل شملت اكثر يهود أوروبا كيهود الجزر البريطانية وشمال فرنسة وكل ألمانية وقسمًا كبيراً من النمسا التي كانت تقطنها في ذلك الوقت قبائل السلاف . " وفي الحقيقة أصبحت الكلمة تدل على حضارة وليس على بقعة جغرافية وخصوصاً بعد القرن الثالث عشر " .

أما طائفة السفارديين فهم اليهود الذين انحدروا من اصل اليهود الذين هاجروا إلى شبه الجزيرة الأيبرية خصوصا بعد فتح المسلمين لها سنة ٧١١م وكان هؤلاء يتكلمون في إسبانية أول الأمر باللغة العربية حتى القرن الثالث عشر ، ثم اخذوا يتكلمون باللغة الإسبانية التي تمسكوا بها واعتبروها لغتهم التقليدية ، إذ كانوا في آخر عهدهم قبل ان يطردوا عن إسبانية سنة ١٤٩٢ م ثم سنة ١٤٩٦م " مارانيين " ، أي يتظاهرون بالمسيحية وهم يقومون بالعبادات والطقوس الدينية اليهودية سرا ثم عادوا إلى اليهودية بعد خروجهم من

إسبانية، وقد هاجر هؤلاء إلى جنوب أوروبا وشمال إفريقية وبلدان الشرق الأوسط وذهب بعضهم إلى لندن وأمستردام وهامبورغ ثم هاجروا إلى أماكن أخرى من العالم. وتعرف لغة السفارديين التي لا يزالون يتكلمونها باللادينو الاسبانية (Ladino) وهي اللغة الشائعة عند اليهود الفلسطينيين. وكلا اليديش واللادينو بقيتا على الأصل منذ القرن الخامس عشر مع ان الألمانية والاسبانية تغيرتا وتطورتا منذ ذلك الحين.

ويتميز السفارديون عن الأشكنازيين في الاختلاف في الثقافة، ذلك ان اليهود السفارديين كانوا على مستوى أعلى في الثقافة مستفيدين من حضارة العرب في اسبانيا واختلاطهم مع الشعوب الذين عاشوا معهم فجمعوا بين الثقافة الدينية والعلمانية بينما عاش اليهود الاشكنازيون منعزلين منطوين على أنفسهم متمسكين باليهودية وتعاليمها وتقاليدها الدينية. وقد برزت الفروقات والاختلافات بين الطائفتين بعد هجرة يهود إسبانية وانتشارهم في أوروبا ثم في الأمريكيتين وبعد اختلاطهم باليهود الاشكنازيين في أوروبا، فكان السفارديون يعتبرون أنفسهم اعرق نسبًا وأجل قدرا في المستوى الحضاري والاجتماعي من الاشكنازيين فلا يخالطونهم في معابدهم ولا يزوجون بناتهم منهم. وقد استمرت هذه التفرقة بين الطائفتين حتى القرن السابع عشر حيث كانت الطبقات المرفهة من اليهود ما تزال من طائفة السفارديين وحدها، وفي القرن الثامن عشر فقط بدأ بعض الأفراد وبعض المجموعات اليهودية من أوروبا الوسطى والشرقية في الحصول على مكانة متساوية إلى جانبهم.

وأما اليهود الشرقيون فهم الذين غادروا فلسطين اثر السبي والطرد وقد انتشروا في العراق وإيران وأفغانستان وفي دلتا مصر الغربية ومنها إلى سائر شمال إفريقيا، فبعض هؤلاء صاروا يتكلمون باللغات التي يتكلمها أهل البلاد التي نزحوا إليها والبعض الآخر بقي محافظًا على لغته الآرامية الحديثة فيما بينهم، وهي اللغة التي كانوا يتكلمونها قبل مغادرتهم فلسطين كاليهود الذين عاشوا في كردستان مثلاً.

وقد تبدل هذا التقسيم التاريخي بحيث اصبح المفهوم اليوم من كلمة اشكنازيين اليهود الغربيين الذين هاجروا إلى فلسطين من أوروبا وأمريكا مع ان كثيرين منهم من اصل سفاردي، والمفهوم من كلمة سفارديين اليهود الشرقيين الذين كانوا في فلسطين من هجرات قديمة والذين هاجروا إليها بعد قيام دولة اسرائيل من بلدان الشرق الأوسط ومن شمال إفريقيا. وقد انعكست الآية الآن في إسرائيل فبعد ان كان السفارديون يعتبرون أنفسهم اعرق نسبا واجل قدرا في الثقافة والحضارة من الاشكنازيين اصبح الاشكنازيون المسيطرون في إسرائيل اليوم ينظرون إلى اليهود الشرقيين القادمين من اليمن وأنحاء إفريقيا والهند وإيران، نظرة استخفاف واستهانة لتفوقهم عليهم في المستوى الثقافي والاجتماعي[٢٩].

ومما يذكر في هذا الصدد ان الحكومة العثمانية لم تعترف بالجاليات اليهودية الاشكنازية الغربية وقد ظل الحاخام الأكبر ينتخبه السفارديون الشرقيون حتى عهد الانتداب، عندما طالب الاشكنازيون بحاخام لهم وأجيب طلبهم، وهكذا اصبح لليهود في فلسطين حاخامان كبيران إلا ان حاخام السفارديين كان يلقب (الأول في صهيون).[٣٠]. وقد أجريت مؤخرا عملية انتخاب الحاخامين الأكبرين الجديدين في إسرائيل يوم ١٥ تشرين الأول ١٩٧٢ فانتخب شلوموا غورين حاخاماً اكبر لطائفة الاشكنازيين وأوفاديا يوسف حاخاماً اكبر لطائفة السفارديين الذين يصغر بثلاثين عاما عن سلفه الحاخام الأكبر اسحق نسيم والملاحظ ان السلف والخلف هما مواليد العراق.

يتضح مما تقدم ان اليهود الاشكنازين، وهم الأوروبيون المتهودون، لم يتسن لهم أو لأجدادهم ان يروا فلسطين في حياتهم ولم يكن لهم أية صلة بها وفي أي وقت، والغريب ان هؤلاء هم اليوم غلاة الصهيونيين وزعماء الصهيونية العالمية.[٣١].

٥- هل يكون اليهود جنسا أو عرقًا واحداً؟

يتضح مما تقدم ان اليهود الذين يقدر عددهم بحوالي اثني عشر مليون نسمة أو يزيد قليلا لا يتعدون كونهم طائفة دينية اجتماعية تضم شتى الأجناس واللغات والدماء، يسكنون في مواطن متباعدة، فمنهم يهود الخزر (الأتراك)، واليهود الألمان ذوو السحنة الجرمانية والشعر الأشقر، واليهود السلاف (الروس وسكان البلاد المجاورة لم)، واليهود الأسبان والبربر، ويهود الحبشة، واليهود الصينيون، واليهود الزنوج، والهنود وغيرهم. وكل هؤلاء لا يمتون إلى قوم موسى أو فلسطين بأية صلة غير صلة الدين (إن وجدت- خاصة وانا وجدنا اليوم ان الكثير ممن هاجر من روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ليس يهوديًا)(اضافة من الناشر). وهم متباعدون في الوطن وفي اللغة وفي الثقافة وفي الجنس. وأحسن مثال نورده في هذا الصدد ما ورد في مجلة مصر الإسرائيلية في عددها الصادر في ٣١ يناير سنة ١٩١٥ حول المهاجرين اليهود الذين نزلوا منطقة الكباري في مصر فرارا من الإرهاب التركي في فلسطين. فقد كان هؤلاء المهاجرون الذين لم يزد عددهم على ١٦٠٠ نسمة يتكلمون أربع عشرة لغة مختلفة.

إن ادعاءات الصهيونية في ان اليهود المعاصرين هم أنسال بني إسرائيل القدماء يحاولون بذلك الربط بين حركتهم السياسية وتاريخ بني إسرائيل الديني القديم في فلسطين لتبرير ما يهدفون إليه من إقامة دولة وكيان قومي لهم في فلسطين ادعاءات باطلة زائفة لا تستند إلى أساس علمي أو واقع تاريخي ولا يقرها المنطق، لان اليهود المعاصرين هم ابعد ما يكونون من بقايا يهود الشرق. والدليل على ذلك ان إسرائيل الصهيونية تنظر إلى يهود البلاد العربية نظرة بها تمييز وتفرقة.

ويؤكد هذه الحقيقة كثير من علماء الأجناس، فيقول العلامة "لامبروزو" : "إن اليهود المعاصرين أقرب إلى الجنس الآري منهم إلى أي جنس آخر وإنهم طائفة دينية تميزت بمميزات اجتماعية واقتصادية. وانضم

إليها عبر القرون أناس ينتمون إلى شتى الأجناس البشرية، وبينهم عدد من سكان الحبشة، ومن الألمان الآريين، ومن التاميل من الأقوام الهندية، ومن الخزر من الجنس المغولي، الذين تحولوا كما يقول المؤرخ اليهودي ابن ميمون إلى اليهودية في القرن العاشر، ثم دفعتهم الهجرات البشرية إلى أوروبا الوسطى والغربية. وقد أكد ذلك علماء بايولوجيون كثيرون منهم الأستاذ "جوزفيتيش" أستاذ علم الإنسان في الجامعة العبرية نفسها، فقد أجرى عدة تجارب بايولوجية على المهاجرين اليهود إلى إسرائيل وسجل النتائج التي توصل إليها في كتاب بين فيه ان اليهود ليسوا شعبا واحداً، بل هم طائفة دينية تضم جماعات مختلفة من الناس، اعتنقوا دينا واحداً، فنسبة ضئيلة من يهود الأقطار العربية هم من نسل يعقوب واسحق[٣٢]. أما يهود أوروبا الشرقية فينتسبون إلى قبائل الخزر، وأما يهود أوروبا فمن أصل أوروبي صميم وقد اعتنقوا الدين اليهودي بعد القرن الثالث الميلادي على أيدي مبشرين من اليهود[٣٣].

ويقول الأستاذ "يوجين بيتار" إن اليهود يعودون إلى طائفة دينية وهيأة اجتماعية دخلتها عناصر من أجناس متباينة الصقوا أنفسهم بها وأتى هؤلاء المتهودون من كل السلالات البشرية كفلاشا الحبشة والألمان الجرمانيين والتاميل - اليهود السود- والهنود والخزر والأتراك"[٣٤]. ثم يضيف إلى ذلك قوله: "ومن المستحيل ان نتصور ان اليهود ذوي الشعر الأشقر أو الكستنائي، والعيون الصافية اللون، الذين نلقاهم كثيرا في أوروبا يمتون بصلة القرابة- قرابة الدم- إلى أولئك الإسرائيليين القدماء الذين كانوا يعيشون بجوار الأردن."[٣٥].

ويؤكد ذلك المؤرخ الدكتور محمد عوض محمد بقوله: "والذين يزعمون أن اليهود جميعا من سلالة إسرائيل قلما يقفون لحظة واحدة لكي يذكروا لو ان هذا الوضع صحيح لكان اليهود في جميع أنحاء العالم متشابهين في السحنة والمنظر والتقاطيع، لأن قانون الوراثة يقضي حتما بأن تشبه الفروع

والأصول وتتشابه فيما بينها تشابهاً شديداً، ولو نظرنا إلى اليهود في مختلف أقطار العالم اليوم لوجدنا بينهم الشقر ذوي العيون الزرقاء والشعر الأصفر ورأينا بينهم السمر ذوي الشعر المجعد في هضبة الحبشة والسود في جنوب الهند والصفر المغول في الصين ورأينا بينهم الطوال القامة والقصار وذوي الرؤوس الطويلة والعريضة. ويوشك ان لا يكون هناك اختلافات بين السلالات البشرية اكبر مما نجده بين الجماعات اليهودية في مختلف القارات. وليس مما يقبله العقل ان تكون هذه الطوائف كلها منحدرة من سلالة جنسية واحدة. [٣٦].

يستخلص مما تقدم ان كلمة يهودي وان كانت مقتبسة من يهوذا إلا أنها أصبحت تطلق على كل شخص انتسب إلى الديانة اليهودية وأخذها كدين له، لأن اليهود في مختلف أنحاء العالم هم من سلالات وأجناس مختلفة كما تقدم إيضاحه ولا تجمعهم أية رابطة جنسية وراثية أو وشيجة لغة أو ثقافة بل تجمعهم العقيدة الدينية وحدها [٣٧] وهذا كله يسخف الادعاءات الصهيونية ومفاهيمها بأن اليهود يكوّنون شعبًا واحدًا من عرق واحد وقومية واحدة. فقد ورد في الكتاب الذي نشره المجلس الأمريكي لليهودية بعنوان " اليهودية دين لا قومية " ان الشعب اليهودي، بالمعنى السياسي والطائفي، ليس له وجود، وإنما كان يرمز بعبارة " الشعب اليهودي وشعب إسرائيل " إلى الناحية الروحانية " [٣٨].

ومن المهم ذكره في هذا الصدد ان اللغة العبرية التي يحاول الصهيونيون اليوم جعلها لغة رسمية باعتبارها لغتهم القومية لم تكن في أي زمن من عصور التاريخ لغة قومية يتخاطب بها اليهود فيما بينهم. فالعبرية كانت لغة الأحبار رجال الدين الذين كتبوا فيها التوراة في وقت متأخر (لغة الطقوس الدينية المتأخرة) وهي مقتبسة من الأرامية وحروفها مقتبسة من الأبجدية الكنعانية القديمة. فقد كانت الكنعانية لغة سكان فلسطين الأصليين أولى اللغات التي اقتبسها اليهود بعد ان حلوا في فلسطين على عهد موسى

وعهد الملوك، ثم اقتبسوا اللغة الأرامية وصاروا يتكلمون بها فيما بينهم شأنهم في ذلك شأن أقوام الشرق الأدنى الذين اخذوا بهذه اللغة، وفي شرق أوروبا اقتبسوا اللغة الألمانية القديمة (اليديش) وهي لغة الأشكنازين التي جاءوا بها معهم إلى فلسطين مؤخراً، كما جاء السفارديون بلغة اللادينو الإسبانية. هذا وقد اقتبس بقية يهود العالم لغات البلاد التي استقروا فيها، كل ذلك دليل قاطع على أن اللغة اليهودية لم تكن لغة قومية لليهود في أي زمن من أزمان التاريخ. وقد جاء الاعتراف بهذه الحقيقة على لسان زعماء حركة الاستدارة اليهودية (هاسكالا التي ظهرت في القرن التاسع عشر وهي تدعو إلى التجديد والإصلاح الديني، فأعرب هؤلاء عن شكوكهم في كفاية اللغة اليهودية للتعبير عن الأفكار العصرية وتنبئوا بزوالها المحتوم. فقد ذكر الكاتب اليهودي مارغوليوث في سلسلة مقالات نشرها في هذا الموضوع ان العبرية في أوروبا الغربية قد حلت محلها لغة البلاد وان هذه الحقيقة كافية لإقناع كل فرد بأن اللغة العبرية لا بد لها ان تختفي من الأدب مع التقدم العلمي، وإنها في روسيا ستمحى مع الزمن من مكانها إلى لغة البلاد الحية" وشاركه في هذا الاعتقاد أيضا، أي زوال اللغة العبرية كأداة ثقافية، الشاعر اليهودي غوردون الذي كان من أنصار الاندماج. [٣٩]

٦- الكيان اليهودي كيان ديني بحت:

لم يمارس اليهود في أي دور من أدوار التاريخ حكما زمنيًا قائمًا على جنس معين أو قومية ثابتة، فقد كانوا منذ عهد النبي موسى وما زالوا حتى يومنا هذا يمثلون جماعة يرتكز كيانها على الدين والدين وحده، إذ لم يألفوا غير السلطة الروحانية ولم يتقبلوا سواها. فكان حكامهم كهنة في أكثر الحالات، وفي عهد القضاة كان الحكام كهنة وأنبياء. وكذلك كان الوضع في عهد الملوك فكان الملوك خاضعين للسلطة الدينية التي يمليها الكهنة أو الأنبياء. ومما يذكر في هذا الصدد ان اليهود لم يظهروا في جميع أدوارهم بأي مظهر من مظاهر البطولة فقد جبلوا على الجبن والخوف حتى جعلوا إلههم وقفا لنزعاتهم

فهو الذي يحارب عنهم ويقهر أعداءهم نيابة عنهم: "الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون"[٤٠] "الرب يحارب عن إسرائيل"[٤١].

أما ما يختص بوضع دولة إسرائيل الحالية فيحاول الصهاينة ان ينفوا عن كون حكومة إسرائيل حكومة دينية في حين ان جميع الظواهر الاجتماعية والثقافية وحتى القضائية منها قائمة على الدين، ففي ذلك تقول الكاتبة الفرنسية مارتين مونو: "إن دولة إسرائيل تنفي عن نفسها أنها حكومة دينية، ومع ذلك فإن حياة المواطنة فيها مدموغة بالدين. فإعلان الاستقلال متشرب بالديانة كما ان مؤسساتها الدينية وعاداتها وقوانينها الدينية تفرض نفسها على كل شيء بل ولا يوجد سواها في أغلب الأحوال.. فدراسة التوراة إجبارية في المدارس اليهودية لست ساعات في الأسبوع بالنسبة لتلاميذ السنة الثامنة، أي الذين يتراوح سنهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة مقابل أربع ساعات للرياضيات وأربع ساعات للغة العبرية. ويلتزم مدرسوهم بتقديم عرض أسبوعي يستغرق ساعة كاملة حول الموضوعات التالية: الحركة الصهيونية منذ سبعين عاماً، الروح اليهودية وحرب الأيام الستة والنصر، تاريخ القدس، المدينة اليهودية منذ ثلاثة آلاف سنة... وإذا كانت الدراسة العادية تتضمن برامجها عدة ساعات لتلقين النصوص الدينية، فهناك إلى جانب ذلك مدارس دينية بحتة تمولها الدولة لان هناك (علاقة خاصة بين الدين والدولة في إسرائيل) على حد تعبير أحد المطبوعات الرسمية.. وهكذا يتضح تماماً طابع التعليم حتى غدا الخلط بين الدين والدولة مسألة مبدأ ان مما يطبع المواطن الإسرائيلي بالطابع اللاهوتي الضيق الأفق... وطبقا للقانون اليهودي فإن غير اليهودي المتزوج من يهودية ينجب أبناءاً يهوداً ولكن إذا حدث العكس فإن الأطفال لن يكونوا من أفراد الشعب المختار... والزواج المدني معدوم في إسرائيل فحتى اليهودي غير المتدين مجبر على عقد قرانه أمام حاخام والطلاق ديني شأنه شأن الزواج... وتطبق التعليمات الغذائية وقيود يوم السبت بحذافيرها في القوات المسلحة... والهدف النهائي من كل هذه القيود ليس احترام تعاليم الدين في حد ذاتها، وإلا لما لجأوا إلى كل هذه الاجتهادات، بقدر ما هو تذكير المواطنين الإسرائيليين دائما وفي كل مكان انهم ينتمون إلى اليهودية، ويتم ذلك منذ دخول المدرسة.."[٤٢].

" وهذا يتضح جليًا الآن حيث أن دولة الكيان الصهيوني تقوم بإعفاء المتدينين من الخدمة في الجيش وسواه ولا تفرض عليهم أية ضريبة ، بل تخضع جميع امكانات الدولة لتصرفهم خاصة المستوطنين منهم والمتشددين ، ونلاحظ كذلك محاباة المحاكم لهم " -اضافة من الناشر- .

وقد برهنت جميع الظروف التي مرت على اليهود على انهم لم يتقبلوا غير حكم الكهنة ، فلما نشب نزاع بين الجماهير اليهودية في أواخر عهد المكابيين حول نوع الحكم الذي ترغب فيه هذه الجماهير كانت الجموع تطالب بتشكيل حكومة دينية بدون ملوك ، ولما ان بعض الكهنة سموا أنفسهم ملوكا وحكموا على أساس سلطنة زمنية رفضهم الجمهور . وقد ظهرت فرقة من اليهود يسمى منتسبوها بالجليليين نسبة إلى يهوذا الجليلي كانوا ينادون انه ليس لليهود ملك إلا الله . والتاريخ يحدثنا كيف لجأت الفرق اليهودية إلى الحكام الرومان في آخر عهد المكابيين وصارت تطالب القائد الروماني بومبي عند مجيئه بالذات إلى اورشليم سنة ٦٣ق . م ك ، بأن يلغي الملكية ويعين لهم كهنة لا ملوكاً ، فاستجاب إلى طلبهم وعين هيركانوس الثاني المكابي تحت لقب " الكاهن الأعظم " وغدا اليهود بعد ذلك تحت حكم الرومان المباشر من جميع الوجوه عدا القضايا الدينية الصرفة التي تركت للكهنة[٤٣] .

ويكمن السر في استمرار اليهودية طوال عشرات القرون حتى يومنا هذا في كونها غير مرتبطة باعتبارات جغرافية أو جنس أو لغة قومية أو سياسية ، لأن الكيان الزمني والسياسي عرضة لتقلبات الدهر والزوال ، بينما استطاعت اليهودية كدين ان تستمر وتبقى على الرغم من جميع التقلبات . وخير مثال لذلك هو فشل الكنيسة المسيحية في محاولتها ان تجعل من كيانها سلطة زمنية وذلك بشن حروبها الصليبية على الشرق رجعت إلى نطاق عملها الديني البحت وزالت الدولة الصليبية وبقيت المسيحية وكذلك ستلقى دولة إسرائيل بوضعها الشاذ الحالي نفس المصير عاجلاً أو آجلاً .

الهوامش

(١) الدكتور محمد عرض محمد، الهلال (يوليو ١٩٧٤)، ٢٣-٢٩.

(٢) ويلز ، "معالم تاريخ الانسانية" ، الترجمة العربية، الكتاب الرابع، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٣) انظر ما تقدم عن هذه الفئة في الفصل الثالث.

(٤) الدكتور محمد عزة دروزة، "تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم" ص٣٢٦. ومما يذكر في هذا الصدد أن اليهود كانوا يحرضون الحكام الوثنيين الذين كانوا يشترونهم بأموالهم على المسيحية، وقد أفضى عداء الامبراطور الروماني ماركوس اورليوس الذي امتد حكمه بين سنة ١٦١ وسنة ١٨٠ إلى العداء للمسيحية إلى إصدار أمر بقتل جنوده العائدين من الحرب ممن اعتنقوا المسيحية القاطنين في روما وقتئذ. وقد استمر اضطهاد المسيحين حتى القرن الرابع الميلادي وعندما اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية(الدكتور محمد بحر عبد المجيد "اليهود في الأندلس".

(٥) تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف، ١٩٦٤، ص٤٢-٤٠.

(٦) ولفنسون "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ص١٣، نقلا عن غرائز.

(٧) ياقوت "معجم البلدان"، ج٤، ص٤٦٠-٣٨٥.

(٨) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٤٠ وما بعدها.

(٩) انظر: الدكتور محمد الحبيب أبن الخوجة، "يهود المغرب العربي"، ١٩٧٣، ص١٢-١١.

(١٠) انظر: ابن قتيبة، "المعارف" مطبعة دار الكتب، ١٩٦٠، ص٦٢١، القاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي، "طبقات الأمم"، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ٩١٢، ص٤٣.

(١١) "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما"؛ "حنفاء لله غيير مشركين به": "ملة ابرهايم حنيفا" (قرآن كريم).
انظر ما تقدم عن الحنفاء في الفصل الثاني- الفقرة ٨.

(١٢) نيلسن، " التاريخ العربي القديم"، ترجمة الدكتورة فؤاد حسنين علي، ص٧.

(١٣) ليبيرسي، "تاريخ الشعب اليهودي"، ص٢٣٥.

(١٤) "رحلة بنيامين التطيلي"، ص١٤٨.

(١٥) راجع مادة الركابيين في "دائرة المعارف اليهودية".

(١٦) "الصحراء العربية"، ص١٩٢.

(١٧) هو الفولغا الحالي الذي ينبع في شمال روسيا ويصب في بحر قزوين قرب

استراخان.

(١٨) ياقوت، معجم البلدان، الطبعة الاوروبية، ٤٠٠-٤٣٦: ٣ (مادة الخزر).

(١٩) ابن النديم، "الفهرست"، ص٢٠.

(٢٠) "رسالة ابن فضلان" تحقيق سامي الدهان، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٩؛ "دائرة المعارف الإسلامية" ٣١١-٣٠٥: ٨، ١٠٢-٨٨: ٤، ٢٥٦-٢٥٥: ١؛ "معجم ياقوت"، ٤٤٠-٤٣٦: ٢، ٧٢٨-٧٢٢: ١.

ان تاريخ الخزر ظل مجهولا لم يعن بدراسته إلا قلة من المتخصصين، ومن اقدم ما كتب في هذا الموضوع كتاب "تاريخ الخزر" للمؤرخ اليهودي الحاخام يهودا الحلبيي المولود في طليطلة، وهو يروي ان رسائل تبودلت بشأن هذا التهود الجماعي بين الفقيه اليهودي "ابن شابوب" (وزير خليفة قرطبة) وبين ملك الخزر يوسف، أحد اخلاف بولان "التحدي الصهيوني"، تأليف دومال وماري لورا، ترجمة نزيه الحكيم، ص٢٥). وذلك ما يدل على نفوذ اليهود السياسي في الأندلس في تلك الأزمان.

(٢١) ان زعيم الخزر كان يحمل اللقب التركي "قاغان" وبالعربية "خاقان"، ويقول ابن حوقل "ولن تنعقد الخاقانية إلا لليهود".

(٢٢) عينيي بعض الباحثين اعتناق ملك الخزر للديانة اليهودية في حدود سنة ٧٤١م، بينما عينه البعض الآخر في حدود سنة ٨٦٥م.

(٢٣) "مروج الذهب"، ج٢، ص

(٢٤) D.N. Dunlop, "The Jewish Khazars", N.Y., 1967, (Schockeb Book)

(٢٥) عين المؤرخ تاريخ غزو الخزر والقضاء على دولتهم في حدود سنة ١٠١٦.

(٢٦) ابن حوقل، "صورة الأرض"، الطبعة الأوروبية، ٢٨٦، ٢٨٢، ٢٨١، ١٤.

(٢٧) بارون، "اليهودي الروسي تحت حكم القيصر والسوفييت"، ص١٢٩، ٧٦.

(٢٨) John Beaty, "The Iron Curtain Over America", Dallas, Texax, 1965.

* إضافة من الناشر:
هذا ما نلاحظه هذه الأيام في السياسة الأمريكية الخارجية حيال الوطن العربي والقضية الفلسطينية خاصة، إذ نراهاه متطابقة تمامًا مع مواقف اليمين الصهيوني المتطرف الحاكم في إسرائيل (سياسة بوش والادارة الامريكية السابقة).

(٢٩) يقول الفريد ليلنتال في كتابه "إسرائيل": ان اليهود الشرقيين الذين اقنعوا بعد عام ١٩٤٨ بالهجرة إلى إسرائيل سرعان ما وجدوا أنفسهم ضحايا التعصب، ومع انهم اصبحوا يشكلون في النهاية خمسين بالمائة من مجموع إسرائيل فان اليهود المسيطرين من أوروبا الشرقية والغربية يعتبرونهم فئة أدنى...".

(٣٠) I. Cohen, "The Zionist Movement", Lonodn, 1954, p.731.

(٣١) لقد اعتمدنا في وضع النبذة عن الطائفتين اليهوديتين على دراسة هلدا شعبان صايغ بعنوان "التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل"، نشرها مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، دراسات فلسطينية ،
وعلى دراسة الأستاذ نجدت فتحي صفوة "اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى". وهذه بعض المراجع حول اليهود في مختلف أنحاء العالم:

J. Starr, "The Jews in the Byzantine Empire (641-1204)", 1939; A. Alt, "Die Urspruenge des Israelitichen Rechts", 1925; S.M. Dunbov, "A History of the Jews in Russia and Poland", 3vols., 1946; M. Lowenthal, "The Jews of Germany", 1947; C. Roth, "A History of the Jews in England", 1941; C.Roth "A History of the Jews in Italy", 1946; A.A. Neuman, "The Jews in Spain", 2 vols., 1942; g. Saron and L. Hotz, "The jews in South Africa", 1956; Graetz, "Les Juifs d'Espagne", Trad Stenne, Paris, 1872; L. Greenberg, "Jews in Russia", 2 vols., New Haven, 1953.

(٣٢) أن جورفيتش هذا بصفته يهوديا متمسكا بالتوراة يعتبر انه لا يزال يوجد من نسل يعقوب وإسحاق اللذين عاش من ٣٧٠٠ سنة مسايرا في ذلك التقليد الذي فرضته التوراة على الناس وقبلوه من غير تمحيص.

(٣٣) خيري حماد، "الصهيونية"، ص١٠٧-١٠٦.

(٣٤) يوجين بيثار، "الجنس والتاريخ"، ص٣٣٧.

(٣٥) نفس المرجع السابق.

(٣٦) الدكتور محمد عوض، "المسألة الصهيونية في نظر العلم"، ص٦.

(٣٧) انظر الدكتور محمد رشيد الفيل، "اليهود وعلم الأجناس"، ص٧٨.

(٣٨) العربي، العدد ١٤٣، تشرين الأول، ١٩٧٠، ص١٤٩.

(٣٩) انظر: "مجلة مركز الدراسات الفلسطينية"، م٢، عدد أيلول ١٩٧٣، ص١١٨-١١٧.

(٤٠) خر، ١٤: ١٤.

(٤١) يش، ٣: ٢٣، ٤٢: ١٠.

(٤٢) مارتين مونو، إسرائيل كما رأيتها، ص٤٧-٣٣.

(٤٣) Peake's Commentary on the Bible", p.806.

الفصل الخامس

لمحات من تاريخ يهود العراق القديم وصلته بيهود الشرق

تمهيد:

يذكر اليهود في كتبهم التي يعلمونها للنشئ الجديد أو التي ينشرونها بين الناس عن تاريخهم "ان الشعب اليهودي نزح إلى فلسطين من بلاد الرّافدين في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد بقيادة إبراهيم الخليل (ع) ولم يكن عددهم آنذاك يتجاوز أربعة آلاف شخص" [1] هذه التلقينات والمفاهيم تدرس اليوم في الجامعات والكليات الأوروبية والأمريكية دون ان يرد أحد عليها، ذلك لان الأساتذة الذين يضعون كتب التاريخ القديم أو يقومون بتدريسه هم على الأكثر من اليهود أو من المسيحيين المتعصبين للتوراة وللتقاليد اليهودية، وقد قَبلَ العرب هذا الهراء على علاته وصاروا يرددون الادعاءات اليهودية دون تمحيص أو دون ان يقفوا لحظة ليفكروا ويسألوا أنفسهم: أين كان اليهود في عصر إبراهيم الخليل (ع)، وكيف تم التوصل إلى إحصاء عددهم وهو أربعة آلاف نسمة، في حين ان اليهود لم يظهروا إلى عالم الوجود إلا بعد الألف الرابعة قبل الميلاد بـ ٢٧٠٠ سنة، أي في عهد موسى النبي (ع)؟ . . . ثم لا بد من التوضيح ان إبراهيم الخليل (ع) ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي بعد سنة ٤٠٠٠ ق.م. ب ٢١٠٠ سنة. هذا ما حدده العلماء لعصر إبراهيم الخليل (ع) في ضوء احدث الاكتشافات الأثرية [2]. وقد ورد أيضا في وثيقة إعلان الكيان الصهيوني في ١٤ أيار ١٩٤٨ ما يشير إلى ان تاريخ اليهود يرجع إلى ما قبل خمسة آلاف سنة، وهذا افظع تزييف للواقع التاريخي. ومن أقوال اليهود أيضا: " ان العرب فتحوا فلسطين بعد قيام الدعوة الإسلامية ولم يكن لهم وجود فيها قبل ظهور النبي محمد عليه الصلاة

والسلام، وقد نجح دعاة الصهيونية في ترويج هذه الخرافة حتى صدقها الكثير من الأوروبيين والأمريكيين، بل نجحوا فيها حتى صدقها أناس من العرب أنفسهم، فسمعنا منهم من يقول في أمريكا ان شأن اليهود في فلسطين كشأن الهنود الحمر في القارة الأمريكية". (العقاد، "الصهيونية وقضية فلسطين، ص١٢٣).

ولم يكتف اليهود بان جعلوا تاريخهم يرجع إلى عهود قديمة لم يكن لهم أي وجود فيها، بل ساروا على هذا النحو في إرجاع لغتهم العبرية إلى عهود قديمة لم يكن لهم فيها أي وجود، فقد اعتبروا وجود لغتهم العبرية أي اليهودية قبل دخولهم ارض فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وأطلقوا عليها اسم "عبرية التوراة" (Biblical Hebrew)، في حين ان العبرية التي كتبت فيها التوراة مشتقة من الآرامية ولم تظهر إلى الوجود إلا بعد مرور اكثر من ستمائة عام على دخول اليهود ارض فلسطين فكتبوا العهد القديم بها، والغريب ان اكثر الباحثين، بل كلهم، حتى الكتاب العرب اخذوا بهذا التزييف للواقع التاريخي على الرغم من اعتراف التوراة ذاتها بان اللغة القديمة في فلسطين هي لغة كنعان (اشعيا ١٩ : ١٨). وفي أسطورة من الأساطير التي يثبتها اليهود في كتبهم (الزوهر) "ان الاثني والعشرين حرفا من الأبجدية العبرية نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرون جيلا ونقشت هذه الحروف بقلم من نار ملتهبة"[٢]. ولقد صَدَقَ المجاهد العربي الأستاذ اكرم زعيتر حين قال "ان إسرائيل قد استعانت على اغتصاب بلادنا بتزييف الحقائق اكثر مما عنينا بإيضاحها".

والظاهر ان تقبل الناس لادعاء اليهود المذكور عبر فترة تمتد إلى ما يقرب من ٢٥٠٠ سنة ناشئ عن ان اليهود احتكروا لانفسهم المدونات التاريخية قبل الاكتشافات الأثرية في القرنين التاسع عشر والعشرين باعتبار هذه المدونات اقدم مرجع في الوجود فضلا عن الطابع القدسي الإلهي الذي اضفوه عليها، إذ لم يظهر أي دليل أو مصدر يستند إليه في نقضها أو مناقشتها

حتى ظهرت كتابات الأقوام التي سبقت عصر اليهود بعدة قرون وتم للعلماء حل رموز كل منها، مثل كتابات السومريين والاكديين والعموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والآشوريين والبابليين والمصريين والحبشيين وغيرهم، فكشفت هذه الكتابات المعاصرة عن زيف الادعاء المذكور، واصبح لدى العلماء مصادر كثيرة يستندون إليها في مناقشته والتشكيك به مقتحمين الحواجز القدسية التي كانت ولا تزال تفرضها الكتابات اليهودية. وهذه وصلت إلى أيدي المنقبين كما هي في الأصل وبلغاتها وبحروفها الأصلية على عكس ما عهدناه في كتابات التوراة من تباعد في اللغة وفي العصر. ويقدر عدد هذه الوثائق الأصلية التي تناولت مختلف شؤون الحياة في تلك الأزمان اكثر من نصف مليون قطعة عثر عليها بين أطلال مدن، منها حضارات الشرق الأدنى القديمة، بمختلف اللغات والحروف، ويعد العلماء هذه الاكتشافات اعظم إنجازات الإنسان في هذا العصر: فقد كشفت لنا هذه المدونات عن كثير من الأمور الغامضة، إذ أمكن في ضوئها التمييز بين الحقائق الواقعة والأساطير الخيالية والتحريفات المتعمدة في التوراة. وقد تمكن علماء الآثار من تعيين تواريخ الحوادث من هذه المدونات بصورة مضبوطة خاصة ما يتعلق بالأدوار المتأخرة، وكذلك تشخيص اكثر مواقع المدن والأماكن التي وردت في هذه المدونات وفي كتابات التوراة، مما جعل إمكان عرض الأحداث التاريخية القديمة بحسب تسلسلها الزمني وتوضيح علاقة الأقوام بعضها ببعض وتعيين أدوارها بشكلها الحقيقي بمقارنة الحوادث التي وردت في كل من المصدرين.

وفيما يلي نبذة عن تاريخ اليهود في العراق منذ وجودهم فيه لاول مرة مع شرح ما مر على وجودهم هذا من أحداث تاريخية وتطورات سياسية رسمت مصير حياتهم العامة في بلاد ما بين النهرين. واستناداً إلى أحدث وأدق المصادر التاريخية والأثرية يمكن تصنيف يهود العراق من حيث التسلسل الزمني ومن حيث قومياتهم ولغاتهم إلى ثلاثة أصناف، نعرض فيما يلي على وجه الاختصار أهم المعلومات التاريخية حول كل من الأصناف الثلاثة:

٢- اقدم وجود لليهود في العراق:

ان اقدم وجود لليهود في العراق يرجع إلى عهد الإمبراطورية الآشورية التي دامت حوالي ثلاثمائة عام ما بين سنة ٩١١ و ٦٢٦ ق. م.، وقد كان لقيامها أثر في تغيير وجه الشرق. فقد حكم في خلال هذه الفترة خمسة عشر ملكا بلغت الإمبراطورية في عهد بعضهم أوج عظمتها واتساعها بحيث ضمت جميع أراضي الهلال الخصيب ومن ضمنها مصر. وقد لعبت دوراً رئيسًا في القضاء على مملكة إسرائيل نهائيا وتحطيم مملكة يهوذا وسبي السكان اليهود إلى أماكن جبلية بعيدة في بلاد آشور (شمال العراق وميديا وتركيا) واحلوا محلهم أقوامًا من مختلف أنحاء الإمبراطورية الآشورية. فقد قام الملك تجلات بلاشر الثلاث (٧٤٥-٧٢٧ ق. م). بحملة على مملكة إسرائيل واستولى على أراضيها ما عدا السامرة وضمها إلى آشور وحمل سكانها اليهود إلى مختلف أنحاء المملكة [٣]، وفي السنة الأولى من حكم الملك سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ق. م.) تم الاستيلاء على السامرة والقضاء على مملكة إسرائيل نهائياً، وتبعا للخطة التي سار عليها تجلاث بلاشر الثالث اجلى سرجون الثاني يهود السامرة البالغ عددهم ١٧٢٨٠ نسمة إلى المناطق الجبلية في شمال العراق وتركيا وإيران وقد احل محلهم أقواما أخرى من داخل الإمبراطورية الآشورية الواسعة. ثم قام الملك سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ق. م) بحملة على مملكة يهوذا وأجلى عن مدنها مائتي ألف نسمة من اليهود إلى أماكن جبلية بعيدة أيضا وأحل محلهم أقواما أخرى. وكانت خطة الآشوريين ان يشتتوا السبايا في عدة أماكن نائية منعزلة لكي لا يتيسر لهم التجمع في مكان واحد والتكتل على أمل العودة إلى أراضيهم. وهكذا فقد أبعد الآشوريون سباياهم من اليهود في مملكتي إسرائيل ويهوذا إلى المناطق الجبلية المنعزلة في كردستان العراق وتركيا وإيران ضمن حدود الإمبراطورية الآشورية واحلوا محلهم أقواما أخرى من أنحاء الإمبراطورية حتى خفيت أخبار هؤلاء المسبيين، لذلك سماهم الباحثون "الأسباط المفقودة" .The Lost Tribes

والمعروف في التقاليد اليهودية ان هؤلاء هم الأسباط العشرة من مجموع الاثني عشر سبطاً. أما الذين نقلوا إلى جبال كردستان العراق، فشأنهم شأن الذين نقلوا إلى كردستان إيران وتركية، فقد كونوا لهم قرى بين السكان الأكراد في المنطقة، وبقوا منعزلين عن اليهود في فلسطين فقلدوا الأكراد في نمط معيشتهم حيث صاروا يمارسون الأعمال الحقلية الزراعية وتربية المواشي متمتعين بحماية رؤساء القبائل الكردية. ومن المهم ذكره في هذا الصدد ان هذه الجماعات من اليهود المسبيين في شمال العراق، رغم مرور حوالي ٢٨٠٠ سنة على دخولهم العراق، كانوا قبل هجرتهم إلى إسرائيل مؤخرا يتكلمون بلغتهم الأصلية، هي اللهجة الآرامية القديمة التي كانوا يتكلمون بها قبل سبيهم إلى هذه المناطق الكردية. وكانت تعرف هذه اللهجة بـ "الترجوم" ، وقد سميت كذلك لان الأحبار اليهود ترجموا في القرن الأول الميلادي الكتاب المقدس من العبرية إلى هذه اللهجة السريانية فسميت بـ "الترجوم" ، ويقصد بها الفرع الغربي من اللغة الآرامية الذي كان يستعمل في منطقة فلسطين واليها.

هذا هو الوجود الأول لليهود في العراق ويرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ويؤيد الباحثون نقلا عن هؤلاء اليهود الأكراد أنفسهم بأنهم أحفاد اليهود الذين سباهم كل من تجلات بلاشر الثالث سنة ٧٣٢ ق. م. وسرجون الثاني سنة ٧٢٢ ق. م. وسنحاريب سنة ٧٠٩ ق. م[٤]. وقد أيد ذلك بنيامين التطيلي الذي زار منطقة كردستان في القرن الثاني عشر للميلاد، فقال في كلامه على يهود العمادية في المنطقة الجبلية من شمال العراق: "يقيم بها نحو خمسة وعشرين ألف يهودي وهم جماعات منتشرة في أكثر من مائة موقع من جبال خفتيان (من جبال كردستان)[٥]. عند تخوم بلاد ماري (إيران). ويهودها من بقايا الجالية الأولى التي أسرها شلمناصر ملك آشور[٦]. ويتفاهمون بلسان الترجوم (اللهجة الارامية التي يتكلم بها يهود شمال العراق وقد سبقت الإشارة إليها) وبينهم عدد من كبار العلماء. والعمادية على مسيرة يوم من تخوم بلاد العجم يؤدي يهودها الجزية

للمسلمين شأن سائر اليهود المقيمين في الديار الإسلامية وقدرها دينار أميري ذهبا لمن بلغ منهم الخامسة عشرة من عمره "[٧] . وفي كلام بنيامين على (نهاوند)، وهي بلدة تبعد أربعين ميلاً عن همذان يقول: "وأرض نهاوند تبعد مسيرة خمسة أيام عن العمادية تسكنها طائفة لا تؤمن بدين الإسلام، يعتصم اتباعها بالجبال المنيعة ويطيعون (شيخ الحشاشين)[٨] ويقيم بين ظهرانيهم نحو أربعة آلاف يهودي، يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم وهم أشداء لا يقدر أحد على قتالهم، وبينهم العلماء التابعين لنفوذ رأس الجالوت ببغداد "[٩] .

٣- الأسباط العشرة المفقودة والمسيحيون النساطرة:

وقد توصل الدكتور غرانت الطبيب والمبشر الأمريكي الذي قضى عدة سنوات في منطقة كردستان وتجول في أنحائها التركية والعراقية والإيرانية إلى ان أكثرية يهود كردستان، احفاد سبايا الاشوريين، قد اخذوا بتعاليم السيد المسيح بعد ظهوره وصاروا يعرفو بالنساطرة نسبة الى القديس نسطور أو التيارية بالنسبة لتسميتهم القبائلية (١٠). والدكتور غرانت هذا حل بين النساطرة على رأس بعثة أوفدها مجلس البعثات التبشيرية البروتستانتية الأمريكية سنة ١٨٣٥، وبحكم مهنته كطبيب كان يسهل عليه التوغل بين المسيحيين والأكراد في تلك المناطق الجبلية الصعبة والمحفوفة بالمخاطر. فاتخذ الدكتور غرانت من اورمية مركزا لاعماله وأسس عشر مدارس في القرى المسيحية في مختلف أنحاء المنطقة ومدرسة واحدة للبنات داخلية في أورومية. وقد تعلم الدكتور غرانت لغة المسيحيين النساطرة وهي اللغة الآرامية السريانية وترجم بعض أقسام من الانجيل ومن العهد القديم إلى هذه اللغة وجلب مطبعة لطبع الكتب بها، كما تعلم الكردية مما سهل عليه إنجاز مهمته، وقد قضى الدكتور غرانت هو وعائلته ست سنوات في منطقة كردستان الواقعة في تركيا وإيران والعراق، وبعد دراسة عميقة لعادات هؤلاء النساطرة وتقاليدهم وطقوسهم الدينية واتصالاته بشخصياتهم الدينية والقبائلية وبخاصة اتصاله

بـطريقهم الأكبر الذي كان مقره في بلدة "جولامرك" الواقعة بالقرب من منبع خابور دجلة، توصل إلى ان النساطرة القاطنين في كردستان هم أحفاد الأسباط العشرة المفقودة الذين سباهم الآشوريون وأبعدوهم إلى مناطق آشور النائية، وهي المناطق التي ورد ذكرها في التوراة، وهي "حلح[11] وخابور نهر جوزان ومدن مادي"[12]. وتتوسط هذه المناطق التي تشمل مساكن أكراد العراق وإيران وتركيا مدينة نصيبين. وقد كانوا على رأي الدكتور غرانت يهودا عندما نفاهم الآشوريون إلى هذه المناطق الجبلية النائية، ثم لما ظهر السيد المسيح بعد حوالي سبعة قرون اتخذ معظمهم تعاليمه ديناً لهم، وذلك نتيجة البعثات المسيحية التي أوفدها الحواريون اتباع السيد المسيح إلى هذه المناطق للتبشير بتعاليم الدين المسيحي الجديد بينهم، وكان ذلك بعد وفاة المسيح بقليل كما يقول، مما يدل على ان الحواريين كانوا على علم بوجود الأسباط العشرة في تلك المناطق وكانوا على اتصال مسبق بهم[13]. وقد حافظ هؤلاء اليهود المتنصرون على تقاليدهم وعاداتهم القديمة التي هي نفس تقاليد وطقوس وعادات ولغة وملبس اليهود القاطنين في تلك المناطق وبينهم قلة لم يتنصروا، حتى انه كان من الصعب التمييز بين النساطرة وبين اليهود المجاورين لهم في المنطقة. ويذكر الدكتور غرانت انه شاهد مخوطاً بالسريانية لدى المار شمعون الرئيس الروحي للنساطرة يرجع إلى ما قبل اكثر من سبعمائة سنة يؤيد كون النساطرة أحفاد الأسباط العشرة. وقد أورد الدكتور غرانت أدلة كثيرة مفصلة لدعم ما توصل إليه بخصوص اصل المسيحيين النساطرة في كتاب نشره بالإنكليزية تحت عنوان "النساطرة أو الأسباط المفقودة" وطبع هذا الكتاب في نيويورك سنة ١٨٤١م[14]، ثم ترجم إلى الفرنسية وطبعت الترجمة في باريس سنة١٨٤٣[15].

ويرى الدكتور نيوزنر صاحب كتاب "تاريخ اليهود في بابل" ان الأدلة والقرائن التي أوردها الدكتور غرانت في دعم الرأي القائل بان النساطرة هم في الأصل من اليهود الذي نفاهم الآشوريون إلى منطقة كردستان ثم تنصروا

بعد ظهور السيد المسيح تقيم حجة قوية لتقبل هذه النظرية، ويشرح الأستاذ نيوزنر بصورة مفصلة انتشار حركة التنصر التي اجتاحت المجتمع اليهودي في العراق بعد ظهور السيد المسيح مع بيان أسبابها. فمن جملة الأسباب التي ذكرها التذمر من تحكم وتشدد الرابيين الذين كانوا يدعون بأنهم يمتلكون الحق والامتياز بتوجيه حياة الطائفة اليهودية حسب تفسيراتهم للتوراة والتلمود. ومن هذه الأسباب أيضا مضايقات الرابيين بتحريم اختلاط أبناء الطائفة اليهودية بالاغيار المجاورين لهم وقبول أية مساعدة منهم وذلك خوفا من تأثرهم بالديانات الأخرى غير اليهودية ومنها المسيحية. وكلما كان الوثنيون يشنون حملات الاضطهاد على اليهود كان الرابيون يمانونهم بالمسيح المنتظر الذي ينقذهم من آلامهم ومن عبوديتهم فيملكهم على العالم أجمع. ولكن الانتظار الطويل دون تحقيق هذه الأمنية ولّد روح التذمر في نفوسهم. وفضلا عن ذلك كان الرابيون يفرقون بين بعض الطبقات من أبناء الطائفة اليهودية مما حمل الطبقة المهانة على الميل إلى تقبل الدعوة المسيحية التي تبشر بالاخوة وبالمساواة مقابل التفسيرات التلمودية التي وضعها الرابيون والتي تأمر بالعزلة وتدعي بالاستعلاء والتفوق على بقية الناس من غير اليهود. وقد أقلقت حركة التنصر هذه بين اليهود وانسيقاهم نحو المسيحية الرابيين بحيث أصبحت تجابههم مشكلة حرجة وعويصة في مجرى حياة اليهودية، ولكن كل المحاولات المبذولة في سبيل إيقاف وتجميد هذه الحركة باءت بالفشل، وصارت الجماعة المتنصرة تعرف بـ "المينيم" Minim والشخص اليهودي المتحول إلى النصرانية بـ "المين" Min حتى صار كل مسيحي من اصل يهودي يعرف بهذا الاسم لتمييزه عن بقية المسيحيين[١٦].

٤- إمارة حدياب اليهودية :

ومما يذكر ان هناك إمارة واسعة ازدهرت في القرن الأول بعد الميلاد في نفس منطقة كردستان التي نقل إليها اليهود الذين سباهم الآشوريون (الأسباط العشرة) تدعى إمارة حدياب Adiabene وبالعبرية "حزة"، وهي من ضمن

أراضى آشور القديمة تقع شرقي نهر دجلة في منطقة كردستان وتمتد بين نهر دجلة وأذربيجان ثم توسعت لتشمل بلدة نصيبين غرباً. وكان ملك هذ الإمارة المدعو "أيزاط" يهوديا كما كانت الملكة الأم المدعوة "هيلانة" يهودية أيضا[١٦]. أما عاصمة الإمارة فكانت مدينة أربيل. وقد اعتلى "ايزاط" عرش الإمارة سنة ٣٦ بعد الميلاد وامتد حكمه فيها حتى توفي سنة ٦٠ ب.م. وقد دام حكم هذه الإمارة ٧٩ سنة حيث غزاها تراجان إمبراطور روما في سنة ١١٥ أو ١١٦م[١٧]. ولما كان أهل حدياب من الارامـيين لغةوجنسا فالارجح ان الملك "ايزاط" كان قبل تهوده آراميا يدين بالوثنية. وقد التزمت هذه العائلة الملكية اليهودية بولائها وإسنادها لليهود في القدس مما يدل على انه كان منذ القديم اتصال بين الأسباط العشرة في كردستان وبين اليهود في القدس. يقول الاب ادي شير في وصف إمارة حدياب: "أما حدياب وسماها العرب حزة فموقعها بين الزابين وكانت تمتد إلى اتور والى نصيبين أيضا وكانت قاعدتها مدينة اربيل وفي الجيل الأول للمسيح كان يملك فيها ملك اسمه ايزاط.. وقال عنه يوسفوس المؤرخ اليهودي انه اعتنق الديانة اليهودية على يد حنينا، واشتهرت امه هيلانة بأنها في مجاعة حدثت في زمانها في أورشليم جلبت القمح من مصر ووزعته على أهل أورشليم، وفي أيام ايزاط دخلت نصيبين تحت حكم أربيل"[١٨].

وكانت إمارة حدياب في عهد حكم ايزاط وما بعده موالية لحكم الفرثيين لذلك كانت تتمتع بالإسناد من ملوكهم، وقد لعبت دورا مهما في العلاقات السياسية والعسكرية في الشرق الأدنى فغذّت بموافقة الفرثيين وتأييدهم ثورة اليهود ضد الرومان بين سنة ٦٦، سنة ٧٠ للميلاد كما كانت تسند الفرثيين في حروبهم مع الرومان[١٩].

ويقول الدكتور غرانت في كتابه المتقدم ذكره ان عدد النساطرة في منطقة حدياب التي كانت تحت حكم ملك يهودي في خلال القرن الأول للميلاد يبلغ مائة ألف نسمة، وقد كان أجداد هؤلاء يهودًا من الأسباط العشرة قبل تنصرهم في أعقاب ظهور السيد المسيح وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

٥- مستوطنة "جزيرة الفيلة" اليهودية في مصر:

وقد عثر على وثائق جنوبي مصر نشرت بين سنة ١٩٠١- وسنة ١٩١١ تشير إلى ان هناك مستوطنة يهودية على هيئة حامية عسكرية يسمى زعيمها وكاهنها الأعلى "بدونيا" (Pedonia) كانت قد أنشئت على الحدود الجنوبية المصرية مقابل اسوان. وهذه هي "جزيرة الفيلة" على النيل سميت باليونانية "ايليفانتين" (Elephanitine) للتعبير عن اسمها المصري القديم "يب" ومعناه مدينة الفيلة. وتعود هذه الوثائق، وقد كتبت على ورق بردي بالآرامية، إلى القرن الخامس قبل الميلاد، أي إلى عصر اكسركسيس (٤٨٦-٤٦٥ ق.م). وأرتاكسر كسيس الأول (٤٦٥-٤٢٥ق.م). ودارا الثاني (٤٢٣-٤٠٤ق.م). من عهد الاخمينيين الذين حكموا فارس اكثر من قرنين (٥٥٠-٣٣٠ ق.م). وتبرز هذه الوثائق في أهميتها حيث تلقي ضوءا على ما كانت عليه مصر في هذه الحقبة من الزمن وبخاصة عندما كانت مصر تحت حكم الاخمينيين في عهدي ارتاكسر كسيس الأول ودارا الثاني.

وقد اختلفت الآراء حول أصل هذه المستوطنة اليهودية القديمة و أسباب وجودها هناك في تلك الازمان، فيرى أو سترلي (M. Oesterly) ان آشور بانيبال (٦٦٩-٦٢٦ ق.م). لماقام بحملته على مصر جند جيشا من الأسباط العشرة التي سباها الآشوريون إلى العراق والى ميديا وأسس حامية منهم لحماية الحدود الجنوبية المصرية بعد انفصال الحبشة عن مصر، في حين يرى سبنير (M.S. Spinner) ان أهل الحامية هم من اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى طوروس. وقد ذكر ان منسي ملك يهوذا (٦٨٦-٦٤١ق.م.). مد آشور بانيبال بالمقاتلين من اليهود في حملته على مصر. كما ورد في رسالة اريستيا أن الملك بساميتيك الثاني (٥٩٤-٥٨٩ ق.م)، ويشير هيرودوتس إلى وقوع تمرد في حامية أيليفانتين في زمن الوثائق (٤٥٠ ق.م). فيذكر ان ايليفانتين هي ثلاث محميات للفرس في مصر.

ويستدل من منطويات وثائق ايليفانتين ان رجال الحماية اليهود كانوا يتكلمون بالآرامية، وهي نفس اللغة التي كانوا يتكلمون بها في فلسطين، وكان لهم هيكل لالههم يهوه ولبيت ايل مع انه ورد ذكر أسماء بعض الآلهة الكنعانية مقرونة بالإله يهوه مثل الالهة عانات الكنعانية مما يدل على ان هذه جيء بها من كنعان[٢٠].

٦- مصير يهود كردستان العراق:

كان الصهيونيون يحرصون كل الحرص على تهجير يهود كردستان العراق إلى إسرائيل من دون بقية اليهود في العراق، وذلك لكونهم أصحاء الجسم يمتهنون الزراعة وتربية المواشي، فهم يصلحون اكثر من غيرهم من اليهود كاياد عاملة في الحقل، وفضلا عن ذلك فهم لا يزالون متمسكين بديانتهم الأصلية ولا يخشى منهم مشاركة العرب في شعورهم نحو القضية العربية لان لغتهم الثانية، بعد اللغة الآرامية الام التي يتكلمون بها، هي الكردية وليت العربية. وقد افلح الصهيونيون في تهجيرهم إلى إسرائيل بالاتفاق مع الحكومة العراقية القائمة آنئذ تحت ضغط وتهديد مصطنع، وذلك استنادا إلى القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء في ٩-٣-١٩٥٠ عن اليهودي العراقي الذي يرغب باختيار ترك العراق نهائياً.

وترجع فكرة تهجير يهود كردستان إلى فلسطين إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، فقد استخدمت الدعوة الصهيونية كل وسائل الإغراء والعطف الديني لحثهم على الهجرة إلى فلسطين لاستخدامهم في الأعمال الزراعية، وجرت محاولة لتوطينهم في مستعمرات الجليل وعمل بعضهم مع الهاشومير الأوائل. وظلت الهجرة إلى فلسطين من البلاد العربية رغم الدعايات الصهيونية محدودة، إذ حتى عام ١٩١٩-١٩٤٨ لم يهاجر إلا ٧٩٨٨ (معظمهم من كردستان)"[٢١].

٧- الصنف الثاني من يهود العراق :

بعد انقراض الدولة الآشورية بسقوط نينوى سنة ٦١٢ ق . م . اقتسم الماذيون والكلدانيون ممتلكاتها فوقعت حصة الكلدانيين في سورية والعراق، وتأسست على أثر ذلك الدولة البابلية الكلدانية التي دام حكمها ٧٣ سنة بين سنة ٦٢١ و ٥٣٩ ق . م . والذي يهمنا من حكم هذه الدولة قضاؤها على مملكة يهوذا وسبي اليهود إلى بلاد بابل، وقد أنجزت هذه العملية على عهد نبوخذ نصر الثاني "[٢٢]، وهو أعظم ملوك هذه الدولة، حكم البلاد ٤٣ سنة بين سنة ٦٠٥ وسنة ٥٦٢ قبل الميلاد، وذلك في حملتين، الأولى في سنة ٥٩٧ ق . م . والثانية في سنة ٥٨٦ ق . م . ففي الحملة الأولى سبى نبوخذ نصر كل يهود أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف صبي وجميع الصناع والاقيان، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض، كما سبى " يهوياكين " (ملك يهوذا) وأمه ونساءه ورجاله من أورشليم إلى بابل . وفي الحملة الثانية قضى على مملكة يهوذا نهائياً فخربت أورشليم ودمرت تدميرا كاملاً، فأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء وسلبت الخزائن ونقلت إلى بابل، وقد خمن عدد الأسرى الذين سيقوا إلى بابل ليلتحقوا باليهود من السبي الأول بحوالي ٥٠ر٠٠٠ شخص . وهؤلاء كالذين سباهم الآشوريون إلى بلاد أشور كانوا يتكلمون ما بينهم باللهجة الآرامية الخاصة بهم (الترجوم) . ويرجع تاريخ دخولهم العراق إلى الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد . ومن المهم ان نلاحظ هنا ان الكلدانيين، بخلاف الآشوريون الذين ابعدوا سباياهم من اليهود إلى مناطق جبلية نائية منعزلة، جاؤا بسباياهم من الأسرى اليهود إلى منطقة بابل وأسكنوهم في جوار مدنهم وقراهم مما مكنهم من التجمع في المنفى والاستمرار في ممارسة تقاليدهم وطقوسهم الدينية وتكوين مجتمعهم الخاص بهم . وقد اقتبسوا لغة الكلدان ثم اللغة العربية التي حلت محل اللغة الآرامية التي كانت شائعة في كل بلاد الشرق الأدنى . لذلك قد يصح ان نطلق على

جماعة هذه الهجرة اليهودية اسم اليهود المستعربين على أساس أخذهم باللغة العربية مع مرور الزمن.

٨- اليهود في بابل:

وتدل الأخبار على ان اليهود المسبيين في بابل استقروا في وسط السهل الواسع الممتد بين نهري دجلة والفرات حيث كان في هذه المنطقة أربع مدن رئيسية هي: "نهر دعة"[٢٣] و "فومبديثة"[٢٤] و "سورا"[٢٥] على نهر الفرات و "الماحوزى"[٢٦] على نهر دجلة بجوار "طيسفون"، فاستقر التجار والصناع وأرباب الحرف والعمال في هذه المدن الاربع بحيث أصبحت مدن يهودية أكثرية سكانها من اليهود، كما انتشر الباقون في الأرياف خارج المدن المذكورة، حيث أقاموا مزارع وقرى وأخذوا يمارسون الزراعة على الري وتربية المواشي، فحفروا شبكة من الجداول من نهر الفرات لإيصال المياه إلى الأراضي الزراعية بحيث تحولت هذه المنطقة إلى حقول مثمرة ومزارع كثيفة[٢٧]. وفي هذه المدن الاربع أسس اليهود مدارس دينية كبرى تولى إدارتها والتدريس فيها كبار الأحبار اليهود الذين نزحوا من فلسطين على اثر اضطهاد الرومان لهم. وقد تعاونت هذه المدارس فيما بينها في إخراج التلمود المسمى بالتلمود البابلي لتمييزه عن التلمود الذي وضعه الرابيون في فلسطين. ومن المدن اليهودية في بابل "تل أبيب" وهي تسمية بابلية معناها "تل سنابل القمح ومدينة "نهر بيكود" ومدينة "هوزال"، وقد أنشئت مدرسة دينية يهودية في مدينة هوزال في أعقاب ثورة باركوخبا سنة ١٣٢م. وكان اليهود يعيشون في هذه المنطقة في ظل حكم ذاتي معترف رسمياوسياسيا برئيسهم الأعلى، وهو "رأس الجالوت" كما صار يسميه العرب فيما بعد. ورأس الجالوت اصطلاح عربي أطلق على رئيس الطائفة اليهودية، وأصل اللفظة ارامي تعني راس الجالية وكان اليهود يطلقون عليه لقب "ريش جالوتا". ففي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) تولى رئاسة الجالوت بستناي بن حنيناي سليل رؤساء الجالوت في عهد الخلفاء العباسيين. وكان مقر رأس

الجالوت في مدينة "سورا" ، وكانت سلطة رأس الجالوت كما ينبئنا بنيامين التطيلي في رحلته (ص ١٣٥-١٣٨) تسري على جميع الطوائف اليهودية المنتشرة في العراق وفي بلاد خراسان واليمن وجزيرة ما بين النهرين وارمينية واذربيجان وجورجيه حتى شواطئ نهر جيحون وحدود سمرقند والتبت وديار الهند. وبعد تأسيس مدينة بغداد في عهد المنصور سنة ٧٦٢ انتقل رأس الجالوت إلى العاصمة الجديدة. ومما يدل على ان الطائفة اليهودية كانت تتمتع بشبه استقلال ذاتي وتمارس طقوسها الدينية بكل حرية في العهد الإسلامي ان الخليفة المأمون أمر سنة ٨٢٥م بوجوب عدم تدخل السلطات الحكومية في الشؤون الدينية والإدارة الخاصة باليهود والنصارى والمجوس[٢٧] .

ومن المهم ذكره في هذا الصدد ان اليهود قد استفادوا في أثناء وجودهم في الأسر في بابل من حضارة البابليين وثقافتهم فاقتبسوا الكثير منها وخاصة ما يتعلق بفنون الزراعة والتجارة، فأخذ أكثرهم يمارسون الزراعة التي تعتمد على الإرواء الدائم بما في ذلك أساليب شق الجداول وتطهيرها وطرق الارواء. وفي بابل مارسوا شعائرهم الدينية وواصل كهنتهم أعمالهم ومنها كان نشوء التعاليم اليهودية المعروفة باسم "التلمود البابلي"[٢٨]، حتى ليقال ان السبي البابلي كان عاملا قويا في تطور الدين اليهودي في القرون التالية.



خارطة تبين منطقة حدياب في شمال العراق ومنطقة بابل في الجنوب اللتين سُبي اليهما اليهود في زمن الاشوريين وفي زمن الكلدانيين .

٩- اليهود في زمن الفرس الاخمينيين (٥٣٨-٣٣٢ ق.م):

ولما فتح كورش الاخميني الفارسي بلاد بابل (٥٣٩-٥٣٨ ق.م). سار في فتوحاته حتى احتل سورية وفلسطين ومن ضمنها أورشليم، فسمح لمن أراد من أسرى نبوخذ نصر (أسر ٥٩٧ وأسر ٥٨٦ ق.م)، الرجوع إلى فلسطين، وأعاد إليهم كنائز الهيكل التي كان قد سلبها نبوخذ نصر وأمر بإعادة بناء الهيكل في أورشليم على نفقة بيت الملك [٢٩] فعاد فريق منهم. ويرجح المؤرخون ان الذين رجعوا انحصر في أولئك الذين لم يفلحوا كثيرا في الأرض الجديدة والمتعصبون لاعادة بناء الهيكل، لان الدلائل تشير إلى ان هناك عددا غير قليل قد أصاب النجاح في بلاد بابل فأثْروا وأصبحت لديهم ممتلكات كثيرة فضلوا البقاء وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة المصير. فعين أول حاكم على الجالية ليهودية في أورشليم شخص يدعى "رزوبابل" وهو تابع إلى الدولة الفارسية، فشرع "رزوبابل" هذا في بناء الهيكل، إلا ان الأقوام المجاورة كالحوريين والحيثيين والعمونيين والاروميين احتجوا على ذلك وهددوا بالعصيان، فاصدر "سرمديس" خلف قمبيز الثاني سنة٥٢٢ ق.م. أمرا بتوقيف عملية البناء، ولكن دارا الأول اتاح لهم الاستمرار في البناء وأتموا البناء على عهده سنة ٥١٥ق.م.

وكان اليهود يتكلمون فيما بينهم في بابل باللغة الآرامية، إذ كانوا في بابل وحتى بعد عودتهم إلى أورشليم يتكلمون باللغة الآرامية، وقد اقتصرت العبرية على الكتب الدينية وعلى الكتب المقدسة [٣٠]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد استمرت المدارس الدينية في بابل تقوم بمهمتها ثمانية قرون حتى أغلقت في خلافة القادر بأمر الله (٩٩١-١٠٣١م)، ومن ثم انتقل مركز اليهود العلمي إلى الأندلس، فأسسوا في مدينة قرطبة مدرسة صار طلاب العلم يئمون إليها من كل بلد. وقد نبغ منها جماعة انصرفوا إلى درس فلسفة أفلاطون فخرجوا عن السلطة الدينية التي كانت متمركزة في مدينة سورا. وقد

اشتهر بين فلاسفة مدينة قرطبة موسى بن ميمون الذي كان اجتهاده منصبا على التوفيق بين فلسفة أفلاطون والأسفار المقدسة. ثم تدهورت الدولة الأموية في الأندلس فتعرض اليهود للاضطهاد. وفي أواخر القرن الخامس عشر طرد اليهود من إسبانيا فاضمحلت الفلسفة اليهودية التي كانت تشغل المحل الثاني بعد الفلسفة العربية في عصر كانت أوروبا غارقة في ظلمات الجهل ("مخطوطات البحر الميت" تأليف ميللر بروز، ترجمة محمود العابدي، ص٤٦).

١٠- اليهود في زمن الإغريق:

وكان اليهود الذين رجعوا إلى فلسطين في عهد الفرس قد تجمعوا في منطقة أورشليم على الأكثر وقد تمتعوا في خلال حكم الفرس ببعض الامتيازات الخاصة بحرية ممارسة شعائرهم الدينية، وما ان حل العهد الإغريقي (٣٣٢- ٦٤ ق.م) حتى أصبح وضعهم يتأرجح بين المد والجزر فتارة يقعون تحت حكم البطالمة في مصر وتارة أخرى تحت حكم السلوقيين في سورية، وكانوا يستفيدون في بعض هذه الأدوار من الخلاف المستحكم بين هذين الفريقين اليونانيين الحاكمين في الشرق في التمتع بالحكم الكهني الذاتي، ولكنهم لاقوا أسوأ الحالات في عهد الملك السلوقي انطيوخس الرابع(ابيفان) (١٧٥-١٦٤ ق.م). فدمر هذا الملك الهيكل ونهب خزائنه وأجبر اليهود على نبذ اليهودية واعتناق الوثنية اليونانية. وهنا أخذ الصراع بين اليهودية والإغريقية يشتد يوما بعد يوم حتى اندلعت ثورة المكابيين، وقد أطلق على عصرهم الذي دام حوالي القرن وربع القرن (١٦٦-٣٧ ق.م). اسم العصر المكابي.

١١- اليهود في زمن الرومان:

وبعد تغلغل الرومان في الشرق وتغلبهم على السلوقيين في سورية أصحت فلسطين تحت حكم الرومان، ففي سنة ٦٤ ق.م. احتل القائد الروماني بومبي سورية وضمها إلى رومة، وفي السنة التالية دخل بومبي

أورشليم وجعلها تابعة لحاكم سورية الروماني. ولم يكن اليهود في هذا العهد أحسن حالا مما كانوا عليه في العهد الإغريقي، فكانوا بين المد والجزر أيضا في ظروف مضطربة ناجمة عن صراع الزعماء الرومان ما بينهم على الحكم، ففي عهد قيصر مثلا (٤٩-٤٣ ق.م). كان اليهود يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وبحكم كهني ذاتي، ثم بعد اغتيال قيصر سنة ٤٤ ق.م. نشب خلاف بين اوكتافيان وانطونيوس أدى إلى القتال بينهما سنة ٣٠ ق.م. انتصر فيه اوكتافيان فتولى زمام الحكم بصفته أول إمبراطور روماني وسمي "أغسطس". وفي هذه الفترة كان "انطونيوس" و "اوكتافيان" قبل نشوب الخلاف بينهما قد عينا "هيرودس الارومي" ملكا على يهوذا وعلى الجليل سنة ٣٩ ق.م. واستمر حكمه في فلسطين حتى وفاته سنة ٤ ق.م. ففي عهده أعيد بناء الهيكل في أورشليم ولكن اليهود كانوا يمقتونه لقساوته الوحشية ولاندفاعه في نشر الثقافة اليونانية والرومانية وإنشائه معابد للأصنام في المدن الفلسطينية. وبعد وفاة "هيرودوس" اضطربت الأحوال على يد موظفين رومانيين سيئي السيرة قساة التصرف، ومن أهم ما تخللته هذه الفترة من إحداث محاكمة السيد المسيح (ع) وصلبه سنة ٢٩ م على ما جاءت به الأخبار. ثم عين "هيرودوس اغريبا" حفيد "هيرودوس" ملكا على فلسطين في عهد الإمبراطور "كاليجولا" (٣٧-٤١م) والإمبراطور "كلودس" (٤١-٥٤م) فساد الهدوء في البلاد نبسيا إلا ان الاضطرابات والفوضى عادت بعد وفاة "هيرودس غريبا" سنة ٤٤ م. فقد تولى في الفترة بين سنة ٤٤ و ٦٦م سبعةمن الحكام الرومانيين كلهم سيئوا الأخلاق ومرتشون حتى وقع الانفجار في ربيع سنة ٦٦م فاذا به ثورة عارمة شاملة على الحكم الروماني. وبعد سلسلة من المعارك في عهد الإمبراطور نيرون (٥٤-٦٨م) وخلفه وسبسيان أودعت القيادة في فلسطين إلى "تيطوس" ابن الإمبراطور "وسبسيان" فسيطر على الموقف وتمكن من القضاء على الثورة فدخل أورشليم سنة ٧٠ م وأوقع مذبحة مريعة بأهلها وخرب المدينة واحرق هيكلها وذبح كهنته، فازيل الهيكل من الوجود تماما بحيث لم يعد يهتدي الناس إلى موضعه، وقد سيق

الأحياء الباقون عبيدا. فذكر المسعودي ان عدد القتلى من اليهود والمسيحيين بلغ ثلاثة آلاف ألف[٣١].

وهكذا قضي على الكيان الذاتي الديني لليهود في فلسطين ومن ضمن ذلك التنظيمات الإدارية الدينية المتمثلة بالسنهدرين (المجلس الديني اليهودي الأعلى)، فساد الهدوء حوالي نصف قرن، ثم اشتعلت نيران ثورة جديدة بقيادة "باركوخيا" أحد زعماء اليهود فاعتصم هو وأعوانه في المناطق الجبلية الحصينة وأخذوا يقاتلون قتال حرب عصابات، وظلوا معتصمين بمواقعهم ثلاث سنوات (١٣٢-١٣٥م) حتى جرد الرومان عليهم حملة اجتاحت مواقعهم وأزالت قلاعهم وأحرقت قراهم، وحول "هادريان" مدينة أورشليم إلى مستعمرة رومانية وحرّم على اليهود سكناها وقد بدل اسمها إلى "الياكبتولينا"، و"اليا" هو الاسم الأول لهادريان. وقد أسكنت جالية رومانية ويونانية في أورشليم وأقيم في محل الهيكل معبد للإله اليوناني جوبيتر. وقدر عدد الذين قتلوا في هذه المعارك ٥٨٠ ألفا عدا من هلك جوعا ومرضا وحرقا. وهذه هي الضربة الأخيرة لليهود في فلسطين، فلم يعد لهم أي كيان فيها طول العصور التالية.

١٢- الصنف الثالث من يهود العراق:

أما الصنف الثالث من يهود العراق فهم يهود الجزيرة العربية الذين ينتمون إلى القبائل العربية التي تهود بعض بطونها، وقد أجليت البطون اليهودية التي لم ترتبط بعهود خاصة مع الرسول صلى الله عليه وسلم عن جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) (١٣-٢٣ هـ ٦٣٤-٦٤٤م)، فنزح بعضها إلى العراق. وقد جاء هؤلاء بصفتهم القبائلية العربية ومعهم مقتنياتهم ومواشيهم من أغنام وجمال واستقروا في وادي الفرات (منطقة الفرات الأوسط في سورية والعراق). هذه هي نفس المنطقة التي اتجهت نحوها الهجرات العربية من الجزيرة العربية في عهد الاكديين والعموريين قبل اكثر من أربعة آلاف عام، إذ كان ساحل الفرات الغربي الملاصق للبادية (بادية الشام)

منذ أقدم العصور الموئل الطبيعي للهجرات العربية ومن وطنها الصحراوي في جزيرة العرب ولما كان يهود الجزيرة ذوي خبرة في الأعمال الزراعية فمارسوا الزراعة في مستقراتهم الجديدة على نهر الفرات إلى جانب أهل المنطقة، وهم عرب مثلهم، فاختلطوا بهم واندمجوا بالبيئة الجديدة كليا فاعتنق أكثرهم الإسلام. ومما كان يشجع اللاجئين الجدد على الدخول في الإسلام الرغبة في التخلص من الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة، أي اليهود والنصارى البالغين من الذكور. أما الذين بقوا على يهوديتهم، وهم قلة، فصاروا يكتبون لغتهم العربية بأحرف عبرية. كما انهم استظهروا بعض نصوص التوراة العبرية وصاروا يتلون من غير ان يفهموا معناها شأنهم في ذلك شأن الذين تهودوا من العناصر الاخرى غير العربية. وقد كان مجيء هؤلاء (أي يهود الجزيرة) إلى العراق وسورية في الربع الأول من القرن الأول للهجرة (القرن السابع للميلادي) بعد مجيء يهود الصنف الأول المسبيين من العهد الآشوري بحوالي ألف وأربعمائة عام وبعد مجيء يهود الصنف الثاني المسبيين من العهد الكلداني بحوالي ألف ومائتين وخمسين سنة. ومما يدل على اندماج هؤلاء اليهود العرب مع السكان ما ذكره الرحالة البرتغالي "بدروتكسيرا "(Pedro Teixeria) الذي زار العراق سنة ١٦٠٤-١٦٠٥ عن يهود عانة قال: "ان مائة وعشرين بيتا من سكانها يهود عرب وان لم يكونوا أغنياء فأنهم يعيشون عيشا وسعا ويراعي جانبهم أمير البلاد وموظفوه وكانوا يملكون بيوتا وأراضي كما يملك العرب الذين يؤلفون بقية سكانها.

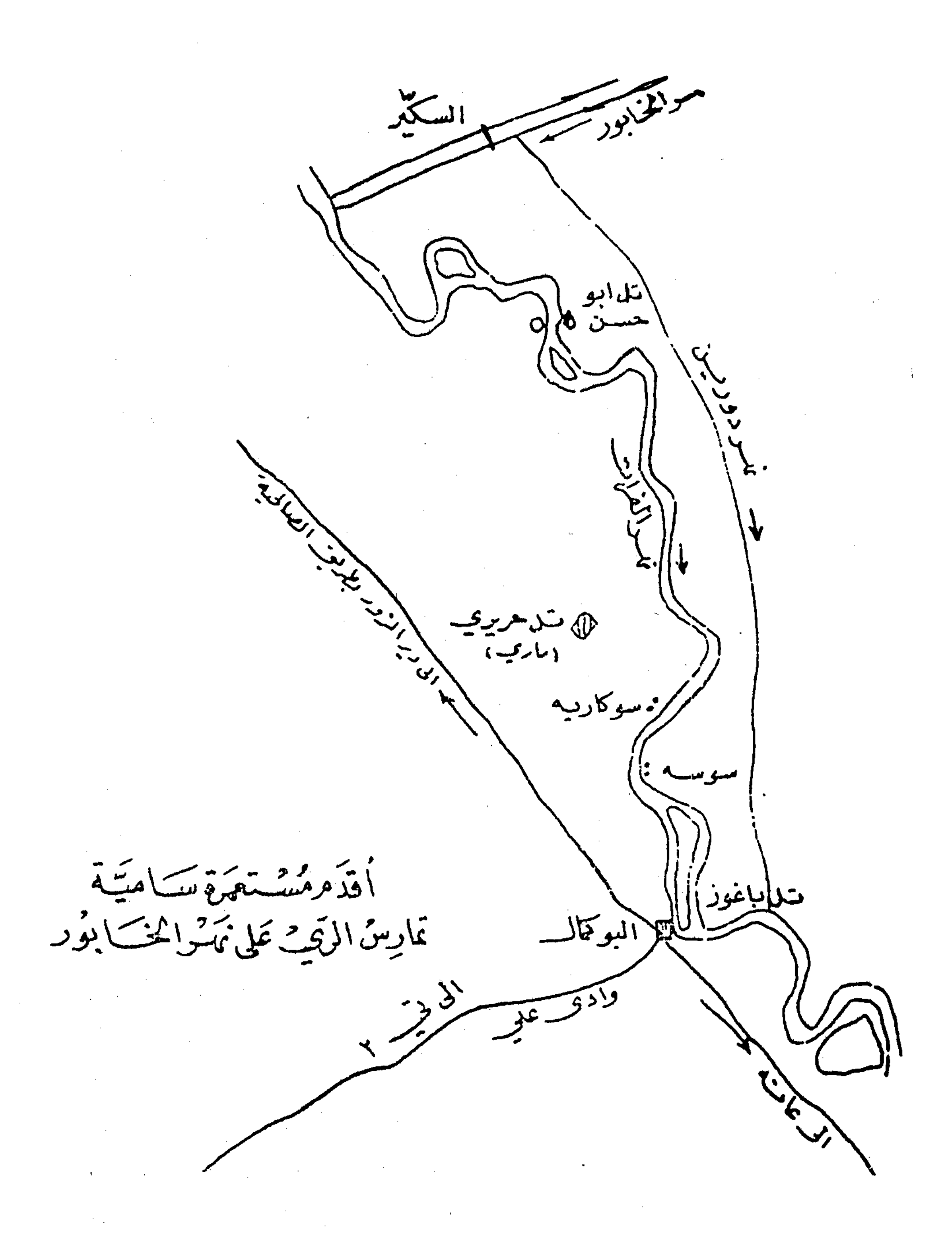
وقد أجليت القبائل المتنصرة مع القبائل المتهودة فكان أكثرهم من نجران فاشترى عمر (رض) منهم أموالهم (بمعنى عوضهم عن ممتلكاتهم) ولجأوا إلى جنوب الفرات في جوار الكوفة حيث أسسوا مستعمرة سموها باسم بلدهم الأصلي "نجران"، كما ان بعضهم انتقل إلى قرية تدعى "نهر ابان" (من طساسج الكوفة) (ياقوت ٤: ٧٥٧-٧٥٨).

وهؤلاء اندمجوا بالمحيط الإسلامي على الأرجح حيث لم يسمع عنهم شيء. وقد لجأ بعض اليهود العرب من نواحي الحجاز وخيبر إلى الكوفة. واشتهر من يهود الكوفة موسى بن إسرائيل الطبيب الكوفي (١٢٥-٢٢٢هـ) (طبقات الأطباء، ج١ : ١٦١). ومن المهم ذكره في هذا الصدد ان قبائل الجزيرة المتهودة لم تلتزم بالتلمود لأن معظم هذه القبائل قد أخذت باليهودية قبل إنجاز التلمود، كما ان انعزالهم في الجزيرة قد جعل الاتصال بينهم وبين المدارس التلمودية التي أسسها الأحبار اليهود في فلسطين وفي بابل (والفريق الأخير من بقايا السبي البابلي) متعذراً. لذلك فقد وجد يهود الجزيرة الذين بقوا على يهوديتهم بعد إجلاءهم من ارض الجزيرة في عهد العراق التي تناهض التلمود وتدعو للاكتفاء بالتوراة ما يتفق ونزعة القبائل العربية المتهودة التي لا تتقبل التعاليم الاستعلائية المتزمتة التي يدعو إليها التلمود، فانضم أكثرهم إلى هذه الفرقة (ليرسي، تاريخ الشعب اليهودي، ٢٣٥)(٣١أ).

ومما يجدر ملاحظته في هذا الصدد أن المناطق التي نزح إليها يهود الجزيرة على ساحل الفرات الأوسط لم تكن في أواسط القرن السابع الميلادي عند مجيء هؤلاء العرب المتهودين، أي قبل حوالي ١٣٠٠ عام، كثيفة السكان، إذ كان المجال فسيحا لكل من كانت له إمكانية أعمار الأراضي المهجورة، فكان شأن القادمين إليها شأن جميع القبائل العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستقرت في مناطق الهلال الخصيب. والواقع ان مبدأ "الأرض لمن يزرعها" كان هو المطبق تلقائيا وبصورة طبيعية وعملية مع مراعاة حق الأسبقية لمن وجد من قبل.

وهناك دلائل على ان يهود الجزيرة العربية عندما نزحوا إلى وادي الفرات استقر بعضهم في المنطقة الواقعة على الجانب الشرقي من نهر الفرات في المثلث المستطيل الواقع ما بين نهر الخابور (خابور الفرات) عند مصبه في النهر وشط الفرات قاعدته الطويلة تمتد على طول ساحل نهر الفرات. فكان هناك سد قديم على نهر الخابور في نقطة تقع على بعد خمسة عشر كيلومترا من

شمال ترتيسيا يدعى "السكّير" (أي السد الصغير) يتفرع من أمامه جدول قديم يسمى في الوقت الحاضر "نهر دورين" يمتد بموازاة نهر الفرات مسافة ١١٢ كيلومترا منتهيا عند "تل باغوز"، ثم يصب في نهر الفرات. هذا ما يدل على ان الزراعة التي تعتمد على الري كانت تمارس في هذه المنطقة الواقعة بين الساحل الأيسر لنهر الفرات والضفة اليسرى لنهر الخابور منذ أقدم الأزمنة. وهذه كانت منطقة العموريين التي تمثل اقدم المستوطنات التي اقامها الساميون العرب على ضفاف الفرات بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب. ويدلنا التاريخ على ان العموريين أسسوا في هذه المنطقة دولة كبرى واتخذوا لهم عاصمة فيها تعرف باسم "ماري" تسمى طلالها اليوم باسم "تل الحريري" وهي تقع على الضفة الغربية من نهر الفرات على مسافة ١٦ كيلومترا شمال غربي البو كمال بقرب قريتي السيال والغبرة في محافظة دير الزور. وفي الجانب الشرقي آثار لحصن قديم هو "تل باغوز" المار الذكر، ومن المرجح ان هذا الحصن من ملحقات العاصمة "ماري" (انظر المرتسم فيمايلي):



أقدم مستعمرة سامية
تمارس الري على نهر الخابور

ولما نزح يهود الجزيرة إلى وادي الفرات كانت هناك مراكز يهودية مهمة، ففي بلدة "دورا" عثر على آثار كنيس يرجع إلى القرن الثالث الميلادي مما يدل على ان بعض العائلات اعتنقت الديانة اليهودية وكانت بلدة "دورا" ميناءاً تدمريا على الضفة الغربية من نهر الفرات تقع شمالي "ماري" على بعد ٨٥ كيلومترا عن دير الزور إلى الجنوب الشرقي و ١٤٠ ميلا عن تدمر غربا و ٣٥ كيلومترا من الخابور أسسها الإغريق في أعقاب عهد الاسكندر المقدوني وسميت "دورا نيكاتوريس" نسبة إلى نيكاتور، أحد كبار القواد المقدونيين (٣٨٠-٣١٢ ق. م.). ومن المراكز اليهودية التي كانت على نهر الفرات في أثناء نزوح يهود الجزيرة العربية إلى جهة الفرات الجاليات اليهودية الكبيرة في منطقة نهر دعة وفومبدثية وسورا وهوزال على نهر الفرات أيضا وقد سبقت الإشارة إلى هذه المراكز اليهودية التي أسست فيها كبريات المدارس التلمودية (انظر الفقرة ٨).

١٣- البطون المتهودة من قبائل عرب الجزيرة:

ويؤكد الباحثون ان البطون المتهودة من قبائل عرب الجزيرة حافظت على قوميتها ولغتها العربية وتقاليد وعادات القبائل التي تفرعت منها متمسكة بأعرافها ونظم حياتها الاجتماعية في الجاهلية ولم يفرق بين إخوانهم العرب في شيء غير الدين الذين اعتنقوه عن طريق التبشير، كما استظهروا بعض نصوص التوراة باللغة العبرية من غير ان يتفهموا معناه، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، هذا في حين ان بعض بطون أخرى من قبائل الجزيرة قد تنصروا محافظين مثل البطون المتهودة على لغتهم العربية وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم كنصارى نجران وعدن والمناذرة والغساسنة وغيرهم. وهكذا بقي أهل الجزيرة بين اليهودية والنصرانية والوثنية حتى جاء الإسلام، فأخذه العرب عن عقيدة وإيمان راسخ، وقد نزل بنفس اللغة التي ورثوها عن أجدادهم فتحمسوا له حتى انتشر في الآفاق واكتسح الوثنية من اكثر بلاد العالم. أما القبائل العربية المتهودة فقد بقيت على قوميتها وعاداتها وتقاليدها

ولم يميز بينها وبين مجاوريها من القبائل العربية غير الدين كما تقدم. فينكر اليعقوبي وجود طوائف يهودية أصلية، أي من يهود فلسطين في الجزيرة العربية قبل الإسلام، فيؤكد ان القبائل اليهودية هناك كانت من اصل عربي أصيل، إذ يقول في وقعة بني النضير ان بني نضير فخذ من جذام إلا انهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به وفي وقعة بني قريظة يقول بأن بني قريظة فخذ من جذام أيضا اخوة النضير ويروي ان تهودهم كان في أيام عاديا بن السموءل ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنسبوا إليه[٣٢].

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث بعد الميلاد انهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية (ويقصد بذلك يهود فلسطين) ويقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهودا حقا إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما[٣٣]. ويؤيد ذلك ياقوت الحموي في معجمه، فيقول ان يهود يثرب (قريظة والنضير) كانوا من القبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى أخرجهم الأوس والخزرج من الأنصار من المدينة[٣٤].

ولما هاجر النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حرص على تحقيق الوحدة بين القبائل العربية وإزالة ما كان أهل المدينة قبل الإسلام من الفرقة بأبطال حروبهم ومنازعاتهم حتى يسود الإخاء بينهم جميعاً، وتحقيقا لذلك كتب كتابا في ذلك جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي نبي المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد ومعهم، كأنهم امة واحدة من دون الناس... وان من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وان يهود بني عوف آمنة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فانه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته وان يهود بني النجار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني الاوس ويهود بني ثعلبة وجفنة

ولبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف. وان موالي ثعلبة كأنفسهم وان بطانة يهود كأنفسهم لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد صلى الله عليه وسلم. . . »[٣٥].

يتضح مما تقدم ان الدين كان عاملا قويا في إحداث الفرقة بين الشعب الواحد فكان النبي صلى الله عليه وسلم يرمي من وراء كتابه المذكور تحقيق الاخاءبين الجميع وان لا يكون الدين سببا في الفرقة بين القبائل ذات القومية الواحدة. . (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم). والدليل على ان القبائل المتهودة كلها عربية الأصل انه كان من بين قبيلة اوس نفسها التي قامت مع الخزرج بإخراج يهود يثرب (بني قريظة وبني النضير) من المدينة من تهود قبل الإسلام كما جاء في الكتاب المذكور.

١٤- هل كان يهود الجزيرة العربية مرتبطين بيهود فلسطين عنصريا؟

انه لمن الغريب حقا ان نجد اكثر الباحثين من الغرب والشرق يكررون النظرية القائلة بان يهود فلسطين نزحوا إلى البلاد العربية ومن ضمنها جزيرة العرب على اثر إجلاء الرومان لهم، ويخلصوا من ذلك إلى ان اليهود في الجزيرة العربية يرجعون عنصريا إلى يهود فلسطين. فهل كان يهود الجزيرة العربية مرتبطين بيهود فلسطين عنصريا حقاً؟ . . . قبل الإجابة على ذلك لا بد من التوضيح ان اليهود كدين لم تكن مقتصرة على قوم موسى في فلسطين، فقد انتشر الدين اليهودي بين مختلف الأمم والأجناس، وهذه الأمم اعتنقت الدين اليهودي وهي تعيش في ديارها وأوطانها تتكلم بلغاتها وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها، إذ بدأ البشير بالدين اليهودي منذ تكّون الديانة بعد كتابة التوراة واستمر إلى العصور الوسطى حيث غلق باب التبشير به في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي. فقد قضى اليهود اكثر من عشرين قرنا يعملون بجد ونشاط لنشر ديانتهم بين شعوب وأمم لا تمت إلى قوم موسى بأدنى صلة وليست لهم علاقة بفلسطين أو سكان فلسطين لا من بعيد ولا من قريب. وهؤلاء الدعاة إلى الدين اليهودي لم يكونوا دائما من داخل فلسطين

أو من يهود فلسطين، بل ممن اعتنقوا الدين اليهودي وتحمسوا له. كما ان المسيحية لم تنتشر بواسطة سكان فلسطين وحدهم، بل بوساطة من اعتنقها من مختلف الأجناس والشعوب [48]. وهكذا "ظلت اليهودية زمنا طويلا فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصا تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى" [49]. فقد اعتنقت شعوب عديدة الدين اليهودي وهم في ديارهم وأوطانهم ولم يكونوا في وقت من الأوقات من سكان فلسطين، فانتشر هذا الدين في القارات الثلاث واعتنقته أمم متباعدة الأوطان مثل سكان اليمن والحبشة والجزيرة العربية بلاد القوقاز (الخزر) وأوروبا الشرقية وأواسط أوروبا وبلاد المغرب وشعوب مختلفة في الدولة الرومانية وفي الأقطار المجاورة لها، هذا إلى جانب العناصر التي دخلت في اليهودية بطريق الزواج. وقد اعتنق بعض الذين أرسلهم الآشوريون من مختلف أنحاء الإمبراطورية الاشورية إلى فلسطين ليحلوا محل اليهود الذين ابعدوا إلى بلاد ماذي واندمج بعضهم في اليهودية، وربما كان خير من يمثلهم اليوم السامريون الذين يعيشون وسط العرب وفي رعايتهم في مدينة نابلس [50].

والحقيقة هي ان ا ليهودية والمسيحية كانتا تتزاحمان على تهويد أو تنصير القبائل العربية في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وقد توجه المبشرون من اليهود والمسيحيين نحو جزيرة العرب لانهم وجدوا ان القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام كانت متهيئة نفسيا لتقبل فكرة التوحيد. لذا كان نشاط التبشير في الجزيرة على اشده حتى تمكن القس بتنصير بعض القبائل العربية في الجزيرة كما استطاع الأحبار اليهود من تهويد البعض الآخر. وكان اكثر التبشير يجري بوساطة القبائل العربية المتهودة أو المتنصرة بين إخوانهم العرب. وكان لرؤساء القبائل دور رئيسي في التنصر أو التهود الإجماعي، فإذا تهود أو تنصر أحد رؤساء القبائل تبعته قبيلته بصورة طبيعية. ولا يخفى ان المسيحية في زمن ظهورها بعد السيد المسيح لم تكن إلا امتدادا لليهودية باعتبارها فئة منشقة على اليهودية. وهكذا فقد كانت كل من الفئتين، اليهودية والمسيحية، تسعى

لاجتذاب الناس من مختلف الأقوام إليها. هذا مع العلم ان التبشير باليهودية قد اغلق منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي كما تقدم، في حين ان التبشير بالمسيحية استمر ولا يزال مستمرا حتى هذا اليوم. فهل انتشرت المسيحية بين القبائل العربية في الجزيرة العربية نتيجة نزوح مسيحيين من اصل فلسطين؟ وهل كان يهود الخزر من يهود فلسطين؟.. وهل كانت قبائل بني حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة التي انتشرت فيها الديانة اليهودية قبل الإسلام والتي يحدثنا عنها ابن قتيبة والقاضي أبو القاسم صاعد من يهود فلسطين؟...[٥١] وهل كانت قبائل البربر في المغرب العربي التي أخذت بدين اليهودية قبل الاسلام، مثل قبيلة جراوة التي سكنت جبل اوراس، وقبائل أخرى وهي نفوسة، وفندلاوة، ومديونة، وبهلولة، وغيانة، وبنو بازار، التي يحدثنا عنها ابن خلدون من يهود فلسطين؟..[٥٢] ان الكتّاب اليهود يروجون مثل هذه الأقاويل التي ترجع اليهود في فلسطين ويهود الجزيرة إلى اصل واحد ويتقصدون إشاعتها بين الناس ليربطوا صلتهم بالجزيرة العربية وبالعرب على اعتبار انهم أبناء عمومة مع العرب وان جدهم واحد وهو إبراهيم الخليل عليه السلام الذي هاجر اليهود معه من العراق في الألف الرابعة قبل الميلاد على حد زعمهم، في حين ان الواقع ان اليهود ظهروا إلى عالم الوجود في وقت متأخر ويمثلون ديانة اعتنقتها أقوام كثيرة ذو قوميات مختلفة منهم العرب الذين حافظوا على قوميتهم ولغتهم وعاداتهم ولم يفرق بينهم وبين مجاوريهم من القبائل العربية غير الدين، شأنهم في ذلك شأن الأقوام الأخرى التي أخذ بعض أهلها بالديانة اليهودية.

ويرى بعض الباحثين ان اليهود قد تعمدوا نشر قصص التوراة والتلمود بين العرب لاسباب سياسية ودينية وإنها في حقيقة الأمر دسيسة لفقها اليهود العرب تزلفا إليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والألفة بينهم، فيقول بعض العلماء: "ان هذا الطريقة من سنن اليهود المألوفة إذ لوحظ عليهم كثيرا انهم متى رأوا المصلحة التودد إلى قوم قالوا لهم انتم إخواننا

ونحن وانتم صنوان . . . ألموا منذ ذلك العهد إلى ظهور الإسلام وهو يبذلون جهدهم في اشراب العرب عقيدة انهم جميعا ذرية اب واحد حتى نجعت فيهم هذه الأكذوبة التي كان العرب اجهل من ان يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق " . [٥٣] .

ان بدوي الجزيرة الرقيق الإحساس المجبول على الفطرة والخيال الذهني والتعلق بالروحي لم تعد نفسيته تتقبل عبادة الاصنام، إذ كان عرب الجزيرة آنذاك في حالة صراع نفسي ديني شديد المحك بين الوثنية من جهة وبين اليهودية والمسيحية اللتين تدعوان إلى التوحيد من جهة أخرى، وقد كان دين إبراهيم الخليل (ع) معروفا في الجزيرة العربية قبل اليهودية والمسيحية كما ينبئنا القرآن الكريم، [٥٤] فاستمر هذا المحك على أشده حتى نزل الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلم حامل رسالة الإسلام إتماما لرسالة إبراهيم عليه السلام فتقبلتها الجموع ببالغ الحماس وعميق الإيمان حيث نزلت بلغتهم ولغة أجدادهم. وان الأنبياء والرسل يظهرون عادة بوحي من الله في مثل هذه الظروف التي كانت سائدة في ارض الجزيرة والتي كانت بأشد الحاجة إلى توجيه القوم إلى الصراط المستقيم.

يتضح مما تقدم ان القبائل العربية في الجزيرة العربية التي تهودت اعتنقت اليهودية عن طريق التبشير وليس عن مجيء يهود فلسطين إليها، كما ان القبائل العربية في الجزيرة التي تنصرت اعتنقت المسيحية عن طريق التبشير كذلك وليس عن طريق مجيء مسيحيين من فلسطين إليها. أما القول بان يهود فلسطين نزحوا إلى الجزيرة العربية في أعقاب إجلاء الرومان لهم فليس له أي نصيب من الصحة ولا يستند إلى دليل يدعمه، وذلك استنادا إلى الحقائق الثابتة التالية:

أولاً: نحن نعلم ان هذا الإجلاء حدث في سنة ٧٠ للميلاد في زمن تيطوس ابن الامبراطور وسبسيان ثم في سنة ١٣٥ للميلاد في زمن هادريان حيث قضى على اليهود في فلسطين بصورة نهائية ولم يعد لهم أي كيان فيها طوال العصور التالية وقد شرحنا ذلك في الفقرة ١١ .

ونحن نعلم أيضا ان اليهود في العراق كانوا في هذه الفترة ذاتها على أقوى علاقة من الوفاق والوئام مع الفرثيين الفرس الذين حكموا العراق بين سنة ١٢٦ ق. م. وسنة ٢٢٧ ب. م. وكانت في الوقت نفسه إمارة حدياب اليهودية قائمة وهي تتمتع بالدعم والإسناد الكليين من الفرثيين وقد ربطتهما المصلحة المشتركة في عجلة واحدة ضد الرومان، وقد شرحنا ذلك في الفقرة ٤.

كما أننا نعلم كذلك انه كان لليهود في العراق في زمن الفرس نفوذ كبير في بابل وكانت لهم فيها مدن رئيسية كبرى تكاد تكون يهودية بحتة وهي "نهر دعه" و "فومبدثية" و "سورا" و "الماحوزي" و "تل ابيب" و "نهر بيكود" و قد شرحنا ذلك في الفقرتين ٧ و ٨.

ففي مثل هذه الظروف فهل من المعقول أو من المنطق ان يكون يهود فلسطين بعد إجلاء الرومان لهم قد ذهبوا إلى الجزيرة العربية؟ وهل يعقل ان تهاجر جماعة عاشت في بيئة متمدنة ان تنزع إلى بيئة صحراوية مثل جزيرة العرب؟ فالذي نعلمه وما يؤيده العلماء على العموم ان الهجرة لا تتم من البيئة المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب، بل العكس هو الصحيح.

ان الملجأ الطبيعي الذي كان بإمكان يهود فلسطين في ضوء ما تقدم ان يلجأوا إليه بعد إجلاء الرومان لهم هو العراق وليس الجزيرة العربية، إذ كان في العراق آنذاك عدد كبير من بقايا اليهود المسبيين في منطقة بابل عدا يهود إمارة حدياب في كردستان كانوا يتمتعون بحكم ذاتي وأصبح الكثير منهم أصحاب ثروة ونفوذ. . . وكان هؤلاء هم والفرس على وفاق ووئام تجمعهما نزعة العداء ضد الرومان بهدف مشترك في اكثر الأحوال وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

والثابت ان كبار رجال الدين من اليهود ومن بينهم أعضاء السنهدرين (المجلس اليهودي الديني الأعلى) انتقلوا بعد اضطهاد الرومان لليهود إلى

العراق حيث أسسوا مدارسهم الدينية الكبرى التي وضعت التلمود البابلي، ان من المحتمل ان يكون قد لجأ بعض اليهود الذين أجلاهم الرومان عن فلسطين إلى بلاد أخرى غير العراق ولكن لا يحتمل ان تكون الجزيرة العربية من بينها للأسباب المار ذكرها. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: "لماذا إذن لا يزال اكثر الكتّاب والباحثين يأخذون بالرأي القائل بان الجزيرة العربية قد انفردت من بين كل بلاد العالم التي تم التبشير فيها باليهودية أو المسيحية بهجرة يهود أو نصارى إليها؟ ان ما شرحناه حول الدوافع التي كانت تحمل الكتّاب اليهود لنشر مثل هذه الأقاويل وهي ربط اصل اليهود بالعرب عن طريق الجد الواحد إبراهيم الخليل عليه السلام لاسباب معينة يرد على هذا السؤال.

ثانياً: ان يهود فلسطين في عهد الرومان أي لما أجلاهم الرومان عن فلسطين كانوا يتكلمون باللغة الآرامية وكذلك كان يهود بابل وكردستان بعد سبيهم في زمن الآشوريين والكلدانيين يتكلمون بالآرامية. فهل من المعقول أو من المنطق ان يهاجر اليهود الذين أجلاهم الرومان عن فلسطين إلى الجزيرة العربية التي كان المتهودون فيها عرب يتكلمون باللغة العربية. فلو فرضنا انهم نزحوا إلى الجزيرة العربية فبأية لغة كان بإمكانهم ان يتفاهموا ما بينهم؟ كل ذلك يدل على انه لم تكن هناك أية رابطة قومية أو لغوية أو عنصرية تربط يهود الجزيرة العربية بيهود فلسطين.

ثالثا: ان يهود الجزيرة كانوا منعزلين تمامًا عن يهود فلسطين شأنهم في ذلك شأن القبائل العربية في الجزيرة.

رابعاً: ان البطون العربية المتهودة لما أجليت من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) لم يعرف ان أحدا منهم نزح إلى فلسطين ليكون بالقرب من هيكل سلميان مندفعين بالحماس الديني - الهيكل الذي لم يعرفوا عنه غير ما سمعوه من الاغيار.

خامساً: ان البطون العربية المتهودة في الجزيرة لما أجليت من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) لم تكن تؤمن بالتلمود، ذلك ما جعلهم

يشعرون بأنهم اقرب إلى السكان العرب الذين لجأوا إليهم منهم إلى يهود التلمود، لذلك نجد ان أكثرهم اخذوا بالإسلام ليتساووا مع إخوانهم العرب.

ومن بقايا القبائل العربية المتهودة في الجزيرة التي اعتنقت الإسلام بعد ظهوره قبيلة في منطقة خيبر، فيفيد الرحالة دوتي الذي ارتاد الجزيرة سنة ١٨٧٥ (الصحراء العربية، ص١٢٩) ان هناك قرية في نواحي خيبر أهلها مسلمون ولكنهم لا يزالون محتفظين ببعض التقاليد والتعاليم اليهوديةبحيث لا يخالطون غيرهم من القبائل المجاورة. ويروي بنيامين التطيلي الذي دوّن رحلته في القرن الثاني عشر الميلادي عن وجود قبيلة عربية متهودة في جزيرة العرب تدعى قبيلة بني ركاب اقتبست الدين اليهودي دون ان تندمج باليهود بل إلى أفراد هذه القبيلة محتفظين بتقاليدهم الخاصة التي ورثوها عن أجدادهم، فيقول فيهم: "وفي هذه الصحراء (الصحراء بين ارض اليمن والعراق) مضارب بني ركاب من عشائر تيماء. وفي تيماء يقيم شيخهم وحاكمهم الكبير حنان وهي صقع واسع الأرجاء، امتداده مسيرة ستة عشر يوما بين الجبال الشمالية وفيها القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لاية سيطرة أجنبية. أهلها يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم من أبناء العرب للغزو والكسب في الأماكن البعيدة وهؤلاء الأعراب يعيشون عيشة بدوية، يبيتون في الخيام، لا يعرفون بناء البيوت، دأبهم الغزو في أراضي اليمن، (رحلة بنيامين التطيلي، ص١٤٨) . وجاء عن قبيلة بني ركاب في قاموس الكتاب المقدس "انهم لا يزالون يقطنون في بلاد جبلية في المنطقة الحارة إلى الشمال الشرقي من المدينة، ويعرفون ببني خيبر وأرضهم تدعى خيبر، وليس لهم علاقات مع اليهود في آسية ولا يمكنهم ان يرافقوا القوافل لان ديانتهم لا تسمح لهم بالسفر يوم السبت مع ان بلادهم محاطة بالصحاري حتى يكاد لا يمكن الدخول إليها أو الخروج منها إلا مع القوافل. ويذكر الرحالة وولف انه يقدر عدد الركابيين بجوار مكة بنحو ٦٠٠٠٠ نسمة (راجع مادة الركابيين في دائرة المعارف اليهودية).

الخاتمة:

وختاماً لا بد من التوضيح ان من أهم ما قصدت في بحثي هذا هو التأكيد على ان ادعاء اليهود بان تأريخهم يبدأ في هجرتهم من العراق مع إبراهيم الخليل عليه السلام في الألف الرابعة قبل الميلاد ادعاء مزيف لا يستند إلى أي سند تاريخي ولا أساس له من الصحة، كما ان ادعاءاتهم بان يهود فلسطين مرتبطون عنصريا باليهود العرب في جزيرة العرب وانهم نزحوا إلى جزيرة العرب في أعقاب إجلائهم من فلسطين في عهد الرومان لربط صلتهم بالعرب ليس له أي نصيب من الصحة أيضا واني لاعتقد بأنه لا يصح ان يبقى العرب في معزل عما يبحثه الكتاب من اليهود والمستعربين في موضوع يتعلق بصميم تاريخ الأمة العربية، واني أرى أن الوقت قد حان بأن يدخل العرب حلبة المعركة العلمية ويناقشوا ويبحثوا هذه المواضيع التاريخية الحيوية بالطريقة العلمية التي هي طريقة هذا العصر. فقد أصبحنا الآن بحكم الواجب القومي أكثر من أي وقت مضى مسئولين عن دعم الحركة الثورية العربية بدراسة علمية مجردة من الميول والعواطف للمسألة اليهودية كي تساعدها على فهم طبيعة العدو بشكل يجعل الأمة العربية اكثر تيقظاً واستعداداً لمجابهة الادعاءات الصهيونية الوهمية بالسلاح العلمي المبني على أسس رصينة موضوعية.

الهوامش

١- انظر كتاب مرداخاي سولوف "كيف نما الشعب اليهودي؟" .

Mordecai Soloff, "How the Jewish people grewup?"

٢- Revue Biblique, 72 (1965), pp.5-28. W. Keller "The Bible as History", 69. R. de Vaux, Les Patriarches Hebreus et l'histoire,".

٢أ- "The Alphabet of Creation," by Ben Shaben, 3d printing, 1972.

٣- جاء في كتاب تجلات بلاشر الثالث ما هذا نصه : "قمت بضم جميع مدن عومري في حملاتي السابقة ولم أترك سوى مدينة السامرة . . . أخذت نفتالي بأسرها وضممتها إلى آشور وعهدت برجالي حكاما عليها . وجميع سكان بيت عومري وممتلكاتهم حملت إلى آشور " ويلاحظ هنا ان الآشوريين لم يطلقوا اسم مملكة على إسرائيل كما ورد في التوراة بل كانوا يعرفون ما سمته التوراة بمملكة إسرائيل باسم بيت عومري نسبة إلى أحد ملوك إسرائيل الذين ذكرتهم التوراة وقد حكم عشرين سنة حسب قول التوراة . وهذا ما يحملنا على التساؤل : هل كانت مملكة بالمعنى المعروف باسم مملكة إسرائيل كما تدعى التوراة؟ ان هذا السؤال يفسر الإجابة عليه حتى تظهر مكتشفات جديدة توضح لنا ذلك .

٤- N. Neusner, "A Hiistory of the Jews in Bobvlpia." 1969. Vol. I.p.59 n.1: W.J. Fischel "The Jews of Kurdiston a Hundered Years ago," 1944, p.196.

٥- خفتيان حبتون أو هفتون ، من جبال كردستان ، جاء في معجم البلدان لياقوت : "حبتون جبل بنواحي الموصل ، وهفتون بليدة من نواحي اربل تنزلها القوافل لمن يريد اذربيجان ، وخفتيان قلعتان عظيمتان من أعمال اربل ، إحداهما على طريق مراغة يقال لها خفتيان الزرزاري والأخرى خفتيان سرخاب بن بدر" .

٦- يقصد به شلمنصر الخامس الذي حكم اشور بين سنة ٧٢٧ و ٧٧٢ق . م . وهو الذي حاصر السامرة عاصمة إسرائيل وأخذها بعد حصار دام ثلاث سنين ونقل أهلها إلى ما بين النهرين واتم خليفته سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق . م .) ذلك .

٧- رحلة بنيامين : ص١٥٤ .

٨- هم من اتباع الحسين بن الصباح ، استفحل أمرهم في القرنين السادس والسابع للهجرة ، حتى استأصل شأفتهم هولاكو فهاجر فريق منهم إلى الهند .

٩- رحلة بنيامين ، ص١٥٣ .

١٠- ان مذهب النساطرة فرع من المسيحية ظهر اثر حدوث انشقاق مذهبي واسع في المسيحية في الشرق سنة ٤٣١م، ولم يقتصر هذا الانشقاق على النسطورية بل شمل فرعا آخروقع سنة ٤٤٨ م هو اليعقوبية المناوئة للنسطورية . هذا عدا طائفتي البروتستانت والكاثوليك في أوروبا، ونظرا للانضمام إلى كنيستها فقد نشطت البعثات التبشيرية من أوروبا وأمريكا والباباوية إلى اليعقابة والنساطرة واستطاعت ان تحول قسما من اليعقابة عن مذهبهم إلى المذهب الكاثوليكي فسموا بالسريان الكاثوليك نسبة إلى الكنيسة الكاثوليكية وبقي اليعاقبة الاصليون يتسمون بالسريان الارثوذكس بمعنى الأصليين . أما النساطرة فحين اعتنقت جماعة منهم المذهب الكاثوليكي صارت تسمى بالكلدان نسبة إلى بلاد العراق التي هي في الأصل بلاد الكلدان إذ كان مقر الكنيسة العراقية الأولى في المدائن، وأما النساطرة الذين ثبتوا على مذهبهم فقد حلت بينهم بعثات التبشير الإنكليزية في مواطنهم على الحدود الإيرانية التركية شرقا وغربا، وان هذه البعثات حين لم تستطع تحويلهم إلى اعتناق مذهبها فقد استطاعت إقناعهم بعدم لياقة الاسم النسطوري وان تسميتهم بالاثوريين ترفع من منزلتهم في الأوساط العالمية إذ لا بد ان يكون أحفاد ذلك الشعب الاشوري العريق في السؤدد والحضارة، فيقول جون جوزيف في كتابه : "النساطرة ومجاوروهم المسلمون" المطبوع في برنستون سنة ١٩٦١ : "لقد اطلع على البعثة التبشيرية الإنكليزية التي أرسلت إلى النساطرة في خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٨٦م) بعثة رئيس أساقفة كنتربري إلى المسيحيين (الاثوريين)، وقد كانت هذه البعثة بالذات هي أول من سمى النساطرة اثوريين . . . وان نظرية كون النساطرة أحفاد الآشوريين القدامى لقي دعاية واسعة بلسان المبشر الإنكليزي ويكرام الذي نشر هذا الاسم وعرف العالم بالمأساة التي حلت بأحفاد شلمنصر . . . " ويضيف إلى ذلك قوله : "ولم يكن هؤلاء النساطرة يدعون أنفسهم بهذا الاسم (أي آثوريين) إلا منذ القرن التاسع عشر . "وهذا ما يوضح ان النساطرة الكلدان الذين تحولوا إلى الكثلكة ليسوا أحفاد الكلدان القدامى، وان اللغة المسماة بالكلدانية والتي تقرأ بها الطقوس الكنسية ليست من اللغة الكلدانية في شيء بل هي اللهجة الآرامية الشرقية أو اللهجة السريانية العراقية، وان ما يسمى باللغة الاثورية لا تعدو كونها اللهجة السريانية الشرقية ذاتها (أنظر : "آرامية-سريانية" بقلم جورج حبيب، مجلة التراث الشعبي، أيلول ١٩٧٠، ص٨٦-٨٧).

١١- حلح مقاطعة قرب "تل حلف" الواقع في شمال سورية جنوب غربي رأس العين قرب منبع نهر الخابور (خابور الفرات).

١٢- ٢ ملوك ١٧ : ٦، ١٨ : ١١ .

١٣- تدل المدونات التاريخية المسيحية على أن بعض تلاميذ المسيح الاثنين والسبعين جاؤا بعد وفاته مباشرة إلى منطقة الأسباط العشرة للتبشير بتعاليمه بينهم، فقد جاء أحد هؤلاء التلامذة المدعو "مار ادي" ومعه "مار ماري" فطافا بلاد نصيبين وأثور وكركوك، وبعد وفاة "مار أدي" بقي "مار ماري" يطوف بلاد حدياب وكركوك وازان وكشكر ومساليق وميشان والاهواز وتوفي في المدائن سنة ٨٢ للميلاد ودفن في البيعة الكبرى بدور قنى في سرجاد ("تاريخ كلدو وأثور"، ج٢، ص٢، "أخبار فطاركة كرسى المشرق من كتاب المجدل"، لعمرو بن متى، ص١-٢، "أخبار فطاركة كرسى المشرق من كتاب المجدل"، لماري بن سليمان، ص٣-٥).

١٤- انظر المراجع التالية:

A Grant, "The Nestorians or the lost Tribes, N.Y., 1841; G. Badger, "The Nestorians and their Ritual, "London, 1852; (2vols); J. Joseph, "The Nestorians and their Muslem Nighbours," rinceton, 1961; A. d'Avril, "La Chaldee Chretienne Histoire des Chaldeens unis et des Nestoriens, "Paris, 1864.

١٥- انظر المراجع التالية حول يهود كردستان:

Isaac Ben-Zvi, "Les Juifs Kurdes dons le judaaisme Sephardi," London, May 1954; J. Jude Benjamin,, "Cing annees en Orient, 1846-51," Paris, 1856; W. Schwarz,. "Bei den Kurdischen Juden", Judische Rundshaue, 12, VII, 1935; W. Schwarz, "Die Juden in Sandor," Judische Rundshau, 26, 1935; David d' Bet Hillel, "The Travels of Rabbi Devid d'bet Hillel from Jerusalem through Arabia, Koordistan, ets." Madras, 1832; A. Ben- Jacob, "Kurabia, Jewish Communities," Jerusalem, 1961 (in Hebrew); p.J. Fishcel, "The Jews of Kurdistan a Hundered Years ago, " N.Y. 1944.

١٦- J. Neusner, "The Jews in Babylonia," III, p.15-16.

١٦أ- لقد عثر على قبر هيلانة ملكة حدياب في القدس في المقبرة المعروفة بمقبرة السلاطين (أمام مدرسة المطران) التي يعود تاريخها إلى ٥٠-٦٠ للميلاد حيث توجد كتابة منقوشة على قبرها الحجري تدل على تعيينه. وتشير الأخبار إلى ان هيلانة أمرت قبيل وفاتها بحفر قبر لها في الصخر في القدس ثم حفرت فيما بعد قبور مجاورة لابنائها في نفس المقبرة ("مخطوطات البحر الميت"، تأليف ميللر بروز، ١٩٦٧، ص٢١٢- الترجمة العربية).

١٧- J. Neusner, III. .354.

١٨- "تاريخ كلدو وأثور"، ج١، ص١٧٨-١٧٩.

١٩- انظر: نيوزنر "تاريخ اليهود في بابل- العهد الفرثي، ج١، ص٥٤-٦٤، "تاريخ كلدو واثور"، ج٣، سليمان صائغ، "تاريخ الموصل"، ج١، ص١٩.

٢٠- انظر:

Sami S. Ahmad, "The Jewish Colony at Elephantine', The Hiff Review, Vol. XXII, No.2, Spring 1965, pp.11-19; A. Lods, "Les prphetes d'Israel", Paris, 1950, p.344-353.

٢١- "يهود البلاد العربية"، للدكتور علي إبراهيم عبده وخيرية قاسمية، دراسات فلسطينية، ٨٢ (١٩٧١)، ص٦٩.

٢٢- يعرف بـ "نبوخذ نصر الثاني" لان الاول هو نبوخذ نصر الذي ينتمي إلى السلالة البابلية الرابعة والذي استعاد استقلال بابل أمام حكم الاشوريين لها في أوخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد (١١٢٤-١١٠٣ ق.م).

٢٣- "نهر دعة"، مدينة قديمة في الفرات الأوسط (بجوار عانة) أسست فيها إحدى كبريات المدارس التلمودية، وكانت تسمية "نهر دعة" تطلق أيضا على كل المنطقة الواقعة على الفرات ومن ضمنها مدينة (الانبار). وقد تعرضت مدينة "نهر دعة" إلى هجوم ازينبة الثاني ملك تدمر عليها. فبعد انتصاره على الملك شابور الأول سنة ٢٦٢م هاجم المدينة وهدمها بما فيها المدرسة اليهودية الدينية. ويلاحظ ان نيوزنر صاحب كتاب "تاريخ اليهود في بابل" ثبت موقع نهر دعة على خارطة اسماؤها مدونة بالحروف العبرية (الخارطة رقم ٤، ج١، والخارطة رقم ٥، ج٢) جنوب الانبار بين نهر صرصر ونهر ملكا، وهذا لا يتفق مع الاحداث التاريخية التي تجعل نهر دعة على طريق ازينبة ملك تدمر عندما غزاها في حملته على الملك شابور الاول سنة ٢٦٢م.

٢٤- "فومبديثه" الاسم الذي اطلقه اليهود على مدينة الانبار حيث تجمع اليهود بعد السبي البابلي، أسست فيها إحدى المدارس التلمودية في العراق. ولفظة "فومبديثة" تعني "فم البداة"، والبداة ذكرها ياقوت ووصفها هي و "الجبة" انهما طسوجان من سواد الكوفة (معجم البلدان، ١ : ٧٧٠؛ ٢ : ٣١). وقد ذكر بنيامين التطيلي الذي زار العراق في القرن الثاني عشر الميلادي ان الانبار هي فومبديثة يقيم فيها نحو الفي يهودي بينهم العلماء والفقهاء.

أما الانبار فتقع اطلالها اليوم على ضفة نهر الفرات اليسرى على بعد حوالي ثمانية كيلومترات إلى الشمال من مدينة الفلوجة. يقول المستوفي في "نزهة القلوب" إن مؤسس الانبار الملك مهراب قابانيان، جعلها معتقلا لاسرى اليهود الذين سباهم بختنصر ثم جدد بناءها سابور الثاني وجعلها السفاح كرسي مملكته.

٢٥- "سورا" مدينة بابلية كانت بجوار الحلة على شط النيل المتفرع من الفرات وكان يعرف قديما بـ "نهر سورا". كانت سورا مركزًا رئيسا مهما من المراكز التي تجمع فيها اليهود بعد السبي البابلي حتى أصبحت مركزا رئيسا للدراسات الدينية في بابل فأسس الراب أبو اريخا مدرسة دينية كبرى فيها سنة ٢١٩م.

٢٦- ماحوزي أو ماخوزي، مدينة قديمة متاخمة لسلوقية على ساحل دجلة قرب المدائن، ولما غزا كسرى الأول (انوشروان) (٥٣١-٥٧٩م) انطاكية نقل أهلها إلى مدينة جديدة قرب ماحوزي فسميت بالماحوزي الجديدة (ابن العبري ص١٤٩؛ "إيران في عهد الساسانيين"، ارثر كريستين: القاهرة ١٩٥٧ (الترجمة العربية).

٢٧- انظر:

S. Daiches, "The Jews in Babylonia, " 1910; RAbbi J. Newman, "The Agricultural life of the jews in Babylonia,", 1932; J. Neusner, O. History of the Jews in Babylonia, "5 vols., 1966-1970.

٢٧أ- P. Sassoon, "A History of the Jews Baghdad," London, 1946, p.16.

٢٨- انظر: "صفة التلمود والزوهر في الديانة اليهودية"، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، العدد ١، كانون الثاني ١٩٧٣، ص٨٦-١٠١.

٢٩- عزرا ٦: ٣-٦؛ ١: ٧-١١.

٣٠- Hitti, "History of Syria", p.223.

٣١- "التنبيه والاشراف"، ص١١٠.

٣١أ- القراؤون فرقة يهودية أسسها في القرن الثامن للميلاد الحبر عنان بن داود وهي تدعو لرفض التلمود وتنادي علنا بنبذه وتصف تعاليم الربانيين بأنها خارجة عن التوراة، وقد أطلق جماعة هذه الفرقة على أنفسهم اسم "القرائين"، أي قارئو التوراة دون التلمود. وقد استمالت هذه الحركة الكثير من يهود العراق وخاصة يهود الجزيرة العربية الذين نزحوا إلى العراق في عهد الخليفة عمر (رض) (ليرسي، إسرائيل، ص٢٣٤)، وانتشرت الدعوة في مصر والشام وتركيا وايران وبعض أجزاء روسيا وأوروبا الشرقية. وأخذ القراؤون يدققون نصوص التلمود ويتعمقون في تحليلها علميا بقصد تفنيدها وفضحها. وقد رجعوا إلى الاديان السماوية التي شجبت التعاليم التلمودية كالإنجيل والقرآن، فقال عنان: "ان عيسى بن مريم ليس زنديقا وانه لم يشوه التوراة ولم يكذبها أو ينسخها وانه كان رجلا من البشر، تقيا، صالحا، لم يفكر قط في النبوة أو الألوهية، بل كان مصلحا، يريد ان يخلص شريعة موسى من المفاهيم التي الصقها الناس بها. ونادى عنان كذلك بان محمدا صلى الله عليه وسلم نبي حق ونه كعيسى بن مريم لم يفكر قط في مخالفة التوراة، أو التعدي عليها، أو نسخ شرائعها".

وقد اشتد الصراع بين القرائين والربانيين فنادى رؤساء كل من الفريقين بتكفير الفريق الآخر، ولم يترك القراؤون ناحية في العقلية التلمودية إلا ولجوها لفضح الربانيين والسخرية منهم. وبلغت العداوة بين الفريقين اشدها حتى أخذ التلموديون يغذون حقدهم على القرائين فحرموا الزواج منهم وإذا حدث اعتبروه زنا، كما اعتبروا الأطفال المولودين منه غير شرعيين وقد أفتى بعض الربانيين باعتبار القرائي مرتدا عن الدين. وقد

اشتد غضب الربانيين على القرائين فشكو الامر الى الخليفة المنصور باتهام عنان بالزندقة ونقد شريعة موسى فأمر الخليفة بسجن عنان، وقد صادف ان التقى عنان في السجن بالإمام أبى حنيفة النعمان الذي كان المنصور قد سجنه لرفضه تولي القضاء فقص عنان عليه قصته فنصحه الأمام بأن يدعي انه اراد تطهير اليهودية من شوائب التلمود الذي كان من وضع الأحبار وانه لم يقل بنقض شريعة موسى، ولذلك أطلقه المنصور على ان لا يبقى في بغداد فغدارها عنان إلى القدس حيث بنى كنيسا لجماعة القرائين وقد ألف كتابين دعا فيهما إلى تحرير التوراة من قيود التلمود. واستمرت حركة القرائين العلمية نشيطة على يد زعماء من أقطاب الفكر القرائي حتى مستهل القرن السابع عشر الميلادي فظهرت مع الزمن مدارس علمية قوية في مجتمع القرائين ثم تقلص ظل القرائين مع انتشار اليهود الربانيين بإعداد كبيرة في اوروبا وامريكا وكثير من البلاد التي استعمرها الغرب في افريقيا وآسيا وظل القراؤون منكمشين في الشرق. وقد كان لظهور الصهيونية واتساع نفوذها الأثر الكبير في إخماد حركة القرائين وتقلص ظلهم، وذلك على الرغم من ظهور علماء متبحرين في الفقه اليهودي من بين طائفة القرائين ووضعهم العديد من كتب التفاسير والشروع الدينية، حيث كانت الصهيونية ترى في طائفة القرائين اكبر خطر يهدد مشروعها السياسي الاستعماري الذي خططته بالاتفاق مع الربانيين للاستيلاء على فلسطين واتخاذها وطنا قوميا لليهود بالقوة (انظر: "الفكر الديني الإسرائيلي" للدكتور حسن ظاظا، ١٩٧١، ص٢٩٥-٣٠٦).

٣٢- "تاريخ اليعقوبي"، طبعة النجف، ١٩٦٤، ج٢، ص٤٠، ٤٢.

٣٣- ولفنسون، "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ص١٣.

٣٤- ياقوت، ٤: ٣٨٥، ٤٦٠.

٣٤- سيرة ابن هشام، ج٢، ص٤٠، وما بعدها.

٣٦- الدكتور محمد عزة دروزة، "تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم"، ص٣٢٦.

٣٧- جرجي زيدان، "العرب قبل الإسلام"، ص١٣١.

٣٨- هو الفلجا الحالي الذي ينبع في شمال روسيا ويصب في بحر قزوين قرب استراخان.

٣٩- ياقوت، معجم البلدان، الطبعة الأوروبية، ٢، ٤٣٦-٤٤٠ (مادة الخزر).

٤٠- يذكر ابن النديم في الفهرس (ص٢٠) ان الخزر كانت تكتب بالعبرانية وهو يقصد الكتابة بالحروف العبرانية أما اللغة فهي لغة اهل البلاد.

٤١- انظر: -رسالة ابن فضلان- تحقيق سامي الدهان، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٩، -دائرة المعارف الإسلامية- ١: ٢٥٥-٢٥٦، ٤٤: ٨٨-١٠٢، ٨، ٣٠٥-٣١١، معجم ياقت ١-٧٢٢-٧٢٨، ٢: ٤٣٦-٤٤٠.

ان تاريخ الخزر ظل مجهولا لم يعن بدراسته الا قلة من المتخصصين، ومن اقدم ما كتب في هذا الموضوع كتاب - تاريخ الخزر- للمؤرخ اليهودي الحاخام يهودا الحلبي المولود في طليلطة، وهو يروى ان رسائل تبودلت بشأن هذا التهود الجماعي بين الفقيه اليهودي -

ابن شـابوب- (وزير خليـفـة قـرطبـة)، وبين ملك الخـزر يوسف، أحـد اخـلاف بولان "التحدي الصهيوني" تأليف رومال وماري لورا، ترجمة نزيه الحكيم، ص٢٥" .

٤٢- ان زعيم الخزر كان يحمل اللقب التركي "قاغان" وبالعربية "خاقان" . ويقول ابن حوقل "ولن تنعقد الخاقانية إلا لليهود" .

٤٣- عين بعض الباحثين اعتناق ملك الخزر للديانة اليهودية في حدود سنة ٤٧١ م بينما عينه البعض الآخر في حدود سنة ٨٦٥م.

٤٤- مروج الذهب، ٢ : ٨.

٤٥- انظر:

D.N. Dunlon, "The Jewish Khazars," N.Y., 1967 (Schockeb Books): S. Dobony, "History of the Jews in Russia, Vols. 5, translated from Russian by M. Spiegel.

الفصل السادس

دور الصهيونية والاستعمار في خلق إسرائيل

١- الصهيونية حركة سياسية استعمارية:

الصهيونية مشتقة من لفظة "صهيون" وصهيون اسم رابية في أورشليم كان قد أقام عليها اليبوسيون أبناء عمومة الكنعانيين العرب حصناً قبل ظهور بني إسرائيل (قوم موسى) بحوالي ألفي عام، ولذا تكون اللفظة كنعانية (عربية) وليست عبرية (يهودية)، شأنها شأن أسماء مدن وقرى فلسطين القديمة التي كانت وما زالت تحمل أسماءها الكنعانية الأصلية حتى يومنا هذا.

وقد أطلقت تسمية الصهيونية على منظمة إرهابية أسسها يهود روسيا بعد منتصف القرن الماضي، فسمي أعضاؤها "عشاق صهيون" و "أحباء صهيون". وانتمى إلى هذه المنظمة معظم يهود روسيا البارزين، منهم والد وايزمن وابن غوريون وسوكولوف. وقامت هذه المنظمة بحركات سرية ضد القيصرية، ثم أخذت تعنى بفلسطين وصارت تسعى لاستعمارها كوطن قومي لليهود. ويلاحظ من ذلك ان اكثر الزعماء المؤسسين للمنظمة الصهيونية هم من يهود أوروبا الشرقية. [1] وما لبثت هذه المؤسسة ان أصبحت مؤسسة سياسية استعمارية دولية ذات جهاز تنظيمي اتخذ مؤسسوها من اضطهاد اليهود ذريعة لتنظيم حركة يهودية سياسية تستهدف أول ما تستهدف تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين بحجة حقوق اليهود التاريخية في فلسطين.

وقد وجدت الصهيونية بعد تحرر اليهود في معظم أرجاء أوروبا ومنحهم الحقوق المدنية والحرية الكاملة للعيش في المجتمعات الأوروبية ظروفاً مؤاتية لنشاطاتها، فبدأت نشاطها المنظم بدعوى معاداة الشعوب للسامية وبنشر أسطورة مفادها ان فكرة إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين قديمة، فمنذ هدم هيكل سليمان قبل ما يقرب من ألفي عام واليهود يتطلعون إلى تحقيق حلم

العودة إلى فلسطين ارض الميعاد. وقد انبثقت وتكونت نتيجة المساعي المبذولة في تحقيق هذا المشروع المبني على الباطل والقائم على التضليل والخداع المنظمة الصهيونية العالمية في نهاية القرن التاسع عشر، ففي آب من عام ١٨٩٧ عقد أول مؤتمر دولي للصهاينة في مدينة بازل بسويسرا حضره نحو ثلاثمائة شخص يمثلون خمسين جمعية يهودية تمخض عنه تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية وقد انتخب المؤتمر تيودور هرتزل رئيساً له[٢] . وبعد ذلك بوقت قليل انبثقت عن المنظمة سنة ١٩٠٢ الجمعية الصهيونية الدولية المساهمة، التي اصبح لها فروع محلية تمثل اكبر الاتحادات المالية المرتبطة اقتصادياً بأوثق الصلات مع احتكارات الدول الاستعمارية، وقد حدد مؤتمر بازل أهداف المنظمة الصهيونية في العبارات التالية:

" إن غاية الصهيونية هي خلق وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام " ، كما رأى المؤتمر في الوسائل التالية الطريق إلى تحقيق هذه الغاية:

١- العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة.

٢- تنظيم اليهودية العالمية، وربطها بواسطة منظمات محلية ودولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد.

٣- تقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتغذيتها.

٤- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غايات الصهيونية.

وقرر المؤتمر أيضاً اعتبار اللغة العبرية لغة رسمية للتخاطب بين اليهود في جميع ربوع العالم. وتنفيذاً لهذا القرار توصل الحاخام "بن يهوذا" في سنة ١٩١١ إلى وضع لغة عبرية حديثة يمكن ان يستخدمها كل يهود العالم الذين يريدون الذهاب إلى فلسطين[٣] ، وهذه اللغة تعود إلى أصول جرمانية[٤] .

ومن الواضح ان الحركة الصهيونية غدت تمثل مخططا استعمارياً صرفاً ذا صبغة سياسية قائماً على ادعاء باطل وعلى الخداع والتضليل، وقد أخذ زعماؤها يتاجرون بها على مسرح الدول الاستعمارية الكبرى على حساب أهلها وسكانها العرب.

٢- بروتوكولات حكماء صهيون:

لقد كشف النقاب عن وثائق مهمة يعتقد أنها كانت مدار بحث ونقاش في المؤتمر الأول المنعقد في بازل سنة ١٨٩٧، فسميت هذه الوثائق "بروتوكولات حكماء صهيون". ويفضل البعض تسميتها بمقررات سنة ١٨٩٧م باعتبارها أعدت لتبحث في المؤتمر المنعقد في بازل في تلك السنة وتبرم بعد تلاوتها، وقد كتبت هذه الوثائق على شكل تقرير بدايته مفقودة وهو ينطوي على مخطط يومي لتمكين اليهود من السيطرة على العالم اجمع لمصلحة اليهود وحدهم وتأسيس حكومة ملكية استبدادية يهودية مقرها أورشليم أولا ثم تستقر إلى الأبد في روما عاصمة الامبراطورية الرومانية قديماً. والثابت ان مواد هذا المخطط مستقاة من التلمود الذي تجسمت فيه الروح المتعصبة والمعادية لكل من كان من غير اليهود وعقيدة "الشعب المختار" التي تمسك بها اليهود طيلة أدوارهم التاريخية[٥]. وعلى الرغم من إحاطة هذه الوثائق بأشد أنواع الكتمان والتحفظ فقد وقعت في أيدي من قام بترجمتها وطبعها. والشخص الذي قام بهذه المهمة الخطيرة هو الكاهن سرجي ينيلوس، وهو من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، فترجم الكتاب إلى الروسية ونشره بطبعة أولى محدودة سنة ١٩٠٢، وعلى أثر ذلك عمت المذابح ضد اليهود في روسيا وقد قتل منهم في إحداها نحو عشرة آلاف، ولكن نيلوس أعاد مع ذلك نشر الكتاب في مقدمة وتعقيب بقلمه سنة ١٩٠٥ وقد سماها "بروتوكولات حكماء صهيون"[٦]. ثم طبع الكتاب مرة أخرى في سنة ١٩١١، ومرة أخرى في سنة[٧] ١٩١٧.

وفي نفس السنة الأخيرة ذاتها قام المستر مارسدون، مراسل جريدة المورننغ بوست البريطانية بترجمة الكتاب إلى الإنكليزية عن النسخة الروسية لنيلوس المطبوعة سنة ١٩٠٥ والتي كانت إحدى نسخها قد وصلت إلى المتحف البريطاني سنة ١٩٠٦ . ثم أعيد طبع هذه الترجمة الإنكليزية خمس مرات في غضون ثلاث سنوات ين سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢١ ، وفي سنة ١٩١٩ ترجم الكتاب إلى الألمانية ونشر في برلين، ثم توقف طبعه بعد ان جمعت اكثر نسخه[٨] .

وقد اختلفت الروايات حول كيفية ظهور البروتوكولات للعالم وصحة وجودها أو عدمه، فادعى البعض أنها مختلقة وليس لها أساس من الصحة بينما أكدها البعض الآخر. فقد ذكر نيلوس في مقدمة كتابه ان صديقاً له (يعتقد انه اليكس نيقولا نيفتش كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية في عهد القيصرية دفعها إليه قبل أربع سنوات (١٩٠١) وهي بالتأكيد القطعي صورة حقيقية منقولة من وثائق أصلية سرقتها سيدة فرنسية من أحد زعماء الماسونية الحرة وقد تمت السرقة في نهاية اجتماع سري بهذا الرئيس في فرنسا حيث وكر المؤتمر الماسوني اليهودي. وتشير رواية أخرى إلى ان حكومة القيصر التي كانت تتعقب حركات الصهيونيين أنفذت جواسيسها الروس المجربين إلى بازل متنكرين وبينما المؤتمر منعقد في جلسة سرية دهم البوليس السري القيصري المؤتمر فكانت البروتوكولات من جملة ما استولت عليه أيدي المداهمين[٩] .

٣- نابليون يستغل فكرة استعمار فلسطين لمصلحته :

وكان أول من اجتذبته فكرة استعمار فلسطين على يد الصهيونيين نابليون بونابرت الذي كان قد خطط لتحقيق حلمه بإنشاء أمبراطورية في الشرق، فبعد شروعه في غزو فلسطين في سنة ١٧٩٩ وجه نداءاً إلى جميع اليهود في العالم يستحثهم فيه على الانضمام تحت لوائه والانضواء تحت رايته لاعادة بناء "مجد إسرائيل الضائع في القدس" على حد تعبيره ويصفهم بأنهم الورثة الشرعيون لفلسطين[١٠] . والظاهر ان نابليون اصدر هذا النداء لكسب

جانب اليهود فيستغل نفوذهم في أقطار الدولة العثمانية ومعاونتهم له في تحقيق غاياته ومراميه. ولكن محاولة نابليون هذه انتهت بالإخفاق والفشل التام على أثر اندحار جيوشه أمام حصن عكا الحصين فاضطر بعد ذلك إلى مغادرة القطر المصري بسرعة والعودة إلى فرنسة رغم الانتصار الذي أحرزه في "أبو قير".

وفي أثناء حصار نابليون لعكا اصدر نابليون بيانا موجها إلى يهود العالم هذا نصه: "ان العناية الإلهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا قد جعلت رائدي العدل وكفلتني. وجعلت من القدس مقري العام، وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها لبلدة داوود.

"يا ورثة فلسطين الشرعيين!

إن الأمة العظيمة التي تتجر بالرجال كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادكم للشعوب، تناديكم الآن لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب، وليس بغية استرجاع ما فقد منكم بل لاجل ضمان ومؤازرة هذه الأمة لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم لكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيين".

"انهضوا وبرهنوا على ان القوة الساحقة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئاً بسبب تثبيط همة أبناء هؤلاء الأبطال التي كانت محالفة إخوانهم تشرف اسبارطا وروما".

ويعتقد ان نابليون قد تأثر بما كتبه بعض الكتاب الفرنسيين بشأن اليهود، ومن هذه الكتابات المذكرة التي قدمها البرنس "دي لينيه" إلى انبراطور النمسا جوزيف الثاني عن اليهود سنة ١٧٩٧ حيث أشار فيها إلى وجوب إصلاح شأن اليهود وإعادتهم إلى مملكة يهوذا وأضاف قائلاً: "وهم لا يحجمون عن أن يجعلوها بلاداً عامرة مزدهرة كما كانت في عهدها الماضي. ومتى عادت بلاد اليهود إلى يدهم، فأنهم لا يتوانون لحظة في إدخال

الزراعة والصناعة والفنون والتجارة إليها على الأساليب الغربية. ثم انهم يجددون هيكل سليمان ويستخدمون مياه الأمطار والمجاري لري حقولهم ومزارعهم، وينشئون القنوات والترع للملاحة." .[١١] هذا نموذج من الآراء التي كانت تروجها جماعة من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في أوروبا وقد كان لها صدى في تخطيط نابوليون لأنبراطوريته في الشرق.

٤- بريطانيا تحتضن الصهيونية وتتبنى مشروعها الاستعماري:

وبعد فشل نابوليون في تحقيق مشاريعه الاستعمارية في الشرق أخذت كل واحدة من الدول الاستعمارية الكبرى تحاول تحقيق نفس الأهداف التي كان نابليون يسعى لتحقيقها، أي استغلال التمهيدات الصهيونية لاستعمار فلسطين على يد اليهود لصالحها. وكانت إنكلترا في الطليعة وهي رائدة الدول الاستعمارية وأقدمها خبرة وأوسعها معرفة واطلاعاً بشؤون الاستعمار، فوجدت في المبشرين بالفكرة الصهيونية من رعاياها من اليهود وغيرهم أداة طيعة تستغلها في تحقيق المشروع لصالحها قبل ان تحتضنه دولة أخرى لصالحها.
ومن هؤلاء المبشرين الثري اليهودي البريطاني الجنسية السير موسى مونتوفيوري الذي كان في مقدمة المتحمسين للصهيونية ومشروعها الاستعماري، فزار فلسطين عدة مرات وأقام في مصر مراراً عديدة وكان مونتوفيوري هذا مقرباً من البلاط البريطاني يحظى برعاية خاصة من الملكة فكتوريا وريثة التاج البريطاني. وقد كان آنئذ اللورد بالمرستون متقلدا منصب رئيس الوزراء وكان بدوره من الذين يؤيدون مشروع تمكين اليهود من استعمار فلسطين لمصلحة بريطانيا. ففي سنة ١٧٣٨ قابل مونتوفيوري محمد علي باشا الكبير والي مصر بصفته حاكماً عاماً على سورية التي كانت ولاية فلسطين تابعة لها وعرض عليه "أن يؤجر لليهود مائة أو مائتي قرية مدى خمسين سنة في مقابل عشرة أو عشرين في المائة تدفع في الإسكندرية من قيمة الإيجار تدريجياً على ان تكون هذه القرى حرة مجردة من كل مانع ومحذور، أي طليقة من قيود الضرائب والإتاوة كل مدة الإيجار، وللزارعين الحق في بيع

حاصلاتهم في أي بلد من بلدان العالم وليس من حرج عليهم في ذلك" . وقد أسفرت هذه المقابلة عن "تعهد محمد علي باشا بالترخيص لليهود في شراء أية مساحة يستطيعون ان يجدوها في ربوع سورية . "وأبدى الوالي رغبته في ان تمنح لهم الأراضي بمجرد طلبهم وقال ان اليهود بإمكانهم والحالة هذه ان ينتخبوا حكاما يقع اختيارهم عليهم للإشراف على مقاطعات فلسطين بأسرها . وأكد انه لن يدخر وسعا في سبيل معاونتهم وشد أزرهم في إنجاز هذا المشروع . وقد أصدر أمرا بتأييد هذه التأكيدات والوعود كتابياً بمقتضى الفرمانات الصادرة عن الحكومة المصرية في هذا الخصوص . وكانت تهدف بالطبع مساعي مونتوفيوري هذه لحل المسألة اليهودية بوساطة استعمار فلسطين (على حد تعبيره) بموآزرة الحكومة البريطانية وتأييدها[١٢] وفي هذا الوقت بالذات وجه بالمرستون وزير خارجية بريطانيا، رسالة إلى نائب القنصل الإنكليزي في القدس يأمره فيها: "كن حاميا لليهود بصورة عامة" . وفي سنة ١٨٤٠ كتب بالمرستون أيضا إلى سفير جلالة الملك في استانبول رسالة يقول فيها: "من الواضح انه سيكون للسلطان مصلحة كبيرة في ان يشجع اليهود على ان يعودوا إلى فلسطين، وان يستقروا فيها . . احمل هذه الفكرة سراً إلى الحاكم التركي، واطلب منه في صراحة تامة ان يشجع يهود أوروبا على العودة إلى فلسطين . "[١٣] .

ثم نشبت الحرب بين محمد علي باشا وبين الحكومة العثمانية فأسفرت عن انتصار جيشه وزحفه على الآستانة بعد اسر عدد من القواد الأتراك . وقد أصبحت أبواب الآستانة مفتوحة أمام جيش محمد علي لولا تدخل الجيش الروسي لسد تلك الأبواب بوجهه، وبعد تدخل الدول الكبرى اضطر محمد علي باشا إلى سحب جيشه الظافر من الأناضول وترك الأقطار السورية ومن ضمنها فلسطين إلى الحكومة التركية لإدارتها بوساطة حكام من الباب العالي . وكانت شروط الصلح التي فرضت على محمد علي باشا في ٥ أيلول ١٨٤٠ تنازله عن سيادته على سورية وفلسطين على شرط ان يكون الحكم في مصر

حقاً متوارثاً لذريته وأعقابه، فكان ذلك ضربة قاصمة لمشروع مونتوفيوري ومؤيديه(١٤) إلا أن هذه الأحداث لم تثن دعاة المشروع عن مواصلة دعايتهم له والسعي لتحقيقه. ففي ٢٥ أيلول ١٨٤٠ كتب اللورد شافتبوري السياسي الإنكليزي المعروف رسالة إلى وزير خارجية بريطانيا بالمرستون يقول فيها: "إن سورية ومن ضمنها فلسطين ينبغي أن تحول إلى دومني ون انكليزي" وأكد أن الحاجة تستدعي من أجل ذلك إلى رأس المال واليد العاملة.. وإذا ما بحثنا مسألة عودة اليهود لبناء فلسطين واستيطانها فأننا سنكتشف بأن تلك أرخص الطرق وأسلمها لتأمين كل ما هو ضروري لهذه المنطقة الضئيلة السكان(١٥). وكتب شافتبوري بعد ذلك مقالا للصحف قال فيه: "ستكون سورية (ومن ضمنها فلسطين) بعد إعادة إنشائها بلدا تجاريا بصورة خاصة، ون هم اكبر التجار في العالم؟ وهل يوجد حقا مكان أ: ثر ملاءمة، ومنطقة مباركة، يمكن ان يبدي فيها اليهودي مؤهلاته؟ أنها ستكون ضربة موجهة ضد إنكلترا إذا ما امتلك أي من منافسيها سورية". وفي ٢٥ كانون الثاني ١٨٥٣ أعلن البرلمان الإنكليزي العقيد جورج غاولر، حاكم جنوب استراليا السابق "أن العناية الإلهية هي التي وضعت سورية ومصر على طريق إنكلترا إلى اكثر مناطق تجارتها الخارجية الكولونيالية أهمية وينبغي ان تجدد يد بريطانية سورية بوساطة الشعب الوحيد الملائم للقيام بهذه الرسالة والذي يمكن ان تستخدم طاقته بصورة دائمة وفعالة، أنهم الأبناء الحقيقيون لهذه الأرض، أبناء إسرائيل"(١٦). وقال جيمس نيل في كتابه "النزوح إلى فلسطين أو جمع شمل إسرائيل المنشورة" سنة ١٨٧٧: "إن احتمال إمكانية الإنكليز استيطان ارض فلسطين بنفس النجاح الذي استوطنوا به أمريكا الشمالية بعيد جداً وذلك بسبب حرارة الجو والصعوبات التي يقيمها العرب والافتقار إلى حماية فعالة وكثير غير ذلك. لهذا فهو يقترح ان يستخدم اليهود لتحقيق هذا الهدف"(١٧).

ومن أغرب الأحداث الدالة على التزاحم بين الدول على كسب النفوذ السياسي في فلسطين مشاركة انكلترا وألمانيا في تأسيس ارسالية تبشيرية

مشتركة في القدس سنة ١٨٥١ ، فاتفقتا على ان يشرف عليها أسقف مرسوم على المذهب (الأنكليكاني) الأنكليزي، ولكن تعيينه يجري بالتناوب بين ملك انكلترا وملك بروسية (ألمانية) ومما حمل الدولتين على تأسيس اسقفية مشتركة في القدس ان السلطات الانكليزية والبروسية في الشرق والحماية الدينية التي تتمتع بها فرنسا على النصارى الكاثوليك يحس ان توازنا بحماية ألمانية - انكليزية على البروتستانت . وقد كان أول أسقف على أسقفية القدس هذه ميخائيل شلمون اسكندر وهو حاخام يهودي متنصر . ومن الواضح ان الدوافع لتأسيس هذه الأسقفية المشتركة وإن كانت دينية في الظاهر ولكنها كانت سياسية من الدرجة الأولى[١٨] .

وهكذا بات الجو مهيئاً لظهور الصهيونية كحركة سياسية منظمة وكمؤسسة رأسمالية فأنشئت في إنكلترا في السبعينات من القرن التاسع عشر الشركة الكولونيالية السورية- الفلسطينية " بغرض استعمار سورية وفلسطين والبلدان القريبة . وفي سنة ١٨٩٧ ، كما ذكر من قبل، تم تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية بقيادة زعيمها الأول ثيودور هرتزل . وقد صاغ هرتزل الأفكار الصهيونية في حركة سياسية مرتبطة بالأمبريالية العالمية في كتابه " الدولة اليهودية " وأصبح هو المنظم لها وداعيتها ومندوبها السياسي . وقد كان لإنشاء قناة السويس بين سنة ١٨٥٩ و ١٨٦٩ ، وخاصة بعد ان تم لدزرائيلي شراء أسهمها سنة ١٨٧٥ ، أثر في توجيه سياسة بريطانية نحو فلسطين بغية اتخاذها قاعدة تستغل في حماية القناة، وذلك بتشجيع وتأييد المشروع الصهيوني الرامي إلى استعمار فلسطين من قبل اليهود تحت رعاية وحماية الحكومة البريطانية فقد جاء في مذكرات الوزير البريطاني المستر ايموي قوله : "نحن نرى من وجهة النظر البريطانية الخالصة، أن إقامة شعب يهودي ناجح في فلسطين يدين بوجوده وفرصته في التطور إلى السياسة البريطانية هو كسب ثمين لضمان الدفاع عن قناة السويس من الشمال ولاداء دور محطة الطرق الجوية المقبلة مع الشرق" . كما جاء في مذكرات تشرشل وهو آخر بناة

الاستعمار البريطاني قوله: "إذا أتيح لنا في حياتنا، وهو ما سيقع حتما، ان نشهد مولد دولة يهودية، لا في فلسطين وحدها، بل على ضفتي نهر الأردن معاً، تقوم تحت حماية التاج البريطاني وتضم نحواً من ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود، فأننا سنشهد وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحيوية للأمبراطورية البريطانية"[١٩].

٥- فلسطين في خطط الاستعمار الأوروبي -مقررات مؤتمر السير كامبل بنرمان لسنة ١٩٠٥ أو مؤتمر لندن:

إن نظرية كون الحضارات تمر بدورات متعاقبة تنمو وتزدهر، ثم تشيخ وتذبل وتندثر، ان هذه النظرية أخذت تقلق بال زعماء الاستعمار الأوروبي الحديث، مسترشدين بما وقع للحضارات القديمة عبر التاريخ مثل حضارة الفراعنة في مصر وحضارة الصين وحضارة البابليين والآشوريين وغيرها من الحضارات المتأخرة مثل حضارة الإغريق والرومان والحضارة العربية الإسلامية، وذلك لاتخاذ التدابير اللازمة للوقاية والحذر من قبل ان تحل الكارثة الحتمية بالحضارة الأوروبية الحديثة، القائمة على الاستعمار، لان هناك من المفكرين من كان يرى ان الحضارة الأوروبية الراهنة قد دخلت مرحلة الانهيار والاندثار.

وكان من العلماء العرب من أخذ بالنظرية ذاتها، ففي رأي ابن خلدون ان لدى الأمم والدول أعمار طبيعية كما للإنسان؛ فبعد ان تأخذ الأمم بالدعة والراحة وتنغمس في الملذات والشهوات وتميل إلى الرخاء والترف "تأخذ بمبادئ العطب وتتضعضع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى ان يقضى عليها". وقد ذكر عن نابليون انه قال بأن أوروبا شاخت وان القوة الآتية تكمن في مكانين كانا بكراً: أمريكا بشبابها الطاغي وروسيا بذلها الشديد الذي لا بد ان ينفجر عن شيء جديد قوي.

وجاء في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء (ص ١٨٢-١٨٣) وصف للدول والإمبراطوريات بنفس المعنى هذا نصه: "وأعلم ان الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان، ودور وقران، من أمة إلى أمة، وأعلم بأن كل دولة لها وقت منه تبتدئ، وغاية إليها ترتقي، وحدّ إليه تنتهي، فإذا بلغت إلى أقصى غاياتها ومدى نهاياتها، تسارع إليها الانحطاط والنقصان وبدأ في أهلها الشؤم والخذلان، واستأنف في الآخرين من القوة والنشاط والظهور والانبساط، وجعل كل يوم يقوى هذا ويزيد، ويضعف ذاك وينقص إلى ان يضمحل الأول المقدم ويستمكن الآتي المتأخر".

وقد كان أول من تنبأ تنبؤاً قاطعاً بانهيار حضارة أوروبا الحالية الفيلسوف الألماني اوزوالد شبنجلر الذي أعلن رأيه هذا معززاً رأيه بالنظرية القائلة بأن التاريخ الإنساني ليس خطا مستقيماً إلى التقدم، ولكنه دورات متعاقبة النمو والانحلال وأن كل حضارة هي أشبه بإنسان، يولد وينمو ويزدهر ثم يشيخ ويذبل ويموت، ثم تبدأ دورة حضارة أخرى في مان آخر من العالم وهكذا. ومن أقوال شبنجلر[٢٠]: "إن الحشرات تشبه البشر لأنها تولد وتنمو وتنضج وتموت. ويتكون البشر من حجيرات بايولوجية أما الحضارة فإنها تتألف من البشر الذين يموتون وتخلفهم أجيال جديدة تماماً كالحجيرات التي تتغير في أجسامنا كل ثماني سنوات".

وقد آمن ارنولد توينبي بنظرية شبنجلر في ان التاريخ دورات حضارية تولد وتنمو تشيخ وتموت. ولكنه قال ان هذا لن يحدث للحضارة الراهنة، والسبب في رأيه ان الحضارة الراهنة تعلمت من التاريخ وعرفت الخطر فهي سوف تتمكن من ان تتجنب تكراره[٢١].

وتحسساً بالخطر المحدق بالحضارة الأوروبية القائمة على الاستعمار عقد مؤتمر لندن عام ١٩٠٥ سراً واستمر حتى عام ١٩٠٧، وقد دعا إليه السير كامبل بنرمان[٢٢] الذي كان يشغل منصب رئاسة الوزارة البريطانية بغية تشكيل جبهة استعمارية موحدة من الدول ذات المصالح المتوافقة في العالم آنذاك

وهي: بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإيطاليا وأسبانيا، باعتبار ان تعاون بريطانيا مع هذه الدول ضرورياً لمصلحة بريطانيا في إيقاف المد الاستعماري الألماني الجديد من جهة وفي تنسيق التوسع الاستعماري البريطاني من الجهة الأخرى، واتفقت الدول المذكورة على التعاون الودي بينها وعلى تأليف لجنة من خبرائها تتولى دراسة الوضع القائم ثم تقدم لها مقترحات وتوصيات فيما يتعلق بضمان استمرار نمو المصالح المشتركة بالدول الاستعمارية إلى تنسيق العمل فيما بينها على الرغم من الخلافات القائمة في علائقها السياسية، فأعلن السير كامبل بنرمان عن عقد المؤتمر وكان يتألف من مشاهير المؤرخين وكبار علماء الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والتاريخ والنفط والزراعة والاستعمار في دول الاتحاد، وكان بينهم البروفسور جيمن جيمس مؤلف كتاب البحوث التاريخية المشهور وزوال الإمبراطورية الرومانية، ولوي مادلين الأستاذ في السوربون ومؤلف كتاب نشوء وزوال إمبراطورية نابليون، وليستر الأستاذ في جامعة لندن، ولتسنخ، وسميث، ودرتنج، وزهروف وغيرهم من مشاهير العلماء والأساتذة، وقال بنرمان يخاطب المؤتمر في تحديد مهمته:

" . . . ان الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما، ثم تنحل رويداً ثم تزول، والتاريخ مليء بمثل هذه التطورات وهو لا يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة. فهناك إمبراطوريات روما، وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها، فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن ان تحول دون السقوط والانهيار، أو تؤخر مصير الاستعمار الأوروبي وقد بلغ الآن الذروة وأصبحت أوروبا قارة قديمة استنفذت مواردها وشاخت معالمها بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية. ! هذه هي مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا. . . ! ".

وقام المؤتمر بدراسة تاريخ الإمبراطوريات وتطوراتها وكيف نشأت وازدهرت ثم تلاشت وانحلت، كما قام ببحث الأسباب التي أدت إلى انهيار هذه الإمبراطوريات بعد بلوغها قمة الحضارة، ثم درس الإمبراطوريات الراهنة، وبعد مضي اكثر من سنة استمر في الدراسة قدم المؤتمر نتائج ما توصل إليه على شكل تقرير سري خاص إلى وزارة الخارجية البريطانية، ولما رأت خطورته أحالته على وزارة المستعمرات البريطانية، ثم اختفى التقرير من غير ان يعرف أحد به. وقد بقي هذا التقرير منسيا حتى قبيل الحرب العالمية الأولى "حينما نشره صحفي بريطاني صهيوني في معرض الدفاع عن الوطن القومي اليهودي في فلسطين، واستشهاداً بآراء وقرارات الحكومة البريطانية وسادة الاستعمار العالمي على ذلك وتبريراً لقيام (إسرائيل) كضرورة اقتصادية وسياسية واجتماعية لأوروبا ولمصالحها وسيطرتها في الشرق (الثقافة القومية الاشتراكية، دمشق، ١٩٧٣-١٩٧٢، ص٧١)"[٢٣].

لقد احتوى التقرير على مقدمة شرحت فيها مصالح الدول الاستعمارية في العالم القديم وفي مقدمتها بريطانيا التي لها مصالح في جميع القارات، وكذلك لفرنسا مصالح أيضا في القارة الأفريقية وفي الهند الصينية وجزر المحيط الهادي. أما إيطاليا فمصالحها في ليبيا وكذلك فإن لإسبانيا مصالح حيوية في المغرب وجزر الأطلنطي، ثم قسم العالم إلى مناطق نفوذ وأعطى لكل دولة من دول الاتحاد منطقة أو اكثر فيه. "ثم انتقل التقرير بعد ذلك إلى إثبات حقيقة أساسية مشتركة في كل الدول الاستعمارية وهي ان البحر المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار ولمصالح كل الدول المتحدة، الآتية والمقبلة. فهو الجسر بين الشرق والغرب، وهو الممر الطبيعي إلى آسيا والى إفريقيا، وهو ملتقى طرق العالم، فلا بد لنجاح أية خطة تستهدف حماية المصالح الأوروبية المشتركة من السيطرة على هذا البحر وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية، لأن من يسيطر على هذه المنطقة يستطيع التحكم في العالم (المرجع السابق، ص٧٤).

وبعد استعراض أسباب زوال الإمبراطوريات السابقة، شرح الباحثون مصدر الخطر الذي يهدد إمبراطوريته ويزيلها كما زالت الإمبراطوريات السابقة. فتوصلوا إلى ان الخطر يكمن في البحر المتوسط وفي شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص، "فعلى الممر البري الضيق الذي يصل آسيا بأفريقيا، وتمر فيه قناة السويس شريان حياة أوروبا وعلى جانبي البحر الأحمر وعلى طول ساحلي البحر الهندي وبحر العرب حتى خليج البصرة حيث الطريق إلى الهند والى الإمبراطوريات الاستعمارية في الشرق، في هذه البقعة الشاسعة الحساسة يعيش شعب واحد، تتوفر له من وحدة تاريخية ودينية ووحدة لسانه وآماله، كل مقومات التجمع والترابط والاتحاد، وتتوفر له في نزعاته التحررية وفي ثرواته الطبيعية ومن كثرة تناسله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض. ويبلغ تعداده الآن ٣٥ مليون نسمة، ويمكن ان يرتفع في مدى قرن واحد إلى مائة مليون نسمة بالنسبة إلى شرائعه الإسلامية التي تتيح تعدد الزوجات وتؤدي إلى زيادة النسل والتكاثر. "فكيف يمكن ان يكون وضع هذه المنطقة إذا توحدت فعلا آمال شعبها وأهدافه، وإذا اتجهت هذه القوة في اتجاه واحد؟".

واستطرد التقرير في التساؤل:

"ماذا لو دخلت الوسائل الفنية الحديثة ومكتسبات الثورة الصناعية الأوروبية إلى هذه المنطقة!. وماذا لو انتشر التعليم وعممت الثقافة في أوساط هذا الشعب؟ وماذا سيكون إذا تحررت هذه المنطقة واستغلت ثرواتها الطبيعية من قبل أهلها؟.".

ويجيب التقرير على هذا السؤال: فيقول:

"عند ذاك ستحل الضربة القاضية حتماً بالإمبراطوريات الاستعمارية، وعندها ستتبخر أحلام الاستعمار بالخلود، فتتقطع أوصاله ثم يضمحل وينهار كما انهارت امبراطوريات الرومان والإغريق" (المرجع السابق، ص٧٣-٧٤).

وهذا نص القسم الذي أمكن الاطلاع عليه من التقرير:

" إن الخطر ضد الاستعمار في آسيا وفي إفريقيا ضئيل. ولكن الخطر الضخم يكمن في البحر المتوسط، وهذا البحر هو همزة الوصل بين الغرب والشرق، وحوضه مهد الأديان والحضارات، ويعيش على شواطئه الجنوبي والشرقية بوجه خاص شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللسان، وكل مقومات التجمع والترابط. هذا فضلا عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية. فماذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانيات الثورة الصناعية الأوروبية، وانتشر التعليم فيها وارتفعت الثقافة؟! إذا حدث ما سلف فستحل الضربة القاصمة حتما بالاستعمار الغربي، وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالي:

١- على الدول ذات المصالح المشتركة ان تعمل على استمرار تجزأة هذه المنطقة.. وتأخرها، وابقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل.

٢- ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري، قوي وغريب، يحتل الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة "[٢٤].

يتضح مما تقدم ان مستقبل فلسطين ومصيرها تقررا في هذا التقرير.

وتدل الحوادث التي وقعت بعد ظهور هذا التقرير دلالة واضحة على ان خبراء السياسة البريطانية ومعهم خبراء الدول ذات المصالح المشتركة أخذوا يخططون بدقة متناهية ويعدّون الوسائل التي تأمل تنفيذ وتحقيق المنهاج المقترح. فأقيم الحاجز البشري من عنصر غريب على شكل قوة " صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة " وذلك عن طريق تنفيذ وعد بلفور وغرس إسرائيل شوكة في قلب المنطقة.

وهنا التقت الصهيونية بمخطط الاستعمار الجديد، فمنذ سنة ١٩٠٧ سار الاستعمار البريطاني والصهيونية العالمية جنباً إلى جنب في طريق القضاء على عروبة فلسطين واقامة (دولة إسرائيل) فيها فسارعت بريطانيا وهي سيدة الاستعمار حينذاك إلى الأخذ بيد الصهيونية واتفقت مع زعماء الصهيونية العالمية على تأسيس دولة إسرائيل في فلسطين ونسقت معهم العمل على تحقيق هذا الهدف المشترك. ثم نظمت المخططات السياسية للحيلولة دون اتحاد البلاد وذلك بوضع العراقيل في وجه أية محاولة ترمي إلى تحقيق الوحدة بينها. أما فيما يتعلق بإبقاء الشعب على ما هو عليه من تأخر وجهل فقد قام الاستعمار البريطاني بسن تشريعات العشائر في الدول العربية عندما كانت تحت الاحتلال أو الانتداب خدمة لأغراضه في المنطقة. وهذه التشريعات كانت تستهدف المحافظة على القيم والتقاليد القديمة التي تحجرت وراء قرون طويلة من التخلف وإظهار الكيانات القبلية وتنمية دور القبائل وزيادة وزنها الاجتماعي ومنع اندماجها في المجتمع العربي ليبقى المجمع العربي في حالة من التفكك والانقسام... ففي العراق قامت سلطات الاحتلال البريطاني باستصدار نظام دعاوي العشائر لسنة ١٩١٨ الذي وضعه المستر هنري دويس من أعوان المندوب السامي البريطاني والذي كان يهدف إلى تنمية العادات المحلية للعشائر والمحافظة عليها من الاندثار. وقد استمر هذا النظام قائما إلى ان لغته ثورة تموز لعام ١٩٥٨. كما سن قانون تسوية حقوق الأراضي رقم ٥٠ لسنة ١٩٣٢ وزعت الأراضي الزراعية بموجبه على رؤساء العشائر بعد ان كانت ملكية الأرض تعود إلى العشيرة بأسرها فثبت هذا القانون حقوق الرؤساء فيها. ومما ساعد على تنفيذ هذا المخطط الصلاحيات الواسعة التي منحت إلى رؤساء تسوية الأراضي، وهم بريطانيون، بعد ان أوكل إليهم تطبيق القانون وفق السياسة البريطانية المرسومة، وهكذا برزت في العراق حفنة من الإقطاعيين المنفذين والموالين للاستعمار الذي أصبح حليفهم الطبيعي وشريكهم في مقاومة أماني الشعب وتطلعاته التقدمية التحررية. وقد ألغت ثورة تموز هذا النظام الإقطاعي بتحديد الملكية بموجب قانون الإصلاح الزراعي رقم ٣٠ الصادر في أيلول ١٩٥٨.

وفي الأردن قامت السلطات الإنكليزية بسن أول قانون لمحاكم العشائر عام ١٩٢٤، ثم حل محل هذا القانون محاكم العشائر لسنة ١٩٣٦ ومنح بموجبه قائد الجيش سلطات واسعة في الإشراف على العشائر ومعالجة شؤونهم. وفي فلسطين قامت السلطات الإنكليزية أثناء فترة انتدابها على هذه البلاد بوضع عدد من التشريعات لتحقيق الأهداف نفسها والتي لم تزل نافذة حتى اليوم في الضفة الغربية من الأردن[٢٥].

وفي سورية سار الفرنسيون على النمط نفسه حتى تكوّن قانون العشائر الصادر سنة ١٩٤٠ بحيث أصبحت العشائر في بادية الشام بموجب هذا القانون دولة داخل دولة. وفي ذلك يقول الأستاذ حبيب جاماتي: "مجموعة من الناس مكنتهم شريعة الاستعمار من الخروج على القانون!.. خلعت عليهم الإقطاعيات أعفتهم من الخدمة العسكرية وأتاحت لهم حمل السلاح.. حمتهم من الضرائب بل مكنتهم من الاتاوات على الضعفاء!.. ثم بعد إصدار قانون الإصلاح الزراعي سنة ١٩٥٨ الذي ألغي بموجبه نظام الإقطاع في سورية، كان لا بد من إصدار قرار متمم له، بإلغاء قانون العشائر الذي لم يكن ضرره أخف من الإقطاع. وبإلغاء هذا القانون العجيب تكون قد انطوت صفحة سوداء من صفحات الماضي البغيض، لأنها صفحة كتبتها يد المستعمر للتفريق بين أبناء الوطن الواحد"[٢٦]. وهكذا كان في مصر وغيرها من بلدان الوطن العربي.

وكانت البادرة البارزة التي تلت ظهور تقرير لجنة كامبل بزمن تلك الحرب الشعواء غير المعلنة التي شنها الاستعمار على اللغة العربية الفصحى (لغة الوحي التي نزل بها القرآن الكريم رحمة للعالمين) والتي استخدم فيها جميع صنوف أسلحة التضليل والتزييف، وشتى الأساليب والحيل بقصد تفريق المجتمعين عليها تحت ستار من الرغبة في الإصلاح والتطور ومسايرة العصر. ولا غرو فقد اكتشف فيها الرباط المقدس الذي يشد الملايين العربية بعضهم إلى بعض في مختلف أقطارهم وديارهم من المحيط إلى الخليج

والأساس المتين لجمع كلمتهم وإقامة وحدتهم في ما توافرت لها الظروف الملائمة. والى جانب الملايين العربية توجد مئات من الملايين المسلمة وغير المسلمة التي تستخدم الحرف ا لعربي في كتاباتها والتي بمقدور اللغة العربية، باعتبارها لغة الدين والوحي، بما تتميز به من الخصائص التي لا تتوافر لأية لغة عداها لما فيها من جمال في الكتابة، وقدرة على نطق جميع الأصوات التي يستخدمها الإنسان والحيوان أيضا للتعبير على حاجاته ورغباته وأداء تلك الأصوات كتابة، ان تضمها إلى الملايين العربية.

واللغة العربية، فوق هذا وذاك، هي اللغة الام التي تفرعت عنها جميع لغات الدنيا وحاملة لواء الحضارات العربية المتعاقبة التي سايرت الإنسان منذ ان وجد على الأرض والتي تعود إلى أجيال سحيقة في التاريخ تصل إلى القرن التسعين قبل الميلاد في مملكة ايبلا والقرن الستين في ماري والى أربعة آلاف وخمسماية سنة قبل الميلاد في كنعان وبلغت اوج ازدهارها عند مطلع القرن الثلاثين قبل الميلاد، في كل من حوضي وادي النيل ووادي الرافدين في حقبة زمنية واحدة وعلى مستوى واحد من العظمة والجلال.

والاستعمار، على حداثته، أخذت شعوبه تشعر بالهرم نسبياً وتشكو من نقص مواردها الطبيعية على عكس الشعوب العربية الأخرى التي يمكن للغة العربية الفصحى ان تجمعها في وحدة متكاملة فيما لو توافرت لها الظروف الملائمة حيث ما زالت تحافظ على نضارتها وسريان ماء الشباب في عروقها وتحتفظ بفائض في مواردها الطبيعية ولأجيال عديدة لا يمكن حصرها. وعندئذ ماذا سيكون مصير والى ماذا ستؤول خسارته الباردة الجامدة التي بناها على الأخذ دون العطاء وامتصاص دماء الشعوب فيما لو قيض قيام مثل هذه الوحدة.

فاللغة العربية الفصحى اذن تحمل في طياتها شبحاً أخذ يهدد الاستعمار ويرى فيه مصيره المحتوم ولا بد له إن هو أراد الحؤول دون ذلك المسير أو تأخيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى يجد لنفسه مخرجا ان يعمل

جادا وان يركز على تقويض اللغة العربية الفصحى وتأديب المجتمعين عليها لهجرها والانتقال إلى غيرها. فأخذ يوجه إليها الاتهامات الباطلة كقوله "إن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة عامل من أهم عوامل التخلف الثقافي" وينشر الدعوات التي تطالب تارة بالأخذ بإحدى اللهجات العامية في الدول العربية كالمصرية أو السورية أو العراقية أو اللبنانية وطورا باستبدال الحروف الأبجدية العربية بالحروف اللاتينية ومرة ثالثة بإسقاط بعض أبواب النحو أو على الأقل تعديل بعض قواعده. وقد وجد من ساعد الاستعمار في حملته المسعورة ضد اللغة العربية للفصحى (لغة القرآن بدائية للأخذ بالآداب الحديثة أي ما يسمى بالأدب الشعبي ويقصد به كل ما هو بغير الفصحى. وخلاصة القول ان هذه الدعوات كانت تستهدف المسلمين عامة، والعرب خاصة، وعن طريق تفريقهم في الدين، وتفريقهم في اللغة وتفريقهم في الثقافة وقطع الطريق على كل توسع محتمل للغة العربية بين مسلمي العالم لمنع وحدتهم الكاملة. ولقد استطاع الاستعمار ان يحرز بعض النجاح في حربه هذه بإخراجه تركية من حظيرة الشعوب التي تستخدم الحرف العربي في كتاباتها واستخدام الحرف اللاتيني عوضا عنه مقابل اقطاعها أجزاء من سورية والعراق ولكنه لاقى فشلا ذريعاً داخل الوطن العربي ولم يكلل بالنجاح أي مسعى من مساعيه ولا دعوة من دعواته وهذا مما يدل على عمق جذور اللغة العربية.

وترجع البدايات الأولى لنمو الدعوة للعامية إلى أوائل القرن الثامن عشر عندما أخذت دول أوروبا تنشئ معاهد خاصة لتدريس اللهجات العربية العامية. وكان الغرض من إنشاء تلك المعاهد تخريج السفراء والقناصل وأعضاء الهيئات الدبلوماسية ولتخريج الجواسيس وغيرهم من الهيئات والأفراد الذين يوفدون إلى البلدان العربية المختلفة. وقد استعانت هيئات التدريس في تلك المعاهد ببعض المغتربين الموجودين آنذاك في دولها كما استعانوا بهم في التأليف. بيد أنه لم يكن لتلك المساعي أي خطورة على اللغة الفصحى إلى ان أخذ بعض المستشرقين ممن أوفدوا إلى الوطن العربي خصيصاً

لهذه الغاية ينشرون مؤلفاتهم ومقالاتهم باللهجة العامية ويدعون للأخذ بها مستغلين مراكزهم ونفوذهم للوصول إلى غايتهم المنشودة. وكان من أبرز أوائل أولئك المستشرقين الدكتور ولهلم سبيتا. وخلفه الدكتور كارل فولرس Vollers (١٨٥٧ - ١٩٠٩) وكلاهما من الجنسية الألمانية وعملا مديرين لدار الكتب المصرية. كان سبيتا أول من دعا إلى الأخذ باللغة العامية المصرية والى استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني عندما وضع كتابه: "قواعد العربية العامية في مصر" وذلك سنة ١٨٨٠م. أما الدكتور فولرس الذي نهج نفس منهج سلفه فقد زاد عليه بان استنبط حروفًا لاتينية لكتابه العامية المصرية.

وتلاهما في هذا الاتجاه المستشرقان البريطانيين سلدن ولمور وياول.. اللذان عملا كقاضيين في المحاكم الأهلية في القاهرة عندما وضع الأول سنة ١٩٠١ كتاباً اسماه "لغة القاهرة" ضمنه قواعد لهذه اللغة ودعا لاتخاذها لغة للعلم والأدب كما اقترح فيه كتابتها بالحروف اللاتينية. وتصدت الصحف لهذه الدعوة مشيرة إلى مكامن الخطر فيها والتي لا يقصد منها غير محاربة الإسلام في لغته وكانت ردة الفعل من القوة ان الهبت خيال الشاعر حافظ إبراهيم ودفعته إلى وضع تائيته العصماء التي مطلعها:

رجعت لنفسي فاتهمت حماتي   وناديت قومي فاحتسبت حياتي

حاملاً على تلك الدعوة الهدامة ومعرضا فيها على لسان اللغة العربية ميل أبنائها عنها إلى اللغات الأجنبية.

وتلا ولمور وياول في هذا المضمار المهندس البريطاني المشهور ويليام ويلكوكس الذي كان أشرس المستشرقين وأكثرهم نشاطا في الدعوة إلى إقصاء اللغة الفصحى واتخاذ العامية بديلا عنها. فويلكوكس لكثرة ما تجول في البلدان العربية كان يعلم ان الفصحى هي سر هذا الترابط القومي في الشعوب بين العرب خاصة والمسلمين عامة ويعلم مدى تثبتهم بها باعتبارها لغة القرآن، لذلك كان شديد الحرص في دعوته وللوصول إلى الغاية المنشودة ونسف ذلك الترابط القومي فقد سعى للفصل بين الجماهير العربية ولغتها القومية. ففي

محاضرة ألقاها سنة ١٨٩٣ في هذا الاتجاه أبدى تفاؤله بمستقبل الشعب المصري وأعرب عن ثقته في قدرته على اكتساب ملكة الاختراع والإبداع ان اتبع مشورته ولبى دعوته للكتابة والتأليف بالعامية، وجدد دعوته إلى هجر اللغة العربية الفصحى سنة ١٩٢٦ عندما نشر رسالة تحت عنوان "سورية ومصر وشمال إفريقيا ومالطة تتكلم اللغة اليونانية وليس العربية". وكذلك ترجم قطعا من روايات شكسبير إلى ما أسماه "باللغة المصرية" ونشرها مسرحاً، للدعوة، إلى العامية بدعوى ضرورة الاطلاع على أدب شكسبير ولا سيما الطلبة الذين يمثلون الجيل الصاعد، كما نقل إلى العامية أجزاء من الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد وألف أيضا كتاباً أسماه "الأكل والإيمان" ضمنه إرشادات صحية وفوائد طبية.

ولم يكتف أولئك المستشرقون بتلك الكتب والمقالات والمحاضرات بل تعدوا ذلك إلى تدوين ما أسماه "بالآداب الشعبية والفولكلورية" باللغة العامية كالأزجال المصرية والأغاني الشعبية والأمثال والحكمة في ذلك إدخال العامية في نماذج من المطبوعات القابلة للتداول وأخذت الدعوة في الانتشار عندما أدخلت اللهجة السوقية إلى المسرح الهزلي ومنه انتقلت إلى المسرح الجاد.

وكذلك فقد حارب الاستعمار الفرنسي اللغة العربية الفصحى في شمال إفريقيا حربا لا تقل في شراستها عنفا عن حرب الاستعمار البريطاني لها في مصر ووضع مستشرقوه كتبًا عدة في دراسة اللهجات البربرية ووضع القواعد لها بقصد إحلالها محل اللغة العربية الفصحى. وكان على رأس الحركة الرامية إلى الكتابة باللغة العامية وبالحرف اللاتيني المستشرق لويس ماسينيوين الذي حاول ان يثبت دعوته هذه في المغرب العربي وفي مصر والعراق(٢٧)ب ولا سيما في سورية ولبنان.

وقد تمكنت تلك المساعي والجهود المبذولة ان توصل الدعوة للعامية إلى كبريات الصحف والمجلات المصرية وأخذ بعضها بالترويج لها. ففي سنة

١٨٨١ اقترحت مجلة المقتطف كتابة العلوم بلغة الحديث أي بالعامية ودعت رجال الفكر إلى بحث اقتراحها ومناقشته. وأكدت المقتطف موقفها المؤيد للعامية وأثارت الصراع بين الفصحى والعامية من جديد بتقريظها لكتاب ولمور الذي أصدره سنة ١٩٠١، ووقفت مجلة الأزهر إلى جانب المقتطف في الدعوة إلى العامية وبحرارة تفوق حرارة ويلكوكس الذي أغرى المصريين بمكافآت مالية ضخمة للتباري في الكتابة باللغة العامية. أما مجلة الهلال، وإن لم تكن شديدة الحماس للعامية كزميلتها المقتطف، فقد نشرت مقالات لسلامة موسى يثني فيه على ويلكوكس كمهندس وكأديب وكواحد من الإنجليز المخلصين لمصر وضمنه اقتراحه بإلغاء الأعراب وتسكين أواخر الكلمات مدعيا أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصري ولا تنهض به وإنما تبعثر الوطنية المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية، وامتدح سلامة رسالة ويلكوكس "سورية ومصر وشمال افريقا تتكلم اليونانية وليس العربية" وأشاد بها وكرر تأييده لدعوته في هجر الفصحى هجراً تاماً. وكان من الذين شاركوا في هذه الحملة الظالمة على الفصحة "لويس عوض" الذي دعا هو الآخر إلى نبذ الشعر الموزون وإحلال العامية محل الفصحى.

وبلغت الدعوة إلى العامية ذروتها عندما تمكنت من التسلل إلى "مجمع اللغة العربية" وظهرت في مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات حول "اللهجة العربية الاسمية" ١٩٣٧-١٩٣٤ كتبها عضوه المدعو عيسى اسكندر المعلوف أظهر فيها عداءاً صريحاً للعربية الفصحى وكان قد سبق تلك المقالات بمقال نشره سنة ١٩٠٢ في مجلة الهلال دافع فيه عن اللهجات السوقية مؤكدا ان اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة هو من أهم أسباب التخلف الثقافي في الدول العربية: كما ادعى ان تعلق المسلمين باللغة الفصحى هو أمر لا مبرر له لأن هناك مسلمين كثيرين يتحدثون العربية ولا يكتبون بها فعلاً. وتبعه عضو آخر من أعضاء هذا المجمع هو عبد القادر المغربي الذي نشر مقالاً في مجلة المجمع سنة ١٩٣٦ تحت عنوان دراسة في

اللهجة المصرية " ، وتلاه عضو آخر هو عبد العزيز فهمي الذي تقدم باقتراح يرمي للأخذ بالحروف اللاتيني لكتابة العربية في الجلسة المنعقد في ٣-٥-١٩٤٣ . وتناول موضوع اللغة العامية عضو آخر هو محمد فريد أبو حديد في دراسة عن خصائص اللغة العامية اختلق لها ذرائع ومبررات لا طائل تحتها . وتدل ردود الفعل القاسية الي كان يوجهها المناوئون لفكرة اتخاذ العامية والحروف اللاتينية للكتابة وما شابه ذلك على أن الرأي العام كان مع العربية الفصحى والى جانب تلك الردود وهكذا فقد آلت جميع تلك المساعي المبذولة للقضاء على اللغة العربية الفصحى إلى فشل ذريع .[٢٨]

هذا غيض من فيض من مساعي الإنكليز للقضاء على اللغة العربية الفصحى ووأدها في مصر ليتم للاستعمار تنفيذ مناهجه الرامية إلى هدم التراث العربي من أساسه والتخلص من القومية العربية المرتبطة باللغة العربية الفصحى (لغة القرآن)، وقد عرضناها جملة لإظهار شراسة الاستعمار الذي كان الإنجليز في مقدمة الساعين لتحقيق أهدافه في البلاد العربية وقد فشلت جميع تلك الجهود المبذولة في هذا المضمار وانحسر الاستعمار[٢٩] ج .

٦- فكرة استعمار العريش وشبه جزيرة سيناء :

كانت فلسطين كما سبق ذكره الهدف الأساسي في مشروعات هرتزل لاستيطانها وتأسيس دولة يهودية فيها، إلا ان محاولاته المباشرة وغير المباشرة في هذا السبيل، أي محاولة إقناع السلطان عبد الحميد بالموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين باءت جميعها بالفشل[٣٠]، ففكر هرتزل ان يتجه إلى الحكومة البريطانية التي كانت تظهر العطف على الحركة الصهيونية منذ نشوئها بغية حصلوه على معونتها في استعمار العريش وشبه جزيرة سيناء كبداية لتحقيق المشروع الأصلي الذي يرمي إلى استعمار فلسطين، فجعل من مدينة لندن سنة ١٩٠٢ المقر المالي للحركة الصهيونية. وقد لاقى هرتزل تشجيعًا من المسؤولين البريطانيين فقابل المستر جوزف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطاني وفاتحه في موضوع العريش وسيناء، ويروي هرتزل انه في نهاية

المقابلة سأل الوزير البريطاني هل يوافق على إنشاء مستعمرة يهودية في شبه جزيرة سيناء فأجابه نعم إذا وافق اللورد كرومر مندوب بريطانيا السامي في مصر . وفي اليوم التالي قابل هرتزل اللورد لانسدون وزير الخارجية فأعرب له الوزير عن تأييده لفكرة إقامة متسعمرات يهودية في منطقة العريش وشبه جزيرة سيناء وعن استعداده لكتابة رسالة إلى اللورد كرومر يوصيه باستقبال ممثل هرتزل وتسهيل مهمته الاستطلاعية . وقد اسفرت زيارة ممثل هرتزل المدعو "جرينبرج" لمصر عن تأييد اللورد كرومر ورئيس وزراء مصر حينذاك للاقتراح الرامي إلى استعمار اليهود لشبه جزيرة سيناء ، واقترح اللورد كرومر إيفاد بعثة دراسية من الخبراء لبحث هذا المشروع والطريقة التي يمكن بواسطتها ري الصحراء من مياه النيل ، ولكن خبراء الري عارضوا مشروع ارواء الصحراء من النيل مما اضطر هرتزل إلى التخلي عن المشروع كليًا .

٧- اقتراحات لاستعمار اوغنده ، وموزمبيق وبعض الكونغو ثم إعادة التركيز على فلسطين

وبعد فشل مشروع سيناء تقدم تشمبرلين باقتراح إلى هرتزل يرمي إلى استيطان اليهود أوغنده في إفريقيا الشرقية ، وقد جرت اتصالات حول الحصول على موزمبيق من حكومة البرتغال ، كما انه ورد ذكر إمكانية استعمار أجزاء من الكنغو ، ولكن هرتزل قال في تعليقه على ذلك بأن هذه المشاريع كلها لن تغيّر من المخططات الصهيونية الأصلية بشأن استعمار فلسطين وأضاف أن آمالنا في تحقيق هدفنا النهائي لم تكن في يوم من الأيام أقوى مما هي عليه الآن ، وسيقوى نضالي من أجل ارض صهيون ويعظم ويشتد ، بفضل القوى الجدية التي أصبحت في جانبنا " . وبموت هرتزل في الثالث من تموز ١٩٠٤ ماتت المشاريع الصهيونية المتعددة إذ اتخذ المؤتمر الصهيوني السابع قراراً بالتخلي عن جميع المشاريع الاستعمارية الصهيونية خارج فلسطين ، وانصرفت القيادة الصهيونية الجديدة في السنوات التالية إلى مشاريعها الاستعمارية في فلسطين بزعامة الدكتور حاييم وايزمن الذي وجد في بريطانيا

خير حليف للصهيونية خاصة بعد ان تحقق النصر للحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى وفرضت السيطرة البريطانية على فلسطين. وكان قد تمكن مكتب فلسطين الذي أنشأته المنظمة الصهيونية في يافا عام ١٩٠٨ وبمساعدة الصندوق القومي اليهودي، من بناء منطقة سكنية جديدة سنة ١٩٠٩ أصبحت نواةمدينة تل أبيب. وقد نشطت المؤسسات الصهيونية المالية في بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين وذلك بشراء الأراضي وتدريب المستوطنين وإنشاء المدارس المهنية حتى تمكنت من توطين نحواًمن أربعين ألف يهودي في فلسطين في فترة ما قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، ثم توقفت أعمال المؤسسة الصهيونية مؤقتاً عن العمل بسبب الحرب، ولم تكد الحرب تنتهي حتى بادر الصهيونيون إلى إعادة تنظيم الحركة الصهيونية على نطاق عالمي، فتم عقد المؤتمر الصهيوني في لندن سنة ١٩١٩ الذي أدّى إلى قيام أول تنظيم للفكرة الصهيونية داخل فلسطين الذي ما لبث ان تحول إلى الوكالة اليهودية بدوائرها السياسية والتنظيمية والمالية والدعائية وبمكتبها المتخصص في شؤون الهجرة. واستكملت الحركة الصهيونية في هذا المؤتمر وفي المؤتمر الذي تلاه في لندن أيضا في عام ١٩٢٠ وفي مقدتها الصندوق القومي الجديد للإسكان والاستعمار[٣١].

٨- محاولات لتطوين اليهود في العراق:

وقد كتب الدكتور غروبا وزير ألمانيا المفوض في العراق في مذكراته يقول: "وقد حاولت بعض المنظمات اليهودية الإنكليزية والفرنسية مرات عديدة ان توطن في العراق مجموعات من الفلاحين اليهود من أوروبا الشرقية، لاتساع الأرض ووفرة الماء في العراق مع قلة السكان الذين يقومون بزراعتها، وفي سنة ١٩٠٧ أوفدت "جمعية التوطين اليهودية" التي مقرها لندن، والتي كانت تتعاون تعاوناً وثيقا مع " "جمعية الاتحاد الإسرائيلي" في باريس، اليهودي الفرنسي "نييغو" Neigo إلى بغداد لدراسة موضوع التوطين، وقد بقي "نييغو" هذا أربعة اشهر أو خمسة في بغداد. . . واقترح

توطين خمسين ألف يهودي روسي وبولوني، فأيد المشروع وزير مالية تركيا جاويد بك ولكن عبد الحميد رفضه. . . وكذلك تسلّم الملك فيصل الأول خلال زيارة له إلى لندن في أيلول سنة ١٩٣٣ اقتراحًا بتوطين مئة ألف يهودي في دجلة السفلى، في المنطقة بين العزيزية وكوت العمارة وعرضت على الحكومة العراقية في حاله قبولها بعض الفوائد المالية، وخاصة تسهيلات في الحصول على قرض كبير. وكان المفروض ان يكون قسم من هؤلاء المائة ألف يهودي من مهاجرين المانيا. . فأرسل الملك فيصل هذا الاقتراح إلى الحكومة العراقية للنظر فيه. . . [٣٢].

٩- الصهيونية تنشط بعد الحرب العالمية الأولى وتعمل على تحقيق أهدافها باسناد من بريطانيا:

ولقد أصبح الباب مفتوحًا على مصراعيه أمام الصهيونية بعد احتلال الحلفاء لفلسطين في أواخر الحرب العالمية الأولى وراحت تعمل بكل نشاط في سبيل تحقيق مخططها الرامي إلى إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. وقد غدا وعد بلفور بعد قبوله في مؤتمر سان ريمو في عام ١٩٢٠ [٣٣] دستور السياسة البريطانية في فلسطين يهتدي به في تنظيم مخططات بريطانيا الاستعمارية خاصة بعد ان اقر مجلس عصبة الأمم في ٢٤ تموز من عام ١٩٢٢ انتداب بريطانيا على فلسطين، فسارت الصهيونية تركز جهودها على تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين واقامة المستعمرات اليهودية فيها لوضع أسس الوطن القومي حتى ارتفع عدد اليهود في فلسطين من ٤٠ ألف قبل نشوب الحرب العالمية الأولى إلى ٥٥٠ الفا في عام ١٩٤٨ [٣٤]. وبعد ان وثق الاستعمار البريطاني بأن الوضع اصبح مهيئا لاقامة الدولة اليهودية قرر إحالة القضية إلى الأمم المتحدة التي أقرت مشروع التقسيم وقيام إسرائيل في الرابع عشر من مايس عام ١٩٤٨.

وكان وايزمان قد تمكن أثناء الحرب من إقناع الحكومة البريطانية بتكوين فرق يهودية تقاتل إلى جانب الحلفاء وكانت تلك الفرقة اليهودية هي

نواة جيش إسرائيل الذي حارب خلال الفترة التي تلت إعلان قيام دولة إسرائيل، وكان لهذه الفرقة علمها المستقل وقد اصبح ذلك العلم علم دولة إسرائيل.

وهكذا نفذت الخطة المنطوية على طرد مليون عربي من وطنه واحلال مستوطنين من مختلف أنحاء العالم محلها بالاستناد إلى حراب الإنكليز وادعاءات وهمية زائفة بحق انسال بني إسرائيل في فلسطين.

١٠-الصهيونية تنتقل في نشاطها إلى امريكا:

وكان للقرار الذي اتخذته المؤسسة الصهيونية العالمية خلال الحرب العالمية الأولى الخاص بانتقال نشاطها إلى أمريكا أثره في تطور القضية الفلسطينية على الصعيد الدولي ولكن بالرغم من ان الحركة الصهيونية كانت تتجه بسرعة إلى التركيز على الولايات المتحدة الأمريكية بقيت بريطانيا مركزا رئيسيا للنشاط الصهيوني طالما ان بريطانيا ما زالت هي الدولة المنتدبة في فلسطين، وعلى هذا ظل قادة الحركة الصهيونية يستغلون النفوذ الصهيوني في أمريكا للضغط على مركز السلطة في بريطانيا لتحقيق مصالح الصهيونية.

وفي خلال الحرب العالمية الثانية أدركت الصهيونية ان نجم إنكلترا خذ بالأفول وانها لا بد من نقل مركز نشاطها إلى أمريكا، بعد ان أصبحت لا تأمن جانب بريطانيا التي كانت سياستها ترمي إلى تحديد كيان إسرائيل وربطه بعجلة الإمبراطورية البريطانية وتسخيره لمصالحها، فاتصلت باتحادات ونقابات العمال وبالمجالس النيابية في الولايات المتحدة الأمريكية المختلفة وأعضاء الحزبين الجمهوري والديمقراطي، ولم يأت عام ١٩٤٤ حتى كانت برلمانات ٣٣ ولاية قد أصدرت توصيات تؤيد فيها المطالب الصهيونية، ثم تحولت نشاطات الأجهزة الصهيونية إلى كسب تأييد الكونجرس الأمريكي لها وتمكنوا خلال أعوام قليلة من تحقيق هذا التأييد مستغلين في دعاياتهم جهل الرأي العام الأمريكي للقضية الفلسطينية. وهكذا أخذت الصهيونية تلعب دوراً مهما في

الانتخابات الأمريكية وتستخدم نفوذها للحصول على اكبر المكاسب في مصلحة الصهيونية وتحقيق أهدافها حتى اليوم.

١١- تسامح العرب والدعاية الصهيونية في البلاد العربية:

وقد وجد الصهاينة ظروفاً ملائمة في تسامح العرب تجاه الأديان السماوية لنشر دعايتهم هذه داخل البلاد العربية التي كان معظمها خاضعاً للنفوذ البريطاني، فكانت مصر المركز الرئيسي للحركة الصهيونية والملاذ الحر لطبع منشوراتها فيها. وأغرب ما قرأت من هذه المنشورات كتاب ألفه باللغة العربية كاتب يهودي صهيوني يدعى ايلي ليفي أبو عسل عنوانه "يقظة العالم اليهودي" طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٤. نعم أنه لغريب وغريب جدا ما قرأته في هذا الكتاب، والأغرب منه انه سمح بنشره في بلد عربي. إن مؤلف هذا الكتاب يعتبر هرتزل صنوا لموسى وأنه ظهر لاتمام مهمة موسى في تحقيق استعمار اليهود في فلسطين، وان الحركة الصهيونية ليست إلا تكملة لرسالة موسى إلى شعبه وهكذا يجعل هرتزل في مصاف الأنبياء الذين يجب تقديسهم. فهو يقول بالحرف الواحد: "قلنا ان موسى كما تقدم الالماع كان أول من شيد صرح الصهيونية ووطد دعائمها، ونشر مبادئها السياسية وقد أثبت لنا الواقع ان الصهيونية ليست في عهدنا هذا سوى حلقة من سلسلة متصلة حلقاتها بعضها ببعض اتصالات مستمسكاً وثيقاً ومتواثقة أجزاؤها تماسكاً محكماً شديداً. فلو أجلنا نظرنا في مشروع موسى لاستشففنا ما انطوى عليه أدراجه. والمناهج التي انتهجها في سبيل تحقيقه، ولوجدناه يكاد يكون مطابقاً في معناه ومبناه لتعاليم هرتزل ونظرياته التي جل مرماها إظهار الوصمة التي لا مندوحة من أن يوصم بها اليهود، والعار الذي يرتدونه إذا ظلوا واجمين واجفين. كل هذه الزواجر تميط اللثام وتظهر لنا ان الخطط التي رسمها هرتزل كانت على وتيرة واحدة مع التي وضعها موسى، وكانت مشكاة يهتدون بهديها فأزالت عن أبصارهم غشاوة الجهل والغباوة التي كانت مخيمة عليهم، وأشباح المحن والرزايا التي كانت تنتابهم فموسى وهرتزل صنوان لا

يختلفان لا في المبدأ الذي كانا ينشدانه ولا في الهدف الذي كانا يرميان إليه . . . على أن الفكرة الأساسية التي كانت تجيش في صدر موسى هي ان مستقبل القومية اليهودية لا يبسم له محيا السعادة ولا يرجى له النجاح إلا بتملك الشعب اليهودي الأرض في فلسطين تملكاً مستديما خالداً . إذ ان الإقامة خارج الوطن ليست في الحقيقة إلا مظهرا من مظاهر التفرقة الهدامة الأليمة مع ما تجره وراءها من محن وخطوب وتبديد للشمل الخ . . . "(٣٥) .

وفي هذا الكتاب الكثير من المدح لزعماء الصهيونية والثناء على مؤازرتهم من اليهود وغير اليهود . وهذا ان دل على شئ فإنما يدل على أن العرب كانوا غافلين عما يجري في ديارهم أو كانوا قد تمادوا في التساهل الذي اشتهر العرب به مع اليهود عبر التاريخ حتى سمحوا بنشر مثل هذه المطبوعات المتحدية لشعور العرب في عقر دارهم .

ويتجلى التسامح والتساهل اللذان كانت تمارسها البلاد العربية تجاه اليهود أبين التجلي في نوع الحياة التي كان يعيشها اليهود في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين ، فقد كانوا يتمتعون بحياة هادئة مستقرة وبحرية مطلقة في ممارسة شعائرهم الدينية والثقافية والاجتماعية ومحافلهم ومعاهدهم الثقافية والتبشيرية ، فقد انتشرت مؤسساتهم الدينية والثقافية والاجتماعية والمالية بطول البلاد وعرضها وأطلقت أيديهم في الصحافة المصرية فضلا عن الصحافة اليهودية ، فكان لهم أساتذة في المعاهد المصرية وهم يلاقون من زملائهم الأساتذة المصريين احسن معاملة . وكان لهم دور كبير في مجالات المال والاقتصاد فأثرى عدد كبير منهم وأصبحوا من كبار ملاكي الأراضي والعقار وأصحب الشركات الكبيرة ، كما كان لهم مقاعد في مجلس الشيوخ والنواب ، وفي عام ١٩٢٤ عين وزير يهودي للمالية في الحكومة المصرية هو يوسف قطاوي باشا .

ولم تكن حياة اليهود في العراق بأقل استمتاعًا واستقرارًا فقد تغلغلوا في جميع نواحي الحياة العراقية السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولما

تشكلت حكومة العراق المؤقتة في سنة ١٩٢٠ كان أول زير للمالية في هذه الحكومة وزير يهودي هو ساسون حسقيل وقد جدد تعيينه في كل الوزارات التي تعاقبت على الحكم بعد تبؤ الملك فيصل عرش العراق، وكانت لليهود مقاعد في مجلس النواب والأعيان.

وقد حظي اليهود بنفس المكانة والمعاملة في البلاد العربية الأخرى، فكان منهم الوزراء مثل الدكتور بنزاكين في المغرب واندريه بسيس واندريه باروخ في تونس.

وقد روى المستشرق الفرنسي جاك بيرك انه لما حاولت حكومة فيشي الفرنسية الخاضعة لألمانيا ان تضطهد يهود المغرب وقف محمد الخامس ملك المغرب يدافع عنهم ويحذر ان يمسوا بسوء مؤكداً أنهم مواطنون عرب مغربيون.

وكنت قد نشرت مقالاً بعنوان "فلسطين بين العرب والصهاينة" كتبت فيه: [٣٦]

" إليكم أيها الناطقون بالضاد من إسرائيلي الشرق العربي أوجه الآن كلامي ولست بحاجة إلى القول بأن الفكرة المشؤومة عدوة لدودة للنهضة العربية ولأماني الدول العربية. وما كان وربي لأي شخص ولد وترعرع، عاش وسعد تحت سماء العالم العربي الصافي الجميل مهما كان قد ورثه عن دين آبائه، ان يجازي البقعة التي تضم رفات آبائه وأجداده بتطوعه إلى جانب أعدائها! وأننا لننظر بعين الأمل إلى ذلك اليوم الذي يقف فيه اسرائيليو الشرق العربي وقفة واحدة محتجين أمام خطوة إنكلترا طالبين تمزيق منشور بلفور والرجوع إلى صراط العدل والحق فيرجع السلام والهدوء إلى ربوع البلاد العربية.

" فلسطين لأهلها تعود ولهم ستكون!! فدخول الغريب إليها ليتخذها تحت تهديد الحراب وطناً قومياً له يكون كمن يحل على رب الدار يريد اغتصاب بيته بالقوة.

وليت شعري هل يسلّم داره دون الذود والدفاع عنها؟ هذه حقيقة راهنة يجب ان يضعها ذوو العقول نصب أعينهم مهما كانت رغائبهم!!

"إذا حق للصهاينة ان يطالبوا في فلسطين كوطن قومي ليهود العالم فالعرب هم أحق بالأندلس وما يتبعها من البلدان التي كانت تحت سلطان العرب قبل أمد غير طويل!

"كل صهيوني يقيم مسكناً على أرض فلسطين عليه ان يعتبر هذا المسكن مسكناً مؤقتًا لا وطناً دائماً. وما بنو صهيون سوى مرقاة بريطانيا يصعداها الإنكليز لنيل مآربهم في الشرق العربي.

"وكلمتي الأخيرة: يا إسرائيلي الشرق العربي اهتفوا بصوت واحد: "إننا إسرائيليو المولد ولكننا عرب قبل كل شيء". قاوموا الصهيونية بكل ما وهبتم من نفوذ، فهي عدوة لدودة لدين الحق والعدل، وواجب على كل شخص حر عادل، موسوياً كان أم مسيحيا أو مسلماً أن يتطوع لمكافحتها، وإن الله نصير محبي الحق والعدل". انتهى "زحلة (لبنان) في ٢٠ آب سنة ١٩٣٠"، وكنت قد نشرت مقالاً مطولا بنفس هذا المعنى في مجلة الرابطة العربية لأمين سعيد وذلك عندما كنت في مصر سنة [٣٧] ١٩٣٦.

ولكن مثل هذه النداءات لم تلق آذاناً صاغية في وجه تيار الصهيونية وخططها الجهنمية. ففي ذلك يقول ليلنتال "لقد نجم عن زخم الصهيونية منذ سنة ١٩٤٨ ان دمرت علاقات التعايش السلمي التي كان اليهود يتمتعون بها بين أخوانهم العرب منذ ألف سنة، إذ تمكنت الوكالات اليهودية عن طريق إثارة الخوف من الاضطهاد وغيرها من أسلحة الدعاية، ان تسحب ٦٥٠ر٠٠٠ يهودي من العراق واليمن وسورية ومصر وتونس والجزائر ومراكش. وقد أغرى هؤلاء المنفيون الشرقيون بالمجيء إلى إسرائيل ليعمروا الأراضي التي تركها العرب المنفيون خالية كما قال موشه مينوهن. إذن، لا تكون هجرتهم قد تمت في الدرجة الأولى بقصد إنقاذهم، وإنما لمواجهة متطلبات إسرائيل من مال وأيد عاملة وقوى عسكرية. [٣٨].

ويؤكد الخبراء الواقفون على مجرى الأمور ان تهجير اليهود من البلاد العربية تم تحت وطأة اضطهاد مصطنعة ومتعمدة بالتواطؤ بين بعض الحكام العرب وزعماء الصهيونية. ففي ذلك يقول أبو مازن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح في مقال نشره في مجلة "بيروت المساء" (العدد ١٠١ كانون الثاني ١٩٧٦، ص٤٩-٥١): "ومن المعروف ان بلادنا العربية لم تشهد في أية فترة من الفترات نشاطا صهيونيا حقيقيا أي ان ما يسمى بالدافع العقائدي للهجرة لم يكن متوفرا لدى العرب اليهود. ويتبين ان قسماً كبيراً من المهاجرين اليهود من البلدان العربية قد جاء إلى فلسطين المحتلة نتيجة اتفاق تآمري بين بعض الحكام العرب وقيادة الحركة الصهيونية يقضي بشحن اليهود العرب بكاملهم من أوطانهم إلى فلسطين المحتلة بغض النظر عن رغبتهم بالهجرة إلى فلسطين، في حالة رغبتهم في الهجرة، أو إلى بلدان أخرى. وينطبق هذا بصورة خاصة على اليهود العرب في اليمن والعراق.

"إن الفترة التي سبقت قيام إسرائيل لم تشهد هجرة يهودية تذكر من البلاد العربية بالرغم من قرب فلسطين من هؤلاء، وكان باستطاعة يهود العراق ومصر وسورية ولبنان ان يدخلوا إلى فلسطين بسهولة ويسر لو أرادوا ذلك. ولكنهم لم يفكروا بالهجرة، فكانت حملات التهجير الجماعية والتي تمت بالتواطؤ والتآمر بين بعض الحكام العرب وزعماء الصهيونية. فنجد مثلاً ان ١٢٠ ألفا من يهود العراق وخمسين ألفا من يهود اليمن قد قدموا إلى فلسطين خلال السنوات ١٩٤٩-١٩٥١م وبعمليات نقل جماعية، وقد أعطى اسم اسطوري لعلمية النقل الجماعية من العراق سنة ١٩٥٠ هو (عملية علي بابا). وتشير المراجع الصهيونية إلى أن الهجرة من اليمن تمت تحت ضغط التهديد بالطرد من اليمن. أما في العراق فالأمر أكثر وضوحاً والمأساة اكثر عمقاً وحزناً لما لاقاه اليهود من العرب في العراق من صنوف الآلام والتعذيب والإرهاب والضغط لاقتلاعهم من جذورهم ونقلهم إلى المسلخ الصهيوني مشلولي الإرادة معدومي الرغبة، لا حول لهم ولا قوة.. لم تكن هجرتهم

الجماعية من العراق أمرا طبيعياً أو منطقيا، فليس صحيحً انهم هاجروا لأنهم كانوا صهاينة أو لانهم رأوا في إسرائيل تجسيداً لأمانيهم وهذه مسألة تجمع على الإقرار بها كافة المصدر الصهيونية الرسمية وغير الرسمية ولا حاجة لإثبات صحتها باستعراض المراجع والشواهد . . . فقد نشط المبعوثون الصهيونيون ونجحوا في إدخال كميات كبيرة من السلاح إلى بغداد بمساعدة الجيش البريطاني . . . وتوجت السلطات العراقية الرجعية آنذاك إجراءاتها القمعية والتآمرية مع الصهيونية بإصدار قانون إسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين بعد التمهيد له بحملة واسعة ضد اليهود، ومع ذلك كانت نسبة الاستجابة له ضئيلة جداً، فقامت منظمة (هشواره) الصهيونية بإلقاء القنابل على اليهود بدءاً بيوم ٨-٤-١٩٥٠ وانتهاء بيوم ٥-٦-١٩٥١ . أما بالنسبة للقانون (المؤامرة) فقد تم الاتفاق على إصداره في اجتماع سري عقد في فيينا سنة ١٩٤٠ وحضره نوري السعيد وبن غوريون ومبعوث بريطاني، وبعد عودة نوري السعيد إلى العراق قدم استقالة حكومته ليفسح المجال لمجيء حكومة انتقالية، وكلف السويدي بتأليف الوزارة الجديدة في ٥-٢-١٩٥٠ . وتقدمت الحكومة فوراً بلائحة قانون إسقاط الجنسية وطالبت بإقراره على الفور فوافق المجلس النيابي عليه وكذلك مجلس الأعيان" . وينتهي أبو مازن إلى القول بأن "هذه هي باختصار قصة اليهود في العراق، ومما لا شك فيه أنها القصة النموذج لباقي يهود البلاد العربية، ففي كل بلد لهم قصة شبيهة بقصتهم في العراق وان اختلفت التفاصيل إلا أن الهدف واحد والمحرك الأساسي وراء هذه القصص واحدا أيضا" .

١٢- هل يكوّن اليهود قومية شعب واحد؟

وهنا علينا قبل كل شيء تعريف القومية بمفهومها الحديث ثم تعريف معنى الدين أو العقيدة المذهبية: إن المقومات الأساسية للقومية كما هو متفق عليه لدى كثير من الباحثين هي لغة واحدة، ثقافة واحدة، وطن واحد. أما الدين فهو عقيدة يعتنقها الفرد أو المجتمع دون ان يشترط فيه التكلم بلغة واحدة

أو الانتماء إلى عرق واحد والقيام في وطن واحد. يتضح في ضوء ذلك انه لا توجد قومية لا في اليهودية ولا في المسيحية من حيث الأساس رغم كون الأولى قد أصبحت تعتبر مغلقة منذ قرون طويلة. إن القومية الواحدة قد تضم عدة أديان وهي قائمة بذاتها، وقد تلتق مع هذه الأديان في وطن واحد ولكن ليس من الضروري ان يكون للدين ارتباط بالقومية لان الدين شيء والقومية شيء آخر في تفسير مفهوم القومية الحديثة، وقد يلتقيان في ظروف خاصة كما كان الحال مثلا إبان ظهور الإسلام ولكنهما يتباعدان بل قد يتضاربان كضدين متنافرين في ظروف أخرى، فهل يصح مثلا ان نسم الديانة المسيحية بالقومية؟ هذا من ناحية الدين والقومية وعلاقتهما ببعضهما. أما كيفية انتشار اليهودية والمسيحية فكلتاهما ظهرت في ظروف متشابهة وسط عالم يدين بالوثنية ويمارس عبادة الأصنام " والاثنتان انتشرتا في العالم عن طريق التبشير وبخاصة عن طريق رؤساء مجتمعات تلك العصور فاعتنقتها شعوب من مختلف العناصر والأجناس، وخير مثال نورده هنا هو اعتناق قسطنطين المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادي واعتناق ابي كرب ملك اليمن اليهودية في القرن الخامس الميلادي، فأجبر الأول شعبه على اعتناق المسحية والثاني اجبر شعبه على اعتناق اليهودية، وقد تم ذلك في زمن متقارب جداً بحيث قد يصح اعتبار وقوع الحدثين في زمن واحد. وبنفس هذه الطريقة انتشرت اليهودية في الخزر وفي شرق أوروبا كما انتشرت المسيحية في أوروبا كلها. ففي تعليق على التبشير القديم باليهودية يقول المؤرخ باركس " أنه لمن الخطأ الاعتقاد بأن اليهود لم يقصدوا التبشير باليهودية أو لم يقبلوا التمذهب بالدين اليهودي " ٣٢٠). وفي ذلك أيضا يقول كاوتسكي (Mautsky) " ففي بداية العصر المسيحي تعاظمت أهمية الارتداد نحو اليهودية، وكان من المغري بالنسبة للكثيرين ان يخضعوا إلى المجموعة اليهودية التجارية، المزدهرة الواسعة، ومنذ عام ١٣٩ قبل الميلاد طرد اليهود من روما لتهويدهم بعض الرومان وفي إنطاكية كان المتهودون يشكلون القسم الأكبر من الطائفة اليهودية "[٣٩] .

والصهيونية تحاول اليوم على الرغم من علمها بأن اليهود المنتشرين في العالم لا يكونون شعبًا واحدًا، أو عنصرًا واحدًا وانهم ينتمون إلى مختلف القوميات ان تخلق من اليهودية قومية، وهي تسعى ان تجعل من نغمة اضطهاد اليهود قومية يهودية إسرائيلية بربط يهود العالم بعجلة المصير الواحد والولاء الواحد لإسرائيل " . لذلك نراها تبذل أقصى الجهود وتسعى بشتى وسائل الإغراء وتجسيم خطر اللاسامية لحمل اكبر عدد ممكن من اليهود على الهجرة إلى إسرائيل بعد ان شعر الزعماء بخطر ذوبان اليهود في البلاد التي يعيشون فيها وخاصة في الولايات المتحدة وكندا والأرجنتين. ومن الأساليب الإجرامية التي ارتكبتها الصهيونية أنها تواطأت حتى على اليهود أنفسهم، فاتفقت من طرف خفي مع بعض أولياء الأمور في بعض البلاد العربية التي كانت تخضع للنفوذ البريطاني لشن حملة إرهاب مصطنعة ضد اليهود فيها وذلك لكي يضطروا تحت ضغط هذا الاضطهاد المدبر على الهجرة إلى إسرائيل [٤٠] . وقد كان هذا التواطؤ اكبر جريمة ارتكبت لتشويه سمعة العرب من جهة وخدمة المصالح الصهيونية من جهة أخرى. والصهيونية لا تمانع بأن تضحي بعدد من يهود العالم عن طريق اتباع مثل هذه الأساليب لتحقيق أهدافها السياسية، كما ثبت ذلك في موقفها تجاه اضطهاد اليهود في العهد النازي إذ كانت على علم به وكانت تفاوض النازيين في نفس الوقت بما يخدم أهدافها السياسية الاستعمارية في فلسطين، وقد أنقذت من رغبت في إنقاذهم من الصهاينة من قبضة النازيين [٤١]، ولكن كل هذه المحاولات لا تجدي نفعاً ولا تغير من حقيقة الوضع لأن اليهود منذ ظهورهم على مسرح الأحداث حتى يومنا هذا لم يكونوا شعباً واحداً، فكيانهم قائم على أساس الدين والدين وحده. ألم يدعوا بأن الله ميزهم عن باقي الشعوب (بدينهم) واعتبرهم الشعب المختار؟ . . . والدولة التي تقوم على أساس الدين وحده ولا تسندها قومية متماسكة لا تدوم فهي عرضة للزوال.

إن زعماء الصهيونية يحاولون اليوم صهر يهود العالم من مختلف القوميات والأجناس في (قومية) يهودية واحدة قائمة على الدين واللغة. لذلك فقد نهج الصهاينة نهجاً خاصاً بإنشاء معسكرات تثقيفية خاصة يلقنون فيها اليهود قبل انتقالهم إلى إسرائيل اللغة العبرية والمبادئ الصهيونية يختارون العناصر اليهودية النقية من أوروبا وذلك بعد ان واجهوا معارضة من بعض الفئات اليهودية وخاصة الشرقيين منها. هذا مع العلم ان زعماء الصهيونية يقومون اليوم بنفس المحاولة التي قام بها زعماء اليهود بعد أسر بابل قبل حوالي ٢٥٠٠ عام لكنهم فشلوا في تحقيق الهدف الذي كانوا يتوخونه، ولا شك في انهم سيفشلون هذه المرة حتماً عاجلاً أم آجلاً لكونها فكرة مبنية على التعصب والتعالي على الشعوب، مما تلفظه الحضارة الإنسانية.

وصفوة القول، ان اليهود الذين يقدر عددهم بحوالي اثني عشر مليون نسمة لا يتعدون كونهم طائفة دينية اجتماعية اقتصادية تضم شتى الأجناس واللغات والدماء يسكنون في مواطن متباعدة، فهم لا يملكون مقومات القومية التي يستند الكيان الدولي عليها، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك [٤٢]. وتدل الإحصاءات على ان اليهود الذين في إسرائيل اليوم جاؤا من اثنين ومائة بلد معظمهم لا يحسون برابطة تربط بعضهم ببعض، ولكن إسرائيل تحاول صهر الجميع فتجعل لهم لغة واحدة هي اللغة العبرية، وذلك بتدريس النشئ الجديد اللغة العبرية وتاريخ اليهود بالشكل الذي تهواه بغض النظر عن الحقائق التاريخية. وفي دراسة أجريت على أساس استبيانات وزعت على عدد من المهاجرين الجدد إلى فلسطين، أكثرهم من الولايات المتحدة الأمريكية ورد في رد أحد هؤلاء المهاجرين ما نصه: "كنت قبل ان اصل إلى إسرائيل اعتقد ان اليهود يكونون شعباً واحداً، ولكن هذا الاعتقاد تبخر من ذهني بعد وصولي إليها، حيث وجدت فيها خليطاً من عدة أمم تنتسب إلى أجناس مختلفة" [٤٣] ز

١٣- اليهودية والصهيونية:

يتضح مما تقدم ان اليهودية عقيدة دينية شاملة على عكس الصهيونية لتي تمثل حركة سياسية عنصرية متطرفة تستغل العاطفة الدينية في سبيل صهر جميع يهود العالم من مختلف القوميات والأجناس في وطن قومي واحد بالضغط والعنف والتهديد وإسكانهم في فلسطين بعد طرد سكانها بالقوة. هذه حقيقة أدركها كثير من المثقفين والواعين من اليهود في مختلف البلاد فأدركوا حقيقة الصهيونية وما تحمله معها من مصائب وكوارث ليهود العالم، منها أحياء اللاسامية وازدواجية الولاء كونها وجدت لخدمة أغراض استعمارية بحتة وقد ربطت مصيرها بعجلة الاستعمار الانكلو-أمريكي. لذلك برز عدد غير قليل من المفكرين اليهود الكبار معلنين معارضتهم الدعوة الصهيونية للقومية اليهودية. ففي عام ١٨٧٨ وقع عدد من الحاخاميين على وثيقة نشرت في إحدى الصحف البريطانية قالوا فيها: "لم نعد نمثل هيأة سياسية منذ فتح الرومان فلسطين، بل بتنا مواطنين في البلاد التي نقيم فيها. فنحن إما من الإنجليز أو الأفرنسيين أو من الألمان ومكان إقامتنا هو الذي يقرر قوميتنا". وصدر أيضا عن المؤتمر الذي عقده الحاخامون في أميركا في مدينة بيتربورج في عام ١٩٠٢ بنفس المعنى قال: "لم يكن هناك قط وجود لما يسمى بالشعب اليهودي، إذ أن اليهود لم يهتموا في أي يوم من الأيام بالتسلسل الحياتي والعضوي، ولا بالأرض أو اللغة أو التاريخ، ولا بالتنظيم السياسي أو غير ذلك من المقومات المعترف بها للقومية"(٤٤).

ومما قاله س. ج. مونتيفيوري الذي كان واحداً من الزعماء اليهود الذين أُخذ رأيهم في شأن تصريح بلفور قبل إعلانه: "عندما كان تصريح بلفور بشأن فلسطين موضع بحث لدى الحكومة، عرضت نصوصه بصفة شخصية على حفنة من اليهود، كان أربعة منهم صهاينة غلاة أو اشباه صهاينة، وكان اثنان -أنا أحدهما- يعارضان الصهيونية. وقد بدأ لنا نحن الاثنان ان نومئ إلى ان من شأن عبارة (الوطن القومي للشعب اليهودي) ان يسبب على

الأرجح اضطراباً. وقد كنا، في مايلوح، غير بعيدين عن الصواب... وقد اعترضنا على هذه العبارة لأننا انكرنا ان يكون اليهود اليوم شعباً مرة أخرى، ولقد طالبنا وتمنينا، ومـا زلت أطالب وأتمنى أنا وأصدقائي، ان يكون اليهود مواطنين أحرارا متساوين في جميع البلدان التي يعيشون فيها. ولقد خشينا ان ينشأ عن الوطن القومي المقترح شعور معاد للاسامية ابعد بكثير مما يمكن علاجه. غير ان آراءنا واعتراضاتنا لم تصادف اذنا صاغية، وفي ما خلا ان حرف التعريف المحدد (أل)، كما جاء في المشروع المقترح قد رفع فصار النص الآن بغير تعريف أي (وطن قومي للشعب اليهودي)[٤٥].

ويوضح لنا الأستاذ نجدت فتحي صفوة نقطة مهمة تتعلق بموقف الاتحاد السوفييتي حينذاك حيال الصهيونية واليهودية، فيقول: "إن الحكومة السوفييتية الجديدة تفرق بين اليهود والصهيونية تفرقة تامة وتنظر إلى كل منهما بمنظار خاص، وإن سياسة الاتحاد السوفييتي قامت دائما على أساس الفصل التام بين اليهود السوفييت، والصهيونية، وإسرائيل، لذلك لم يكن مما يناقض تلك السياسة ان تعترف باسرائيل وتدخل معها في علاقات سياسية دون ان يتأثر موقفها من الصهيونية ويهود السوفييت." ثم يضيف الأستاذ نجدت إلى ذلك قوله: "ويرى معظم الباحثين والمعلقين الغربيين ان إسراع ستالين في الاعتراف بإسرائيل كان جزءا من سياسته الرامية إلى إزاحة بريطانيا عن منطقة الشرق الأوسط وليس بدافع العطف على فكرة إقامة دولة يهودية. مع العلم ان الاتحاد السوفييتي يعتبر الصهيونية أداة لعزل الكادحين اليهود عن النضال الطبقي ضد البرجوازية"[٤٦].

ومع ذلك يحاول الصهاينة اليوم ربط الصهيونية بالديانة اليهودية، ولما كانت القومية هي قوة هذا العصر فقد درج الصهاينة على محاولة خلق قومية من الديانة اليهودية وفرضها على يهود العالم ليستمدوا منها قوتهم. فأقوال الزعماء الصهاينة كلها تؤكد وتصر على ان الصهيونية واليهودية لا يمكن الفصل بينهما، وأن اليهودية قومية وكل من انتسب إلى هذا الدين هو صهيوني

بغض النظر عن البلد الذي ينتمي إليه واللغة التي يتكلمها والجنسية التي يحملها. وفي ذلك يقول وايزمن: "إن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان ومتلاصقتان ولا يمكن تدمير الصهيونية بدون تدمير اليهودية؟" ومن جملة المقررات المتخذة في المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس والعشرين المنعقد في ٢٥ كانون الأول ١٩٦٠ ما يشير إلى "أنه يتوجب على كل يهودي ان يهاجر إلى فلسطين... وأن كل يهودي أقام خارج إسرائيل بعد إنشائها يعتبر مخالفاً لتعاليم التوراة".

١٤- معارضو الصهيونية من الكتّاب اليهود:

وعلى الرغم من إطلاق الصهاينة لهذه المفاهيم التي وضعها للديانة اليهودية لاستغلالها في تدعيم حركتهم السياسية فهناك عدد غير قليل من اليهود في العالم لا يؤمن بالصهيونية[٤٧] وهؤلاء يقاومون بشدة، إما بدافع الشعور بالإنسانية على أساس ان الصهيونية مبدأ لا إنساني، وإما حرصًا على اليهود وخوفا من مواجهتهم اضطهاداً جديداً بسبب الاندفاع الصهيوني، وإما بدافع قناعتهم بأن الصهيونية آلة يسخرها الاستعمار العالمي لمصالحه على حساب اليهود والعرب معاً. وتعتبر الصهيونية هؤلاء المناهضين لها من اليهود أشد خطرا عليها من أية جهة أخرى غير اليهود فهي تخشاهم وتحسب لهم ألف حساب. فقد كان لما وضعه هؤلاء اليهود من مقالات ومؤلفات في مناهضة الصهيونية أكبر الأثر في تحويل وجهة نظر عدد كبير من الغربيين إلى عدالة القضية العربية الفلسطينية إذ صاروا لأول مرة يسمعون الجانب العربي في الدفاع عن حقوق العرب المغتصبة من قلب العالم اليهودي بعد ان ظلوا لا يقرأون ويسمعون غير الدعايات الصهيونية المنتشرة في جميع أنحاء العالم".
فقد كان للكتاب الذي نشره الكاتب الفرنسي ماكسيم رودنسون سنة ١٩٦٨ بعنوان "إسرائيل والعرب"[٤٨]، وهو يهودي، أثر محسوس في الأوساط الغربية فترجم في نفس العام إلى الإنكليزية وانتشر انتشارا واسعاً. وقد جاء هذا الكتاب ليدحض الدعاوي الصهيونية متنبئاً لها بالفشل المحتوم، وفي ذلك

يقول: "إن الصهيونية وإن نجحت اليوم في خلق الدولة اليهودية فإن إقامتها تبقى على أسس غير سليمة. إن القوة التي تعتمد عليها لن تدوم إلى الأبد، وخطوط الأمم في صعود وانخفاض فكما فشلت الدولة الصليبية أن تبقى وتدوم في أرض العرب، فإن إسرائيل ستلقى نفس المصير إلذي لاقته هذه الإمارات اللاتينية في فلسطين. وهذا كتاب آخر لمؤلف فرنسي يدعى "ناتان وينستوك" وعنوانه "الصهيونية وإسرائيل" وهو كتاب هام في ميدان الدعاية المناهضة للصهيونية، فهو يدحض الدعاوي الصهيونية التي تزعم وجود قوى روحية تربط اليهود بالصهيونية ويبين كيف ظهرت الصهيونية في أواخر القرن الماضي لتجنيد يهود العالم في خدمة الاستعمار العالمي. وهناك كتب أخرى مناهضة للصهيونية لكتاب يهود مثل كتاب "ابراهام ليون" و[٤٩]. الفريد ليلنتال [٥٠]. وغيره وقد كان لهذه الجمهرة من الكتب والمقالات باللغات الأجنبية أثرها المحسوس في تنبيه الرأي العالمي إلى الأعمال الإجرامية التي ترتكبها الصهيونية بحق العرب حتى أصبحت الصهيونية في نظر عدد من كبار المفكرين علما للدلالة على الاعتداء والاغتصاب بل ورمزا للعبث بحقوق الإنسان.
لذلك فانه لمن الخطأ أن يؤيد بعض الكتاب العرب، من حيث لا يشعرون، نظرية الصهيونية القائلة بان اليهودية والصهيونية صنوان لا سيما في هذا الوقت الذي اصبح فيه العرب بأشد الحاجة اكثر من أي وقت مضى إلى أصوات هؤلاء الكتاب الذين يناهضون الصهيونية ويحملون عليها. ومن المهم ان نشير هنا إلى نصيحة المؤرخ الشهير "ارنولد توينبي" ذلك العالم الجليل الذي كان له الجرأة الفكرية للإعراب عن رأيه في شجب أعمال الصهيونية وخططها الإجرامية بحق العرب، والذي يعلق أهمية كبرى على نفوذ اليهود غير الصهاينة، فعندما سئل عن رأيه في العلاج العملي لمشكلة فلسطين ذكر ثلاث حركات قد تكون إلى حد ما ذات فائدة اثنتان منها تتصل بنفوذ اليهود غير الصهاينة إذ يقول في ذلك: "أن من الصعوبة أن نجد علاجا علميا لهذه المشكلة، وإنني شخصيا أرى ثلاث حركات قد تكون إلى حد ما ذات فائدة:

١- قيام اتحاد أوثق بين الدول العربية.

٢- زيادة نفوذ اليهود غير الصهاينة بالولايات المتحدة.

٣- زيادة نفوذ الإسرائيليين المتكلمين بالعربية... والذين يكونون أغلبية هناك حاليا"

ثم يضيف إلى ذلك قوله: "ولا ينتظر ان تنتج أية واحدة من هذه الحركات الثلاث نتائج سريعة-ولكن قد يجوز ان تتغير الحالة إلى أحسن-إذا تحققت هذه الحركات الثلاث مجتمعة"(٥١).

وفي تعليق للكاتب الفرنسي "ردونسون" حول تعريف الصهيوني والصهيونية يقول: "ان هناك نقطة يخطئ العرب مرارا في موضوعها، ألا أنها طريقة استخدام نعت الصهيونية، ففي أوروبا يهود تتفاوت آراؤهم ومواقفهم السياسية، ولكنهم في غلب الأحيان متعلقون باستمرار بوجود إسرائيل (التي هي بلا شك الايدويولوجية الصهيونية).. كما ان هناك قادة يقرون بوجود إسرائيل.. ونعتهم جميعا بالصهيونية موقف سهل ولكنه يحول دون أداء العرب لمهامهم الدعائية بشكل مفيد، فبعض هؤلاء الناس الذين يقرون بوجود إسرائيل لا يمانعون في ظروف أخرى في ادانة بعض ممارسات الحكم الإسرائيلي وحتى في تبني المطالب الفلسطينية.. وباختصار ان ما أرجوه إلا يعتبر الفلسطينيون والعرب ان الأشخاص الذين حملوا في فترة ما بعض العواطف تجاه إسرائيل أو الشعب الإسرائيلي هم ميئوس منهم وغير قابلين لتفهم المواقف العربية والفلسطينية بالذات".

نعم ان الديانة اليهودية التي حاكها الكهنة اليهود في بابل تشتمل على نفس المبادئ التي تعتمد عليها الصهيونية في الوقت الحاضر، أي على مبدأ واحد هو احتلال ارض فلسطين وقتل أهلها وتشريدهم. ولكن مجرد مناهضة الكتاب اليهود للصهيونية والمبادئ التي تقوم عليها معناه ضمنا عدم الاعتراف بقدسية هذه التعاليم التي ابتدعها اليهود في الأسر ومن ضمنها عقيدة الأرض

الموعودة. وهذا يسير مع نفس الاتجاه العربي في العقيدة الإسلامية التي لا تعترف بغير التوراة التي أنزلت على موسى. وان هذه الحركة الصهيونية التي تأمر بقتل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ وتستند على وعد مزيف هي ليست من شريعة موسى بشيء لذلك فقد باءت بالفشل الذريع إذ اخمدها الرومان في مهدها وأزالوها من الوجود، وستلقى الحركة الصهيونية الحالية نفس المصير حتماً وذلك عاجلاً أو آجلاً، لأن النظام الذي يعتمد على القوة والإرهاب وحدهما لن يدوم ولن يبقى ومصيره الزوال.

١٥- مذكرة "مونتاجو" إلى مجلس الوزراء البريطاني:

ولعل أحسن تحليل للأهداف السياسية والاستعمارية التي ترمي إليها الصهيونية هو الوصف الذي جاء على لسان أحد وزراء الحكومة الإنجليزية ذاتها المدعو "مونتاجو"، وهو يهودي، فقد قدم هذا الوزير إلى مجلس الوزراء البريطاني، مذكرة عنيفة يهاجم فيها وعد بلفور، وهذه المذكرة موجودة بين وثائق الحكومة البريطانية الرسمية بعنوان "معاداة الحكومة البريطانية الحاضرة للسامية"، وهي تمثل آراء المعارضين من مفكري اليهود في العالم لوعد بلفور. وندون فيمايلي بعض ما جاء في هذه المذكرة بالنص لأهميتها التاريخية:

"لقد وقع اختياري على هذا العنوان لهذه المذكرة "معاداة الحكومة الإنجليزية الحاضرة للسامية"، لا بدافع شعور بالعداء ولا وسيلة للشجار مع وجهة نظر معادية للسامية يحملها بعض الزملاء والوزراء.. كل ما هناك أنني أود ان أسجل ما اعتقد من ان السياسة التي تتبعها حكومة صاحب الجلالة هي سياسة عداء للسامية من ناحية النتيجة مما قد يجعلها نقطة تجمع للمعادين للسامية في كافة دول العالم، ويؤكد هذا الرأي المراسلة التي تسلمتها أمس والتي جرت بين لورد روتشيلد وسير بلفور.

"إنني اشعر باعتبار الوزير اليهودي الوحيد في الحكومة انه من حقي ان يمنحني زملائي فرصة للتعبير عن وجهة نظر أتمسك بها تمسكاً شديداً.

" إنني أؤمن أيمانا راسخاً بأن هذه الحرب قد سددت ضربة لفكرة " الدولية " وأنها قد فتحت المجال لبعث الشعور بالقومية الذي كان قد بدأ في التراخي . . . فقد أصبح من المتفق عليه ضمناً بين الساسة في معظم الدول ان إعادة توزيع الأقاليم بعد الحرب يجب ان يتم على أسس قومية . . . .

" وفي هذه الظروف تقترح الحكومة على تكوين أمة جديدة بوطن جديد في فلسطين . والمفهوم ان هذه الأمة ستتكون من اليهود الروس والإنجليز والرومانيين وغيرهم .

" لقد بدت الصهيونية لي دائماً عقيدة سياسية لا يمكن ان يؤمن بها أي مواطن مخلص للملكة المتحدة ، ذلك ان اليهودي الإنجليزي الذي يتطلع إلى جبل الزيتون ويتوق إلى اليوم الذي يستطيع فيه ان ينفض عن حذائه التراب البريطاني ويعود إلى نشاطه الزراعي في فلسطين انما يعترف بأنه لا يصلح للاشتراك في الحياة العامة في بريطانيا العظمى . . بل ولا يصلح لأن يعامل كمواطن إنجليزي . لقد كان اعتقادي دائما أن الذين عكفوا على هذه العقيدة كانوا مدفوعين إلى ذلك بسبب القيود المفروضة على حرية اليهود في روسيا ولكن بعد ان تم الاعتراف بهؤلاء اليهود باعتبارهم يهود روس ، ومنحوا كافة حرياتهم ، يبدو من غير المفهوم ان تقدم الحكومة البريطانية على الاعتراف الرسمي بالصهيونية وان يخول مستر بلفور التصريح بأنه يجب ان يعاد تأسيس فلسطين (كوطن قومي للشعب اليهودي) . وأنا لا أعلم على وجه التحديد ما ينطوي عليه هذا . . وإن كنت استنتج انه يعني ان على المسلمين والمسيحين في فلسطين ان يخلوا السبيل لليهود الذين سوف يتمتعون بالأفضلية ، ويصبحون مرتبطين بفلسطين ارتباط الإنجليز بإنجلترا أو الفرنسيين بفرنسا كما يعني ذلك ان الأتراك يعتبرون أجانب مثلهم في ذلك مثل اليهود ، الذين سوف يعاملون منذ الآن كأجانب في كل بلد آخر غير فلسطين .

" إنني احب هنا ان أؤكد أربعة مبادئ " :

١- " أنه لا توجد أمة يهودية. ان أفراد أسرتي مثلا الذي عاشوا في هذا البلد عدة أجيال لا يربطهم بأي أسرة يهودية في أي بلد آخر أي اتفاق في رأي أو رغبة ولا يجمعهم بها أي شيء اكثر من كونهم يعتنقون بدرجات متفاوتة نفس الديانة. ولا يصح القول بأن اليهودي الإنجليزي واليهودي الغربي ينتسبان لأمة واحدة كما لا يصح القول بأن المسيحي الإنجليزي والمسيحي الفرنسي ينتسبان لأمة واحدة أو ربما لجنس واحد.

٢- إذا قيل لليهود ان فلسطين هي وطنهم القومي فإن كل دولة أخرى سوف تتجه فورا إلى التخلص من مواطنيها اليهود وبذلك سوف نجد في فلسطين عددا ضخماً من السكان يقومون بطرد أهلها ويأخذون احسن ما في البلد. ولسوف يحضر هؤلاء من كافة أجزاء الكرة الأرضية يتحدثون مختلف اللغات ولا يستطيعون التفاهم مع بعضهم البعض إلا عن طريق المترجم.

" إن الحياة التي عاشها اليهود البريطانيون والأهداف التي وضعوها نصب أعينهم والدور الذي لعبوه في حياتنا العامة ومؤسساتنا يجعل من حقهم ان يعتبروا بريطانيين يهودا اكثر منهم يهوداً بريطانيين. إنني على استعداد لحرمان كل صهيوني من الحقوق المدنية بل إنني أجد دافعاً قوياً لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارها غير قانونية وضارة بالمصالح الإنجليزية...

٣- إنني إلا أعترف بان فلسطين مرتبطة باليهود وأنها مكان ملائم كي يعيشوا فيه. إن الوصايا العشر قد أعطيت لليهود في سيناء. حقا ان فلسطين تلعب دورا كبيرا في التاريخ اليهودي. ولكن الأمر كذلك أيضا بالنسبة للتاريخ الإسلامي الحديث. وقد أصبحت فلسطين بعد عهد اليهود تلعب دورا أكبر من أية دولة أخرى في التاريخ المسيحي قد يكون المعبد اليهودي موجوداً في فلسطين ولكن موعظة الجبل وصلب المسيح قد حدثا هناك أيضا.

" وإذا كانت ذاكرتي لا تخونني، فإن تعداد اليهود في العالم يبلغ ثلاثة أضعاف العدد الذي تستطيع فلسطين ان تستوعبه حتى ولو طرد السكان الموجودين حالياً، أي ان ثلث عدد اليهود فقط يستطيع العودة إلى فلسطين. فماذا يحدث للباقين؟...

" إننا كيهود إنجليز نتعلم في المدارس العامة والجامعات ونلعب دورنا في السياسة وفي الجيش والخدمة المدنية في بلدنا اكثر من ذي قبل . . ومن دواعي سروري ان التعصب ضد التزاوج قد بدأ يلين . . . ولكن إذا أعطى اليهودي وطناً قومياً فلا شك ان الدافع لحرماننا من حقوقنا كمواطنين بريطانيين يصبح أقوى بكثير . وسوف تصبح فلسطين الحي اليهودي للعالم . ولماذا يعطي لورد روتشيلد تلك الأهمية الكبيرة للفروق بين اليهود البريطانيين واليهود الأجانب؟ . . ان جميع اليهود في شتى أنحاء العالم سيصبحون بعد إقامة الوطن القومي في فلسطين يهوداً أجانب .

" إنني لا أعلم كيف سيتم اختيار ثلث يهود العالم الذين لا تتسع فلسطين لأكثر منهم ، ولكن اليهودي بغض النظر عن البلد الذي ينتمي إليه سوف يصبح لزاما عليه ان يختار واحداً من أمرين . . . أما ان يذهب إلى فلسطين ويعيش مع يهود آخرين غرباء عنه أو ان يبقى كضيف غير مرغوب فيه في البلد الذي يعتقد انه ينتمي إليه .

" ولا يدهشني ان تقدم الحكومة على هذه الخطوة بعد خطوة تكوين لواء يهودي في جيشها . وهاأنذا في انتظار ان اسمع ان أخي جرح في الفرقة البحرية أو ابن أخي في حرس المشاة قد يضطر تحت ضغط الرأي العام-أو بسبب تنظيمات الجيش- ان يصبح ضابطاً في لواء يتكون أساسا من أناس لا يفهمون اللغة الوحيدة التي يتكلمها وهي الإنجليزية . ان إنشاء فرقة يهودية يجعل موقف اليهود في الأولوية الأخرى اكثر صعوبة ويفرض جنسيته على الذين لا يشتركون مع بعضهم البعض في شيء " .[٥٢]

ومن الواضح ان هذه المذكرة من الوزير اليهودي كانت تهدف أول ما تهدف إلى توضيح ما سيصيب اليهود في مختلف العالم نتيجة إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، إلا أنها تؤكد في الوقت نفسه بما لا يرقى إليه الشك انه ليس هنا أمة يهودية تتمتع بقومية يهودية وكل محاولة لخلق مثل هذه القومية مصيرها الفشل وان النتائج التي تترتب على الخطوة البريطانية بتبني الوطن القومي اليهودي في فلسطين وخيمة لليهود ولبريطانيا ذاتها . وعلى

الرغم من كل هذه الانتقادات صدر تصريح بلفور ضارباً صفحاً عن اعتراض اليهود على فكرة الوطن القومي لليهود كما صدر بغير موافقة العرب أو علمهم(٥٣) . . ولما احتج العرب لدى الحكومة البريطانية التي أكدت بأن تصريح بلفور لن يخل بحقوقهم المدنية والدينية أو بحريتهم السياسية .

وأن الحكومة لا تؤيد عودة اليهود إلى فلسطين إلا بالقدر الذي يتفق مع الحرية السياسية والاقتصادية للسكان الموجودين فيها(٥٤) .

وقد كان لمونتاجو (الوزير البريطاني المذكور) موقفا لا يقل حزما عن موقفه تجاه وعد بلفور، وذلك عندما تقدم الطبيب اليهودي الروسي رونشتين بصفته المتحدث باسم الدولة اليهودية المقبلة بعرض إلى الحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى في الفترة التي سبقت إصدار تصريح بفور، وخلاصة هذا العرض : "أن تقوم دول الحلفاء بتجهيز وتنظيم جيش من اليهود قوامه ١٢٠ الفا في البحرين تضعه تحت قيادته لغزو واحتلال منطة الاحساء التركية، وتعقد معاهدة مؤقتة معه من اجل خلق دولة يهودية على الخليج العربي" . فقد عارض مونتاجو بشدة هذا العرض وقال في رده في ١٥ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩١٧ : " . . . أنه بصرف النظر عن الاعتراض العام لإدخال عنصر جديد في الجزيرة العربية، وبصرف النظر عن المشكلة التي هي ثمار الجدل حول مرغوبية إقامة دولة يهودية في أي مكان، هناك أسباب خاصة لاعتبار المواقع المختارة لكل من تمركز الفرق اليهودية وللإقامة النهائية للدولة اليهودية المقترحة غير ملائمة تماماً. ان وصف الاحساء (كولاية تركية) يمكن ان يكون، صحيحاً من وجهة فنية، ولكن المنطقة هي في الحقيقة بحوزة ابن سعود أمير نجد منذ ١٩١٣ ، الذي عقد معاهدة صداقة وتحالف مع حكومة جلالته في ديسمبر ١٩١٥ التي تعترف بصراحة بحقوق ابن سعود بالإحساء، وتضمن له المساعدة مع حكومة جلالته في حالة هجوم أية دولة اجنبية على بلاده، وفيما يتعلق بالبحرين فان شيوخها كان لهم علاقات معاهدة مع بريطانيا منذ سنة ١٨٢٠ ، وحكومة جلالته لا يمكنها ان تقر، بدون موافقة صريحة من هؤلاء الحكام أية اقتراحات تتعلق بحقوقهم الاقليمية. . . " هذا

مع العلم ان الخارجية البريطانية اعتذرت في ٢٣ اكتوبر ١٩١٦ إلى صاحب العرض دون ان تبدي الاسباب .(٥٥)

وقد عارض العديد من اليهود في أوروبا تدخل الصهاينة في شؤونهم، فلما زار "بن غوريون الدانمرك سنة ١٩٦٢ وأخذ يحث يهودها على الهجرة إلى إسرائيل وقف رئيس الجالية اليهودية في الدانمرك ليقول له : " إننا نحن الدانمركيين لا نريد مكاناً آخر لنعيش فيه حياة أسعد من حياتنا هنا في الدانمارك إننا جزء أصيل من الشعب الدانماركي فنحن دانمركيون أولا ثم يهود" . كما ردّ عليه رئيس حاخامي الدانمارك قائلاً: "ان أي فرد مهما علا مركزه، ومن أي مكان جاء، ليس له الحق ان يغير، ولو مثقال ذرة، من الوضع الذي ظل عليه اليهود الدانماركيون سنين طويلة، يعيشون سعداء جنباً إلى جنب مع باقي إخوانهم الدانمركين(٥٦) .

ولقد برهنت الأيام على ان الأحداث التي كان يتوقع المعارضون والمنتقدون للوطن القومي اليهودي في فلسطين حدوثها في حالة تنفيذ هذا المخطط الاستعماري قد وقعت فعلا وخاصة بالنسبة للبلاد العربية، فاليهود الذين كانوا يتمتعون بحياة مستقرة آمنة حرة في البلاد العربية اضطر معظمهم تحت ضغط الصهيونية بالتعاون مع السلطات المختصة التي يسيرها الاستعمار إلى الهجرة إلى إسرائيل. أما بريطانيا ناصبة الفتيل فبعد ان تفاقم الوضع وشعرت بتهديد مصالحها في البلاد العربية أخذت تلعب على عدة حبال، فمرة تنفض يدها من جريمتها الأساسية وترمها على عاتق غيرها، ومرة تتظاهر بتأييدها للعرب، ولكن ذلك لن يبرئها مما ارتكبته بحق العرب واليهود معا بتخطيطها وتمهيدها لتنفيذ هذه الجريمة.

١٦- مشكلة اليهود الشرقيين في إسرائيل :

تجابه إسرائيل اليوم مشكلة من أهم المشاكل التي تواجهها في محاولة خلق قومية يهودية تشمل جميع اليهود من مختلف العناصر، وهذه هي مشكلة اليهود الشرقيين. لقد سبق ان عرضنا نبذة عن الخلافات الرئيسية بين الطائفتين

اليهوديتين الرئيسيتين الغربية والشرقية ونظرة الاحتقار التي يضمرها اليهود الغربيون تجاه اليهود الشرقيين. لذلك يتوقع البعض ان يتحول يوما ما حقد اليهود الشرقيين على اليهود الذين هم من أصل أوروبي إلى نشوء مصلحة مشتركة بينهم وبين العرب قد تؤدي إلى انضمامهم إلى جانب العرب في حالة قيام اضطرابات في إسرائيل في المستقبل. ولا يخفى ان الصهيونية كانت منذ قيام دولة إسرائيل تحذر من اليهود الشرقيين وبخاصة المتكلمين بالعربية، إذ كانت تعد وجودهم في بلادهم العربية مصدر خطر على مصالحها لذلك كان جل اهتمامها ان تسرع بشتى أساليب الإغراء والتهديد والتحذير في تهجيرهم إلى إسرائيل ليكونوا تحت قبضتها داخل إسرائيل. ولكن على الرغم من ذلك فالخطر هو الآن اشد مما كان الصهاينة يتوقعونه بعد ان أخذ عدد هؤلاء اليهود الشرقيين يزداد في إسرائيل حتى أصبح على وشك ان يفوق عدد اليهود من الأصل الأوروبي[٥٧]. وفي ذلك يقول اسحق دويتشر ما نصه:

"إن تطلعات إسرائيل الثقافية تأثرت بشدة من جراء التغييرات في تكوين بنية الشعب فقد شكل اليهود الذين هم من الأصل الأوروبي الغالبية العظمى من السكان في ظل الانتداب البريطاني أما الآن فهم ليسوا سوى أقلية. ويشكل المهاجرون من آسيا وأفريقيا نحو نصف عدد سكان إسرائيل. ويسمع المرء شتى أنواع النظريات والتكهنات العميقة في القدس وتل أبيب، ويشير البعض إلى نسبة المواليد العالية بين اليهود الشرقيين ويتنبأون بأن إسرائيل ستصبح شرقية في النهاية ويتنبأ آخرون بتبلور حضارة إسرائيلية جديدة. وأعتقد شخصياً ان اليهود الأوروبيين سوف يُصهرون في النهاية. ان اليهود الشرقيين يمثلون الحضارة الأرقى التي تنتصر في العادة على الحضارة الأدنى... إن اليهودي الغربي يدرك غيرة وحقد اليهود الشرقيين وهو في بعض الأحيان يبدي تخوفه منهم، ويمكن لك أيضا ان تسمع الشكوك التي تثار حول إخلاصهم: (الله وحده يعلم ما إذا كانوا سيضعون أيديهم في أيدي العرب في حالة قيام إضطرابات. (ليس من فارق كبير بينهم وبين العرب.

أليس كذلك؟). . قد لا تكون هذه النظرة مطروحة جدياً في الوقت الحاضر، غير أنها تشير إلى وجود نوع من التوتر، ويظن البعض انه سيأتي يوم يثار فيه حقد اليهود الشرقيين[٥٨]. ومثل ذلك يقول مايكل سلزر بعد أن شرح بالتفصيل الخلافات بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين "إن هذه الحقائق تؤدي إلى تخوف أفظع وهو هل يأتي الوقت الذي ينحاز فيه اليهودي العربي إلى جانب العرب ضدنا؟ وقد كانت هناك مثل هذه الحالات القليلة".

ولا يحتاج الباحث إلى طول عناء لاكتشاف هذه الحقيقة الدامغة فانتخابات (البرلمان الاسرائيلي) ورئاسة الوزارة والمناصب العليا في الدولة والجيش والمخابرات والمؤسسات غالبًا واكثريتها بالمطلق بيد اليهود الغربيين.

ويعلق الباحثون أهمية كبيرة على مشكلة اليهود الشرقيين في إسرائيل من حيث تهديدهم لكيان دولة إسرائيل، فيقول دكتور سعد الدين إبراهيم "أما شعور الازدراء نحو اليهود الشرقيين فهو لا يحتاج إلى تدليل أو توضيح. فالتفرقة والتعصب ضدهم ينعكسان على أحوالهم المادية والاجتماعية، وهم أدنى درجات السلم الاجتماعي في إسرائيل. والمؤسسة الحاكمة في ورطة حيال اليهود الشرقيين. فمن ناحية تجد نفسها مجبرة على تطبيق شعار العودة بالنسبة لكل اليهود(ومنهم الشرقيون) لأن ذلك الشعار هو التبرير الوجودي لدولة إسرائيل وفي نفس الوقت يمثل اليهود الشرقيون مشكلات اجتماعية عاتية: فهم يختلفون عن كل من يهود أوروبا الشرقية ويهود أوروبا الغربية على السواء من الناحية الحضارية. كذلك هم أدنى مهارة من كلا الفريقين ماديا وتعليمياً من حيث المهارات التكنولوجية. وتحتاج عمليات اقلمتهم وغسيل مخهم طبقا للمخطط الصهيوني أموالا طائلة لا يمكن توفيرها إلا باقتصاصها من مخصصات الحرب أو على حساب الطوائف الأخرى الاكثر تميزاً. ان احوال اليهود الشرقيين هي باختصار احوال مزرية، وتمثل لغما اجتماعيا في إسرائيل. والطريقة الوحيدة التي نجحت بها المؤسسة الحاكمة في تأجيل انفجار هذا اللغم كان دائماً بتوجيه المرارة والغضب، اللذين يحس بهما اليهود

الشرقيون نحو الأقلية العربية، أو نحو العالم العربي. ولكن هذه الوسيلة تنكشف بين الحين والآخر، ويدرك اليهود الشرقيون بالتدريج ان عدوهم الأول هو الظلم الاجتماعي والتفرقة العنصرية - كما تجلى ذلك في ظهور حركة (الفهود السود) الاسرائيلية [٥٩].

وفي قضية زيادة عدد اليهود الشرقيين في إسرائيل يضيف دكتور سعد الدين قائلاً: ومن التغيرات الأساسية التي لم يدركها المؤسسون ان اليهود الشرقيين سيصبحون أغلبية سكانية في الربع الأخير من القرن العشرين. وحتى حينما اتضحت هذه الحقيقة خلال الستينات فإن قدراتهم الخلاقة المحدودة -من ناحية- وتعصبهم وتعاليهم-من ناحية أخرى- لم تمكن المؤسسة الحالية من حل مشكلاتهم الحضارية والاجتماعية والاقتصادية في وقت مبكر. ولن يكون أمام الأفراد الجدد في المؤسسة الحاكمة في السنوات المقبلة إلا ثلاثة احتمالات في معالجة قضية اليهود الشرقيين: إخضاعهم بالقسر مع شراء زعمائهم ورشوتهم (وهو الأسلوب الذي اتبعته المؤسسة الحالية)، أما الحل الجذري للمشكلة - وهو ما يتطلب ملايين الدولارات التي لا يمكن توفيرها إلا بتغيير عسكرية المجتمع الحالي، ووقف التحيز ومحاباة اليهود الغربيين (في الوظائف والمساكن مثلاً) وهذا الحل سيجعل إسرائيل تفقد ميزاتها السوقية في المنطقة، وبالتالي احتمال وجودها في المستقبل. وهذا أمر بعيد اللجوء إليه. والاحتمال الثالث في معالجة قضية اليهود الشرقيين هو استمرار سياسة الحرب والتوسع. ذلك سينتج للمؤسسة الحاكمة شيئين على الاقل، احدهما تحويل نقمة اليهود الشرقيين نحو العدو الخارجي، والثاني الحصول على أراض وموارد جديدة وبالتالي خلق فرص اقتصادية واجتماعية أمام اليهود الشرقيين. ومن معلوماتنا عن المؤسسة الحاكمة في إسرائيل فإننا نميل إلى الاعتقاد بان الحل الأخير هو ما ستلجأ إليه هذه المؤسسة دائماً.

وفي موضوع اليهود الشرقيين والغربيين يلفت النظر رودنسون الكاتب اليهودي الفرنسي إلى تصريحات القادة الفلسطينيين بان هناك جنسين

(Nationality) ، في إسرائيل، الجنس العربي والجنس الإسرائيلي، وفي الواقع هناك ثلاثة أجناس. اليهودي العربي، واليهودي الشرقي، واليهودي الغربي[٦٠].

١٧ - مشكلة اليهود السود في إسرائيل:

ومن أبرز مظاهر التمييز العنصري في المجتمع الإسرائيلي بالإضافة إلى التمييز بين الاشكناز (اليهود الغربيين) واليهود الشرقيين ضمن الإطار اليهودي في العالم ظاهرة التمييز الموجه ضد ما يسمونهم بالعبرانيين السود أو اليهود السود أو الإسرائيليين السود التي سببت مشكلة عنصرية خطيرة في إسرائيل. وهؤلاء من زنوج اميركا المنحدرين من اصل أفريقي اعتنقوا الديانة اليهودية ويدعون بأنهم ينحدرون من اليهود الاثيوبيين اوالفلاش وان الإله قد منح لهم ولذريتهم ارض الميعاد ولذا فإن هذه الأرض تخصهم وحدهم. وقد هاجر هؤلاء الزنوج إلى إسرائيل وفقا لقانون العودة لعام ١٩٥٠ الذي يمنح كل يهودي الحق في الهجرة و "العودة" إلى إسرائيل. وقد استوطن العبرانيون السود مدينة "ديموناه" و "مثبية ريمون"، "عراد" في النقب، كما استوطنت عائلات يهودية سوداء مدينة اريحا وسكنت بين أهلها العرب ولم يلبث هؤلاء اليهود السود طويلا حتى انفرجت روح العنصرية ضدهم على أشدها عنفا وقد أخذ الوضع يتفاقم في العلاقات بين اليهود البيض واليهود السود ويسير من سيء إلى أسوأ بعد وصول أعداد من أبناء هذه الطائفة السوداء حتى أخذت تنعكس ظاهرة التمييز ضد اليهود السود بشكل بارز على العلاقات الإسرائيلية الإفريقية وبشكل أعم على العلاقات الإسرائيلية مع الملونين في أنحاء العالم.

وقد بلغت قضية "اليهود السود" ذروتها عندما اتخذت السلطات الإسرائيلية قراراً بطرد بعض المجموعات اليهودية السوداء ومنع مجموعات أخرى من الوصول إلى إسرائيل خوفاً من تزايد عدد اليهود السود وخلق مشاكل عنصرية في المجتمع الإسرائيلي في الستينات والسبعينات. ويرى البعض ان ولادة الحركة الصهيونية السوداء قد تؤدي إلى احتمال ولادة حركة

صهيونية جديدة على انقاض الصهيونية القائمة، فيعترف بعض الاسرائيليين (البيض) بألم بخطورة هذه المشكلة العنصرية في إسرائيل فيعبر احدهم عن هذا الألم بقوله : "يؤلمني مصير هؤلاء السود. . ويؤلمني بشكل اشد العنصرية التي أخذت تنمو في أوساطنا والتي من شأنها ان تشوه شكل دولتنا وطابعها"(٦١) .

وهؤلاء اليهود السود المعروفون بالفلاشا Flasha طائفة حبشية اتخذت اليهودية ديناً لها واختارت لنفسها حياة العزلة وتمركزت في أعلى وأوعر جبال الحبشة (جبال سيميان) الواقعة إلى الشمال من بحيرة تانا وهم يجهلون العبرية والتلمود وإن كتاباتهم ومخطوطاتهم الدينية بلغة الجعيز(٦٢) . وهذا ما يدل على ان اليهودية دخلت إلى الحبشة منذ أقدم العصور ولعلها جاءت من اليمن إثر زحف القبائل السامية من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة. وفي التراث الحبشي قصة تشير إلى ظهور ملكة بين قبيلة اغاو الوثنية تدعى "يوديث" اعتنقت الديانة اليهودية فناصبت ملوك الحبشة العداء وأحرقت عددا من كنائسهم سنة ٩٦٠ ميلادية، مما حمل أحد اباطرتهم على الاستنجاد بملك النوبة لانقاذ المسيحية من خطرها. والأحباش ليومنا هذا يصبون اللعنة عليها كلما جاء ذكرها. والمعروف عن هؤلاء اليهود السود انهم اشغلوا الحبشة بحروب طويلة، حتى انهم في إحدى حملاتهم العسكرية على العاصمة تمكنوا من اختطاف تاج الملك واحتجازه في قلاعهم الحصينة مدة أربعين سنة(٦٣) .

١٨- هل فلسطين سلة بائرة ولا أهل لها حتى تمنح بالوعود لزيد أو عمرو؟

أما ما أورده مدونو التوراة المحرفة من أن هناك وعدا نسبوه إلى ربهم يهوه بمنح بلاد كنعان (من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) لإبراهيم ولنسله من بعده(٦٤) باعتبار اليهود من نسل إبراهيم، وما أوردوه أيضا من أن هناك أمراً من الإله العلي يقضي بإبادة سكان كنعان من غير تمييز بين رجل وامرأة وبين شيخ وطفل وإحراق مدنهم وما فيها بالنار وإحلال بني إسرائيل

(قوم موسى) محلهم [٦٥]. فمسألة لا يمكن ان تمر بدون تعليق أو إبداء وجهة نظر في الموضوع: ان غزو مثل هذا الوعد المشروط بالقتل الجماعي والإبادة إلى الله سبحانه تعالى هو من غير شك افتراء محض، لانه لا يمكن ان تعترف أية ديانة سماوية بابادة بني الإنسان وقتل النفس البريئة، وانه افتراء على النبيين الجليلين إبراهيم الخليل وموسى ان تنسب اليهما الرغبة في إبادة الأقوام وقتل الأبرياء. والمعلوم ان إبراهيم الخليل سكن مع الكنعانيين والمصريين وعاش معهم في مودة ووئام ووفاق. ألم تقل التوراة ان ملكي صادق الكاهن الكبير ملك شاليم (اورشليم) بارك إبراهيم وقال: مبارك ابرام من الله العلي مالك السماوات والأرض)[٦٦]؟ . . . كما انه من المستحيل ان يكون قد نزل على نبي من الأنبياء امر بالقتل الجماعي الذي نسب إلى الإله العلي. فقد جاء في القرآن الكريم ما يحذر بني إسرائيل من مغبة مثل هذه الأفعال المنكرة التي ادخلوها في كتبهم وقالوا هذا من عند الله [٦٧]. فنزلت الآية الشريفة: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل انه من قتل نفسا بغير حق أو فساد في الأرض. فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً" [٦٨] وفي القرآن الكريم آيات أخرى تأمر بالمودة، وتجنب المعاداة، والبر بمن لا يقاتل، والتقييم للنفس حتى بالنسبة للأعداء. ففي سورة الممتحنة قال تعالى: "عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة. . . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين" [٦٩]. وبمثل ذلك يأمر الإنجيل الأمة المسيحية فيقول: "زيدوا على إيمانكم الفضيلة، وعلى الفضيلة التعقل، وعلى التعقل العفاف، وعلى العفاف الصبر، وعلى الصبر التقوى، وعلى التقوى المودة الأخوية، وعلى المودة الأخوية المحبة" [٧٠].

ان التوراة التي بين أيدينا دونت كما هو معلوم بعد زمن إبراهيم الخليل (ع) بألف وثلاثمائة عام وبعد زمن موسى بمقدار ثمانمائة عام، وقد دونها الكتبة والأحبار عن أفواه أسلافهم على الأكثر، فأضافوا وحرفوا ما حرفوا

بحسب أهوائهم ونزعاتهم الدينية، حتى اصبح من المتعذر التمييز بين الأصل وبين المضاف أو المحرف. وقد افتروا فيما كتبوه على الأنبياء ونسبوا إليهم في التوراة أعمالا قبيحة تتنافى ومقامهم ومنزلتهم، بل تتنافى مع الفضائل والمثل العليا. ولم يكتفوا بذلك فنسبوا إليهم حتى الزنى، هذا في حين ان الوصايا العشر تقول: "لا تزن"، و "لا تقتل". وهذا كله دليل قاطع على ان الوعد المشروط بالقتل الجماعي وإبادة الجنس مختلق من حيث الأساس، إذ لا يمكن ان يكون قد نزل شيء من هذا القبيل من عند الله مطلقا. لذلك فإن بعض علماء اللاهوت من المسيحيين اخذ يدعو إلى عدم اعتراف المسيحية بكتاب العهد القديم ككتاب ديني وحتى ككتاب تاريخي وثائقي، ففي رأي البحاثة والمستشرق سبنسر تريمنغهام الرئيس السابق لكلية العلوم الشرقية في جامعة غلاسكو في بريطانيا وأستاذ العلوم الإسلامية في كلية اللاهوت ببيروت "ان كتاب العهد القديم استخدم ويستخدم لأغراض سياسية لا تقع ضمن إطاره الصحيح، وما استخدامه من قبل المؤرخين وغيرهم كمادة تاريخية لاثبات بعض الأغراض سوى تشويه للحقيقة" والنظرية المهمة التي يطرحها في كتابه The World of Ours (عالمنا) يعرضها في فصل كامل يقارن فيه بين العهد القديم والعهد الجديد باعتبارهما عهدان مختلفان تماما. فالعهد القديم، من وجهة نظره "لا يمكنه مطلقا ان يكون كتابا مسيحياً، أما استمرار بعض الكنائس المسيحية في التشديد عليه فقضية يجب النظر إليها بمنظار لا ديني.. " ثم يضيف إلى ذلك قوله: "إنه لا داعي مطلقا لأن يقلق المسيحيون فيما لو أهمل استعمال العهد القديم لأن المسيحية بدت بالمسيح وحده وبه تنتهي، وقد سبق للناصري ان نقض جميع ما كان يمارسه اليهود"، (٧١).

يقول الدكتور في اللاهوت في الموسوية واليهودية الانبا غريغوريوس أسقف علم الدراسات اللاهوتية العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي ببطريركية الاقباط الارثوذكس بالقاهرة: "وتزعم إسرائيل انها (والكلام هنا عن المسيحية) تتبع ديانة العهد القديم وديانة النبي موسى.. وهذا لغو! إن

المسيحية وإن جاءت مكملة ومتممة للموسوية وقد قال يسوع " لا تظنوا اني جئت لأنقض الشريعة والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأتمم "، مث، ٥ : ١٧). لكن اليهودية هي غير الموسوية، ان اليهودية الآن هي ديانة الذين أنكروا المسيح الذي أتى لخلاص العالم فرفضوا دعوته ورسالته وتعاليمه الروحانية متطلعين إلى مسيح آخر من طراز شمشوم الجبار وغيره من المحاربين الأشداء الذين يقودون المعارك الحربية ليحققوا لشعبهم نصرا ماديا ارضيا، ولا يزالون مرتبطين بفكرة المملكة الأرضية التي تقوم على التوسع المادي والاقتصادي ليسودوا العالم ويحكموه، ويتسلطوا على غيرهم من الشعوب اعتقادا منهم انهم هم وحدهم شعب الله المختار، واما غيرهم من البشر فهم حيوانات لها أشكال آدمية " .[٧٢]

ولا يمكن ان يمر الحديث عن الوعد المذكور آنفًا دون ان يرد على الذهن وعد بلفور، فهو صورة طبق الأصل عن الوعد التوراتي المزيف مثلته بريطانيا على مسرح شرقنا، وقد سجل افجع مأساة من مآسي القرن العشرين. ومن الواضح ان كلا الوعدين يرمي إلى تحقيق عملية واحدة من حيث الأعداد والتصميم، هي: طرد سكان فلسطين من مساكنهم وإحلال اليهود محلهم. وإذا كان وعد بلفور لم يشر صراحة إلى الإبادة والقتل والتشريد فإن ذلك حصل عمليا عند التفنيذ. ولنا ان نسأل: من أي جاءت بريطانيا يا ترى بهذا الحق المنطوي على سلب أرض فلسطين من أهلها ومنحها لليهود؟ . . ومن منحها هذا الحق لتظهر بمظهر السخاء والكرم الحاتمي؟ . . . هل فلسطين بائرة لا أهل لها حتى تمنح بالوعود إلى زيد أو عمرو؟

ان هذا التجاوز على حقوق أهل فلسطين لا يمكن ان يدوم لانه عمل عدائي صريح مخالف للعدل والإنسانية، فكما أزيل في الماضي كذلك سيزال عاجلا أو آجلا. والحق لا يموت إذا وجد وراءه مطالب سخي في الصبر والتضحية.

وأدق تحليل لواقع الحال بالنسبة لقضية العرب واليهود يمكن ان ننهي به هذا الفصل هو ما كتبه اسحق دويتشر المعلق اليهودي المعروف بتحليلاته للأحداث السياسية الدولية التي كانت تنشر في الصحف الرئيسية لمدة أربعة عشر عاما في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا واليابان والهند وأمريكا اللاتينية، فخلص من خلال خبرته العملية معرفته الدقيقة بالأحوال السياسية والاقتصادية والعسكرية في إسرائيل إلا ان النصر الإسرائيلي سنة ١٩٦٧ يعد كارثة تاريخية بالنسبة للصهيونية على المدى البعيد، وان الطريق العربي إلى النصر على الصهيونية والاستعمار يمر بخطى سريعة نحو تحقيق تطور شامل في بنيان مجتمع عربي موحد مبني على استراتيجية ثورية جديدة يرمي إلى التحرر من طوق المطامع الاستعمارية في المنطقة. فيقول دويتشر ما نصه:

" إن الحرب و (معجزة) النصر الإسرائيلي لم تحلا أيا من المشاكل التي كانت قائمة بين إسرائيل وبين الدول العربية. بل على العكس، فقد ضاعفت الحرب من خطورة المشاكل القديمة، وخلقت مشاكل أخرى جديدة اكثر من أي وقت مضى. وانني مقتنع بان النصر الإسرائيلي سيتحول في المستقبل القريب إلى كارثة تصيب دولة إسرائيل نفسها. ان هذا النصر بالنسبة لاسرائيل هو اشد ضررا لها من الهزيمة ولقد أضعفها بدلا من ان يوفر لها الأمن والاستقرار". (٧٣)

الخاتمة

وختاماً يبدو لنا ان الصهيونية مع المصائب والكوارث التي أحدثتها في البلاد العربية في اعتداءاتها المتكررة خدمت العرب في شيء واحد، هو بعثها الإحساس القومي العربي في الأمة العربية واليقظة بعد رقاد طويل، كما أحدثت وعياً بين الأمم الغربية التي لم تكن تعلم شيئا عن العرب غير ما كان يصلها من اليهود وأعوانه إذ صار العالم اليوم يتنور ويتفهم الحقيقة الواقعة التي كان يجهلها، وهي ان هناك جماعة معتدية على شعب مسالم تريد اغتصاب أرضه وطرده منها ليحتل محله بالقوة.

الهوامش

(١) انظر: "بروتوكولات حكماء صهيون"، للأستاذ عجاج نويهض، م١ ،ص٦.

(٢) لقد سبق ان أصدرت جماعة مؤلفة من ٥٠٠ شاب من يهود خاركوف في روسيا وهم من جملة أعضاء منظمة "عشاق صهيون" بيانا في استنبول سنة ١٨٨٢ م على أثر المذابح الموجهة ضد اليهود في سنة ١٨٨١ في روسيا (اليوكروم) يعرف باسم "بيان بيلو" The Manifesto of Bilu تدعو فيه إلى تنظيم حركة العودة إلى فلسطين وتطالب (على حد تعبيرها) بالرجوع إلى "بلدنا فلسطين التي منحها الرب لنا وهي وطننا كما أثبتته الوثائق التاريخية". وكلمة بيلو مأخذوة من التوراة وتؤلف الأحرف الأولى مما جاء في العدد الخامس من الإصحاح الثاني من سفر اشعيا "يا بيت يعقوب هلم فنسلك في نور الرب"، راجع نص البيان في كتاب "The Israel- Arab Reader" الطبعة الثانية، ص٣-٤.

(٣) "حوليات فلسطين"، ص١٤.

(٤) "العربي" العدد ١٠٩، ص٥٣.

(٥) حول صلة البروتوكولات بأحكام التلمود راجع القس بولص حنا مسعد، "همجية التعاليم الصهيونية"، ١٩٣٨.

(٦) ان صيغة اللغة التي كانت قد كتبت بها البروتوكولات في الأصل غير معلومة، فيستخلص البعض أنها بالعبرية أو الفرنسية وقام الكاهن نيلوس بنقلها إلى الروسية، بينما يرجح البعض أنها كانت باللغة الروسية وقام نيلوس بطبعها.

(٧) يعتقد الباحثون الغربيون ان واضع البروتوكولات هو أحد كبراء اليهود المشهور في عالم الكتابة اليهودية باسم "أحدها عام"، أي أحد أفراد الشعب، وجاء إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، وأقام ومات فيها سنة ١٩٢٧ بعد عمل استمر نحو ٦٠ عاماً في سبيل الصهيونية.

(٨) محمد خليفة التونسي "الخطر اليهودي- بروتوكولات حكماء صهيون"، الطبعة الرابعة، بيروت.

(٩) يجد القارئ في كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" للأستاذ البحاثة عجاج نويهض بحثا مستفيضا عن بروتوكولات حكماء صهيون. والكتاب يقع في مجلدين وأربعة جزاء طبع في بيروت. والكتاب هو من احسن ما كتب في هذا الموضوع وفي اليهودية العالمية.

(١٠) يرى مستر جفريز مؤلف كتاب "فلسطين- الحقيقة" ان فكرة استعمار فلسطين على يد الصهاينة ترجع إلى ما قبل عهد نابوليون بحوالي ستة قرون، وذلك حين جاء ثلاثمائة حبر من أحبار اليهود إلى صلاح الدين الأيوبي لاستقصاء الإمكانيات لهجرة اليهود إلى فلسطين فيقول ما هذا نصه: "لما استعاد صلاح الدين مملكة الإسلام وجد اليهود عطفا منه وكانوا عندئذ قلة (في فلسطين). وهناك حادث تاريخي غيب ذو بال قل من عرفه، وهو ان صلاح الدين استقبل في سنة ١٢١١م. ثلاثمائة حبر من احبار اليهود جاءوا من إنكلترا وفرنسا، وقد جاء هؤلاء سعيًا وراء الاستقصاء عن إمكانية هجرة اليهود إلى فلسطين. غير ان مهمة هؤلاء الأحبار لم تسفر عن أية نتيجة، انظر:

Jeffries (p), "palestine- The Reality", .30.

(١١) ايلي ليفي أبو عسل، "يقظة العالم اليهودي"، ص١٢٤.

(١٢) "يقظة العالم اليهودي"، ١٤٥-١٥٠.

(١٣) "حوليات فلسطينية"، ص١٠-١١.

(١٤) يجد القارئ في كتاب الأستاذ عجاج نويهض "بروتوكولات حكماء صهيون" (م٢: ص٢٦٠-٢٤٨) بحثا مستفيضا يتناول تاريخ حياة مونتوفيوري ودوره في محاولات الصهيونية في تحقيق أهدافها الاستعمارية الخاصة با ستيطان اليهود ارض فلسطين. وما ذكره الأستاذ نويهض في هذا الصدد ان مشروع مونتوفيوري كان يرمي إلى استئجار ١٠٠-٢٠٠ قرية في شمال فلسطيني، صفد وطبرية وما اليهما، لمدة ٩٠ سنة على ان تدفع الأعشار السنوية سلفا وبزيادة ١٠-٢٠٪ على معدل تخمين الأعشار وقتئذ وعلى ان تكون الأراضي خلال مدة الإيجار لا يد لاحد عليها، واليهود أحرار في التصرف في الإنتاج داخل فلسطين وخارجها، إلا ان انسحاب جيش محمد علي باشا من سورية وفلسطين قضى على هذه الصفقة.

(١٥) N. Socolow, "History of Zionism", vol.II, p.230

(١٦) N. Socolow, op.cit. vol.II, p.366.

(١٧)

(١٨) يوري ايفانوف "حذار من الصهيونية"، ترجمة محمد كامل عارف، ص٤٦-٤٥.

(١٩) خيري حماد، "الصهيونية"، ص٧٨-٨٠.

(٢٠) كان شبنجلر يعمل حتى عام ١٩١٠ مدرسا في سابروكن ودوسلدروف وهامبورغ دون ان يكون لديه شهادة اختصاص أكاديمي، وما أن انتهى عام ١٩١٨ إلا وظهر كتاب ضخم في مكتبات ألمانيا يحمل عنوانا مثيرا "تدهور الغرب" ولم يلاحظه القراء في بادئ الأمر، ثم اكتشف الناس أهمية هذا الكتاب الذي يضم لأول مرة محاولة لتقرير ما سيحدث في تاريخ المستقبل ومحاولة لمتابعة مراحل لم تحدث بعد من مصير حضارة الغرب. ولعل هذا هو السبب الذي جعل الناس ترغب في الاطلاع على ما تضمنه من آراء فارتفع عدد النسخ المباعة منه حتى أعيد طبعه عدة مرات، ولم تمض عشر سنوات حتى بيعت من الكتاب مائة ألف نسخة، وذلك على الرغم من ان المؤلف لم يحمل شهادة أكاديمية. وكانت طريقة شبنجلر تعتمد على مقارنة الحضارات وكان يعتقد بان التاريخ يمكن ان يكون علمًا كعلم الأحياء أو الفيزياء، انظر: "سقوط الحضارة" لمؤلفه كولن ولسون، ترجمة افيس زكي حسن، بيروت، ١٩٧١، ص١٢٦-١٤٢.

(٢١) احمد بهاء الدين، "حضارات تزدهر ثم تهوى"، مجلة العربي الكويتية، العدد ٢٠٩، نيسان ١٩٧٦، ص٦-١٣.

(٢٢) هو السير هنري كامبل بنرمان سياسي بريطاني تزعم حزب الأحرار في فترة عصيبة من تاريخ إنكلترا وأصبح رئيساً للوزارة البريطانية من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٠٨، ولم يلبث ان مات يوم ٢٢ نيسان من الشهر نفسه أي بعد استقالته بـ١٧ يوما (دائرة المعارف البريطانية لسنة ٤٤:٧١٧، ١٩٦٥).

(٢٣) (كتاب الثقافة القومية الاشتراكية الذي يدرس لطلاب السنة الأولى والثانية في جامعات القطر السوري) ١٩٤٢-١٩٧٣: ص١٧١.

(٢٤) انظر: "وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي"، جمعها موسى الكاظم التونسي، دمشق ١٩٧٢، ج١، ص٤٧-٤٨، "اليهودية" للدكتور احمد شلبي، ط٣، ١٩٧٣، ص٩٩-٢٠١.

(٢٥) فاروق الكيلاني "شريعة العشائر في الوطن العربي"، ص٨٣-

(٢٦) حبيب جاماتي، مجلة المصور المصرية، عد ١٠، اكتوبر، ١٩٥٨.

(٢٧) انظر كتابه عن اللهجات العامية البغدادية: ترجمه إلى العربية الدكتور اكرم فاضل. ونشرته وزارة الإرشاد العراقية سنة ١٩٦٢ ضمن المكتبة الفولكلورية(٢)

(٢٨) راجع "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر" تأليف محمد محمد حسين

٣٦١-٣٣٤: ٢٢، ١٩، ١٩٥٤، "تاريخ الدعـوة إلى العـامـيـة وأثرها في مـصـر" تأليف الدكتورة نفوسة زكريا سعيد، مجلة "المثقف العربي" وزارة الاعلام ايلول ١٩٧٤ ص ٨٦-٧٨، "التـبشـيـر والاسـتـعـمـار في البـلاد العـربيـة"، تأليف الدكتـور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ بيروت ١٩٧٣.

(٢٩) حبيب جاماتي، مجلة المصور المصرية، عدد ١٠، ١٩٥٨.

(٣٠) كانون اتصال هرتزل بالسلطان عبد الحميد عن طريق وسيط يدعى شيفاليه دي نيولنسكي C.deNewlinksky كانت له صلة بالباب العالي في استامبول ففاتح السلطان عبدالحميد في طلب منح اليهود بعض الأراضي في فلسطين بغية إنشاء مستوطنة مستقلة على نمط جمهورية فينيسيا، فكان الرد القطعي بأن قال: " انصحوا دكتور هرتزل بان يحجم عن أية خطوة أخرى في هذا الموضوع لأني لا أستطيع ان افرط بقدم مربعة من الأرض لأنها ليست ملكي وانما هي ملك الشعب الذي قاتل من اجلها وهي معجونة بدمه. ليحتفظ اليهود بملايينهم فإذا قدر لمملكتي ان تتبدد فعندئذ قد يحصلون على أرض فلسطين مجاناً. أما قطع أي شبر من أرضنا هو بمثابة قطع قطعة لحم من جسمنا". هذا ما ذكره باربور نقلا عن يوميات هرتزل المنشورة في تل ابيب سنة ١٩٣٤، انظر:

N. Barbour, "Nisi Dominus- A Survey of the palestine Controveersy", London, 1946, .45.

وهناك ما يدل على ان السلطان عبد الحميد وافق في عام ١٩٠٢ بعد مفاوضات طويلة مع هرتزل الذي عرض عليه مبلغ ١٦٠٠٠٠٠ جنيه استرليني مقابل منح اليهود حق الاستيطان الاستعماري في العراق وسورية والاناضول واستثنى فلسطين ممادفع هرتزل إلى رفض العرض (انظر: تاريخ فلسطين الحديث)، للدكتور الكيالي نقلا عن مذكرات هرتزل الكاملة، ج٤، ص١٣٠٢.

ويجد القارئ في كتاب الجنرال التركي رفعت اتيلفان، "الخطر المحيط بالإسلام" بحثاً مفصلا عن دور الصهيونية في خلع السلطان عبد الحميد والمؤامرات التي دبرت لاسقطاه بسبب عدم رضوخه لمطالب اليهود لمنحهم امتيازات في فلسطين. ففي ذلك يقول: "ان الشخص الوحيد في تاريخ الأتراك عموما الذي عرف حقيقة الصهيونية وقدر اضرارها على الأتراك والإسلام وكافحها مدة طويلة لتحديد شرورها هو السلطان عبد الحميد الثاني، ان هذا السلطان التركي العظيم كافح هذه المنظمات الخطرة مدة ثلاث وثلاثين عاما بذكاء وعزم وارادة مدهشة جداً كالأبطال.

(٣١) خيري حماد "الصهيونية" ص٤٩-٤٣.

(٣٢) "العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب"، ترجمة نجدة فتحي صفوة، ١٩٦٩، ص١٢٣-١٢٤.

(٣٣) ان وعد بلفور هو عبارة عن خطاب موجه من وزارة الخارجية البريطانية سنة ١٩١٧م، إلى

"لورد روتشيلد" بوصفه ممثل اللجنة السياسية التابعة للمنظمة الصهيونية، وفي هذا الخطاب يعلن وزير الخارجية البريطانية باسم حكومته أنها تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وتريد ان تبذل كل جهودها لتحقيق هذا الهدف، على ان يكون من المفهوم بوضوح أنها لن تفعل أي شيء قد يضر بالحقوق الدينية أو المدنية الخاصة بالجماعات غير اليهودية في فلسطين.

(٣٤) خيري حماد، "الصهيونية"، ص٧٦.

(٣٥) ايلي ليفي أبو عسل، "يقظة العالم اليهودي"، ص٢٢-٢٤، و ٣٤.

(٣٦) جريدة الأحرار، العدد الصادر بتاريخ ٢٨ آب ١٩٣٠ ، ص٣.

(٣٧) انظر: الدكتور احمد نسيم سوسه ، "القضية الصهيونية والروح العبية"، في العددين ٢٧-٢٥، من مجلة الراطبة العربية ١٩٣٦.

(٣٨) ليلنتال، "إسرائيل- ذلك الدولار الزائف"، ص٩٦.

لم يكن نوري السعيد في الحكم عندما كلف توفيق السويدي بتأليف الوزارة بل كانت وزارة علي جودة الأيوبي الثانية قائمة آنذاك وهذه لم تلبث في الحكم إلا أقل من شهرين فأساقتلت في أول شباط سنة ١٩٥٠.

J. Parkes, "A Histry of the Jewish People"; p.7.

(٣٩) ليون، "ابراهام: المفهوم المادي للمسألة اليهودية"، ترجمة عادل نويهض، ص٣١.

(٤٠) من جملة الجرائم التي ارتكبتها المنظمات الصهيونية في سبيل حث اليهود على الهجرة إلى إسرائيل قامت به إحدى هذه المنظمات في العراق سنة ١٩٥١ بإلقاء قنابل يدوية على أماكن اليهود لإرغامهم على الهجرة إلى إسرائيل فقتل من جراء ذلك يهوديان وجرح عدد آخر من اليهود فهاجر بسبب ذلك ١١٥ ألف من يهود العراق إلى إسرائيل. وقد اكتشفت الشرطة العراقية هذه المنظمة الصهيونية السرية، فحكم بالإعدام على اثنين من أعضاؤها كما صدرت أحكام تتراوح بين خمس سنوات وثماني سنوات على آخرين. وعلى اثر ذلك نشر مدير شرطة بغداد كتابا بعنوان "سموم الأفعى الصهيونية" تضمن وقائع المحاكمة والأحكام الصادرة، وتصاوير المجرمين والأسلحة التي وجدت معهم، وهذا الكتاب مفقود في العراق الآن ولا بد ان تكون الجهات التي يهمها الأمر قد جمعته واشترت جميع نسخه "العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب"، ترجمة الأستاذ نجدة صفوة، ص١٢٥-١٢٦، وقد سميت عملية خروج اليهود من العراق باسم

عملية علي بابا (ليلنتال، "إسرائيل"، ص٣١٥.

(٤١) لقد عبر عن ذلك الدكتور محمود السمرا في تعليقه على كتاب "إسرائيل ويهود العالم" احسن تعبير مستشهداً بكتابات الصهاينة أنفسهم، فقال:
"لقد عملت معظم الأجهزة الصهيونية المختلفة فعلا على خلق هذا الجو من الإرهاب وعدم الاستقرار في البلاد التي يريدون من يهودها ان يهاجروا، كتدبير حوادث انفجار في أماكن العبادة اليهودية. وقد عبر أحد محرري جريدة (دافار) الإسرائيلية عن هذا الاتجاه بوضوح، وذلك عندما قال: "أنا لا أشعر بالخجل وانا اعترف هنا انه لو كانت لدى السلطة لأخذت عشرات الشباب الأذكياء، المخلصين لمثلنا العليا، ثم أرسلهم متنكرين إلى البلاد التي استكان فيها اليهود إلى رغد العيش، وذلك من اجل نشر شعارات معادية للسامية، وما شابه هذا من الشعارات ... وأنا على يقين بأن هذه ستؤدي إلى نتائج، بشأن الهجرة إلى إسرائيل، افضل بكثير من النتائج التي حققتها حتى الآن البعثات التي نرسلها لتصب وعظها في آذان صماء"). (العربي، العدد ١٤٣، تشرين الأول ١٩٧٠، ص١٥١). انظر التفاصيل من أعمال الصهيونية في هذا المجال في كتاب "ايفان دونيف"، تعريب فرات الجواهري، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤.

(٤٢) انظر ما تقدم عن "اليهود في مختلف أنحاء العالم" في الفصل السابع.

(٤٣) العربي، العدد ١٣٦ (آذار ١٩٧٠، ص١٣١).

(٤٤) خيري حماد، "الصهيونية"، ص١٠٤.

(٤٥) هنري كتن، "فلسطين في ضوء الحق والعدل، ص١١-١٢.

(٤٦) "اليهود والصهيونية في علاقات الدول الكبرى"، ص٣١-٣٥.

(٤٧) "يوجد اليوم حوالي ٥,٥ مليون يهودي في الولايات المتحدة، أي أقل من ٣٪ من السكان، ومن هؤلاء لا يوجد غير مليون وربع المليون ينتمون إلى المنظمات الصهيونية المختلفة. وكما أن ليس كل اليهود صهاينة، فانه ليس كل صهيوني يهوديا بالضرورة فقد لعب المسيحيون الصهاينة دورا حساسا في هذه الحركة". (الفريد ليلنتال، "إسرائيل ذلك الدولار الزائف"، ص١٦).

(٤٨) M. Rodinson,"Israel and the Arabs", 1968.

(٤٩) A. Leon, "The Jewish Question".

ترجمة عماد نويهض بعنوان "التفسير المادي للمسألة اليهودية"

(٥٠) A. Lilental, "The Other side of the Coin".

ترجمه إلى العربية عمر ابوحجلةبعنوان "اسرائيل: ذلك الدولار الزائف"، دار العلم للملايين.

(٥١) "لهذا... أكره اسرئيال"، للمقدم سامي الغمراوي.

(٥٢) بريطانية، مكتب السجلات العامة، رقم ٢٤-٢٤ (٢٣ اب، اغسطس ١٩١٧).

(٥٣) هنري كتن، "فلسطين في ضوء الحق والعدل، ص١١-١٢.

(٥٤) المرجع السابق، ص١٤.

(٥٥) خيرية قاسمية، "وثائق بريطانية حول اقتراح يهودي باقامة دولة يهودية في منطقة الخليج العربي أثناء الحرب العالمية الأولى"، شؤون فلسطينية، عدد كانون الثاني ١٩٧٢، ص٢٩١-٢٩٠، نقلا عن الوثائق البريطانية التالية:

F.O. 882-2-14 Arab Bureau Paperes. F.O. 371-3053-18242.

(٥٦) "مجلة العربي"، العدد ١٤٣، ص١٥١.

(٥٧) بلغ عدد اليهود الشرقيين ٥٧٨ر٢٤٢ر١ نسمة عام ١٩٦٦ أي ٥٣٪ من مجموع سكان فلسطين المحتلة بينما بلغ عدد اليهود الغربيين ٨٩٩ر١٠١ر١ نسمة فقط "التعليم في إسرائيل"، الدكتور منير بشور وخالد مصطفى الشيخ يوسف، ١٩٦٩، ص٣٣.

(٥٨) اسحق دويتشر، "اليهودي اللايهودي"، ص٧٥-٧٧.

(٥٩) "مجلة الدراسات العربية"، عدد نيسان ١٩٧٢، المقال المرسوم "المؤسسة الحاكمة في إسرائيل".

(٦٠) انظر هيلدا صايغ، "التمييز العنصري ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل"، وقد سبقت الاشارة إليه. واننا نورد فيما يلي أهم المراجع التي تتناول هذا الموضوع:

Marie Syrkin, "Oriental Jews in Israel", N.Y., 1952; M. Selzer, "The Arianzation of the Jewish State", N.Y. 1967.

(٦١) انظر المقال: "العبرانيون السود" بقلم عبدالحفيظ محارب المنشور في عدد ١٣ ايلول ١٩٧٢ من مجلة شؤون فلسطينية، ص٧٠-٨٢.

(٦٢) لغة الجعيز هذه هي اقدم لغة سامية انتقلت إلى الحبشة اثر زحف القبائل العربية من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة على مدى أجيال متباعدة في موجات متعاقبة

ومعها دخلت لغاتها ولهجاتها كان أقدمها شيوعا لغة الجعيز (اللغة الأم). وتسمية الجعيز موروثة من قبيلة يمانية يدعى افرادها (الأجاعز) ولا يزال اثر السبئي والحميري القديم المعروف بالخط المسد ظاهرا فيك تابة لغته الجعيز وهو من اقدم الآثار التي خلفتها حضارة لجنوب العربي في المجتمع الحامي في الحبشة. وقد كان لإدخال هذه اللغة المكتوبة بالحروف الأبجدية اعمق الأثر في نشوء ورسوخ حضارة جديدة في هذه الربوع وقد استعملت هذه اللغة في تدوين اقدم أثر مخطوط وهو المعروف باسم سجل الملوك الذي يحكي تاريخ الحبشة منذ اقدم عصورها المعروفة كما استعملت في الرقم والنقوش المكتشفة في "ريحا" وفي بلدة اكسوم العاصمة القمية. "إلا ان هذه اللغة اندرثت تدريجيا بسبب تغلب اللهجاتالكوشية الملحية عليها واضمحلال مدينة اكسوم ودولتها أمام حروب المسلمين واليهود السود فيما بعد. فانحصر نطاق استعمالها بفضل حروفها الابجدية في كتابة الأدب والوثائق والطقوس الدينية فقط. وحتى يومنا تجري الطقوس الدينية في الكنيسة الحبشية بلغة الجعيز كما وتكتب بها وللكنيسة الحبشية المسيحية واليهود افلاشا اذن يعود الفضل في بقاء هذه اللغة على قيد الحياة حتى الآن وان كانت بنطاقها المحدود (ممتاز العارف، "الاحبش بين مأرب واكسوم"، بيروت، ١٩٧٥، من ٩-٥١.

(٦٣) المرجع السابق، ص١٥-١٦.

(٦٤) (تك، ١٢: ٣٥، ١٧، ١٨:١٧، ١٨-٢٠: ١٥).

(٦٥) (خر، ١٢: ٣٤)؛ (تث، ١٦-١٧: ٢٠)؛ (عد، ٥٥-٥٦-٥٠: ٣٣، ١٧-١٨: ١٣)؛ (يش، ٢١-٢٤: ٦)؛ (١صم، ٣-٢٣: ١٥).

(٦٦) (تك، ١٤: ١٨).

(٦٧) ما تقدم عن قوانين الحرب في التوراة وتحريف التوراة في الفصل الثالث.

(٦٨) سورة المائدة، أية ٣٢.

(٦٩) الايتان، ٧، ٨.

(٧٠) ٢ بط، ٥-٧: ١.

(٧١) الأسبوع العربي، العدد ٦٦٦، لسنة الثالثة عشرة، ١٣ آذار، ١٩٧٢، ص٣٩.

(٧٢) "وثيقة للكنيسة القبطية في مصر"، الأنوار البيروتية، السنة ١٦، العدد ٥٠٣٥، ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٤، ص٦.

(٧٣) اسحق دوتيشير، "اليهودي اللايهودي"، ص٩٢-١٠٦.

المحتويات

الفصل الرابع

يهود العالم وصلتهم بفلسطين

الفصل الخامس

لمحات من تاريخ يهود العراق القديم وصلته بيهود الشرق

الفصل السادس

دور الصهيونية والاستعمار في خلق إسرائيل